هو العزيز

معرفة الإمام (7)

بحوثٌ تفسيريّةٌ ، فلسفيّةٌ ، روآئيّةٌ ، تاريخيّةٌ ، اجتماعيّةٌ

حَوْلَ الإمامةِ و الولايَةِ عُمُوماً؛

و حَوْلَ إمامةِ و ولايةِ أميرالمؤمنين علىّ بن أبيطالبٍ و الأَئِمّةِ المعصومينَ سلامُ الله عليهم أجمعين خصوصاً

دُروسٌ إستِدلاليّةٌ و علميّةٌ مُتّخَذةٌ من القرءانِ الكريم و رواياتٌ مأْثورةٌ عن الخاصّةِ و العامّةِ ؛ و أَبحاثٌ حَلّيّةٌ و نَقدِيّةٌ حَوْلَ الوِلايَةِ

لمؤلّفه الحقير:

السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ عُفِيَعنه

الدرس الثاني بعد المائة إلى الخامس بعد المائة: في تفسير ومفاد الحديث النبويّ الشريف : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ

بِسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

وصلّى اللهُ على محمّد وآله الطّاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

الْيَوْمَ يَئِسَ الّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتى وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا . (1)

بعد أن فرغنا والحمد لله تعالى من الحديث عن سند حديث الولاية يوم عيد الغدير : مَنْ كُنتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ، ننتقل الآن إلى الحديث عن معنى المَوْلَى ومُفاد نصّ هذا الحديث ؛ ووجوب طاعة الأُمّة لمولى الموحّدين عليه صلوات الله وصلوات ملائكته المقرّبين وأنبيائه المرسلين .

جاء في مناقب ابن شهرآشوب عن أبي الحسن المدائنيّ أنّه قال : كتب معاوية إلى الإمام أمير المؤمنين رسالة قال له فيها :

يَا أَبَا الحَسَن ! إنّ لِي فَضَائِلَ كَثيرةً : كَانَ أَبِي سَيّداً فِي الجَاهِلِيّةِ وَصِرْتُ مَلِكاً فِي الإسْلَامِ ، وَأَنَا صِهْرُ رَسُولِ اللهِ ، وَخَالُ المُؤْمِنِينَ ، (2) وَكَاتِبُ الوَحْي !

فَلَمّا قرأ أمير المؤمنين الكتاب ، قال : أبا الفضل يفخر علينا ابن آكلة الأكباد ؟ اكتب يا غلام :

مُحَمّدٌ النّبِيّ أَخِي وَصِنْوِي
وَحَمْزَةُ سَيّدُ الشّهَدَاءِ عَمّي
وَجَعْفَرٌ الّذِي يُضْحِي وَيُمْسِي
يَطِيرُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ ابْنُ أُمّي
وَبِنْتُ مُحَمّدٍ سَكَنِي وَعِرْسِي
مَنُوطٌ لَحْمُهَا بِدَمي وَلَحْمِي
وَسِبْطَا أَحْمَدٍ وَلَدَايَ مِنْهَا
فَأَيّكُمُ لَهُ سَهْمٌ كَسَهْمِي ؟
سَبَقْتُكُمُ إلَى الإسْلَامِ طُرّاً
عَلَى مَا كَانَ مِنْ فَهْمِي وَعِلْمِي (3)
فَأَوْجَبَ لِي وَلَايَتَهُ عَلَيْكُمْ
رَسُولُ اللهِ يَوْمَ غَدِيرِ خُمّ
فَوَيْلٌ ثُمّ وَيْلٌ ثُمّ وَيْلٌ
لِمَنْ يَلْقَى الإلَه غَدَاً بِظُلْمِي

فلمّا قرأ معاوية الكتاب ، قال : مزّقه يا غلام ! لايقرأه أهل الشام فيميلون معه نحو عليّ بن أبي طالب ! (4)

نرى في هذه الأبيات أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد استشهد بحديث الغدير ، واستنبط وجوب ولايته على الأُمّة من قوله صلّى الله عليه وآله : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَليّ مَوْلَاهُ ؛ فولايته عليه السلام واجبة على الأُمّة كافّة ، وهي تستلزم الإمامة والإمارة والاستخلاف .

تلقّت الأُمّة الإسلاميّة هذا الإشعار بالقبول ، وتسالمت جميعها على روايته عنه عليه السلام . غير أنّ كلّ عالم أخذ من هذه الأبيات ما يتّصل بموضوع بحثه . فمنهم من أخذ منها ما يتعلّق بالصهريّة ، ومنهم من أخذ ما يتعلّق بالنسب ، ومنهم من أخذ ما يرتبط بالسبق إلى الإسلام ، ومنهم من أخذ منها ما يتعلّق بالولاية في غدير خمّ .

فمن علماء الشيعة البارزين الذين أوردوها في كتبهم : الشيخ المفيد والكراجُكيّ ، والفتّال النيسابوريّ ، وأبو منصور الطبرسيّ ، وابن شهرآشوب ، والإربليّ ، وابن سنجر النخجوانيّ ، وعليّ البياضيّ ، والمجلسيّ العظيم [الثاني] والسيّد علي خان المدنيّ ، وأبو الحسن الشريف . ورواها من أعلام العامّة : البيهقيّ الذي رواها برمّتها وقال : إنّ هذا الشعر ممّا يجب على كلّ أحد متوال في عليّ حفظه ، ليعلم مفاخره في الإسلام .

ومنهم : الحافظ زيد بن الحسن الكِنديّ الحنفيّ ، وياقوت الحَمَويّ ، ومحمّد بن طلحة الشافعيّ ، ويوسف بن محمّد المالكيّ المعروف بابن الشّيخ ، وسبط بن الجوزيّ ، وابن أبي الحديد ، ومحمّد بن يوسف الكنجيّ الشافعيّ ، وسعيد الدين الفَرْغَانيّ ، وشيخ الإسلام الحمّوئيّ ، وأبو الفداء ، ومحمّد بن يوسف الزّرَنديّ ، وابن كثير الشاميّ ، والخواجه بارسا ، وابن الصبّاغ المالكيّ ، وخواند مير ، وابن حَجَر الهَيْتَميّ ، والمتّقي الهنديّ ، والإسحاقيّ ، والحلبيّ الشافعيّ ، والشبراويّ الشافعيّ ، والسيّد أحمد قادين خواني ، والسيّد محمود الآلوسيّ ، والقُنْدُوزيّ ، والسيّد أحمد زَيني دَحْلان ، ومحمّد حبيب الله الشنقيطيّ المالكيّ . (5)

ورأينا في أبيات حسّان بن ثابت أنّه ذكر الولاية بمعنى الإمامة والقيادة والهداية . وقال بعد ذلك :

فَقَالَ لَهُ قُمْ يَا عَلِيّ فَإنّنِي
رَضِيتُكَ مِنْ بَعْدِي إمَاماً وَهَادِياً

ويتفرّع على ذلك :

فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا وَلِيّهُ
فَكُونُوا لَهُ أتْبَاعَ صِدْقٍ مُوَالِياً

أي : أنّ شرط الولاية إمامة الناس وهدايتهم ؛ وهذان المعنيان متلازمان .

وكان حسّان بن ثابت من العرب الخالصة ، (6) ويعتمد أهل اللغة والأدب في تفاسيرهم وكتبهم النحويّة والبلاغيّة على شعره لمعرفة اللغة وتفسير القرآن . فكيف يُتَصوّر أن يفرّع هذا التفريع على غير المعنى اللغويّ والمتفاهَم العُرفيّ ، وهو الذي قوله حجّة ، والاستشهاد بشعره عند أهل الأدب يقطع العذر على المعذّرين ؟

ورأينا في شعر الكُمَيت أيضاً أنّه استنتج الرئاسة والحكومة والإمامة من حديث الولاية في يوم الغدير ، إذ قال :

وَيَوْمَ الدّوْحِ دَوْحِ غَدِيرِ خُمّ
أبَانَ لَهُ الْوَلَايَةَ لَوْ أُطِيعَا

ولمّا كان وجوب الطاعة المرتكز على الولاية مستخرج من حديث رسول الله : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ، فمعنى الولاية ، أو بكلمة أفضل : شرط الولاية هو وجوب الطاعة المرتكز على الرئاسة والإمارة والإمامة .

الكميت شاعر عربيّ ، وهو عربيّ المحتد أيضاً . (7) مثله كحسّان إذ يفاد من كلامه ، ويُستشهد به لفهم اللغة وآيات القرآن وشعر العرب وطبّهم .

فكيف يُخال أنّ مثل هذا الشخص الحاقّ في اللغة العربيّة ، يستعمل عبارة أو كلمة في غير موضعها ، ويجعلها في موضع لم تستعمل فيه قطّ ، وهو على ما هو عليه من الجلالة والعظمة في العربيّة ومفرداتها ؟ ولو قدّر أن يكون استعمال كلمة في غير معناها الحاقّ والأصليّ صحيحاً ، فإنّه صحيح بالنسبة إلى الجميع ؛ ويتسنّى لكلّ خطيب أو شاعر أن يستخدم الألفاظ في غير معانيها الحقيقيّة بدون التوكّؤ على قرينة . وفي هذه الحالة تضيع اللغة ويسقُم الشعر والأدب تماماً ، وعندئذٍ لا سبيل لنا إلى فهم معاني الألفاظ من كلام البُلَغاء والفُصحاء .

ومن الأشعار المأثورة عن صحابة النبيّ صلّى الله عليه وآله في حديث الغدير ، الدالّة على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام ووجوب طاعته على الأُمّة ، أبيات الصحابيّ المعروف بجلالة منزلته وعظيم قدره قَيْس بن سَعْد بن عُبَادَة ، الشيعيّ الوفيّ المخلص لأمير المؤمنين عليه السلام في جميع المواطن ، والخطيب البليغ من قبيلة الخَزرَج ، وهم من أنصار المدينة . وأنّ سيرته الحميدة ، وحياته الكريمة ، وعقله الحصيف ، واستقامته وصموده ، وركونه إلى أهل البيت عليهم السلام منذ بدء نشأته ، كلّ ذلك حقيق ببحث تأريخيّ مفصّل .

ينقل التأريخ عنه أنّه عندما عاد من معركة الجمل ، وقف أمام أمير المؤمنين عليه السلام وأنشده الأبيات التالية :

قُلْتُ لَمّا بَغَى العَدُوّ عَلَيْنَا
حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ
حَسْبُنَا رَبّنَا الّذِي فَتَقَ البَص
رَةَ بِالأَمْسِ وَالحَدِيثُ طَوِيلُ
وَعَلِيّ إمَامُنَا وَإمَامٌ
لِسِوَانَا أَتى بِهِ التَنْزِيلُ
يَوْمَ قَالَ النّبِيّ : مَنْ كُنْتُ مَوْلَا
هُ فَهَذا مَوْلَاهُ خَطْبٌ جَلِيلٌ
إنّمَا قَالَهُ النّبِيّ عَلَى الأُمّةِ
حَتْماً مَا فِيهِ قَالٌ وَقِيلُ (8)

فلاحظ في الأبيات المذكورة كيف بهذا الصحابيّ الجليل ، وهو من سادة العرب وعظمائها ، ونجل سيّد الخَزْرَج : سَعْد بن عُبَادَة ، يعتبر عليّاً صلوات الله عليه إماماً له ولمن سواه . وقد انتهل ذلك من الآية القرآنيّة الكريمة : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ وَإِن لّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رِسَالَتَهُ ، التي قال رسول الله صلّى الله عليه وآله في أعقابها : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ .

وعلى هذا ، فإنّ الولاية هنا ينبغي أن تكون بمعنى الإمامة ، أو أنّ الإمامة شرطها لا محالة ، وعندئذٍ يتسنّى مثل هذا الاستنتاج . لذلك فإنّ اللغة العربيّة الأصيلة الحقّة تفيد أنّ الولاية تعني الإمامة ، أو أنّها شرطها .

وللسيّد إسماعيل الحِمْيَرِيّ قصائد جمّة في ولاية أمير المؤمنين عليه السلام . وبعامّة ، أنّ ديوانه يتأ لّف من مدائح أهل البيت ، ومطاعن مناوئيهم . وفيما يلي عدد من أبياته ، نذكرها هنا مثالاً لما نقول :

وِبِخُمّ إذْ قَالَ الإلَهُ بِعَزْمَةٍ

قُمْ يَا مُحَمّدُ فِي البَرِيّةِ فَاخْطِبِ

وَانْصِبْ أَبَا حَسَنٍ لِقَوْمِكَ إنّهُ

هَادٍ وَمَا بَلّغْتَ إنْ لَمْ تَنْصِبِ

فَدَعَاهُ ثُمّ دَعَاهُمُ فَأَقَامَهُ

لَهُمُ فَبَيْنَ مُصَدّقٍ وَمُكَذّبِ

جَعَلَ الوَلَايَةَ بَعْدَهُ لِمُهَذّبٍ

مَا كَانَ يَجْعَلُهَا لِغَيْرِ مُهَذّبِ (9)

ونلاحظ أنّ السيّد الحِمْيَرِيّ ذكر في هذه الأبيات أمر التبليغ بالولاية النازل من الله بلفظ النَصْب . والنَصب لا يناسب إلّا الخلافة والإمامة ، لا المحبّة والنصرة . يقال : نُصب فلان في الخلافة أو الإمارة ؛ ولا يقال : نُصب فلان في المحبّة أو النصرة للناس .

هذا من جهة ، ومن جهة أُخرى فإنّه يقول في البيت الرابع : جعل الولاية بعده لإنسانٍ مهذّب . ويستبين من ذلك أنّ الولاية لو كانت بمعنى المحبّة أو النصرة ، فهي لا تختصّ بما بعده ، بل إنّ على الأُمّة أن تحبّ عليّاً وتواليه وتنصره سواء في عصر رسول الله ، أو في العصر الذي يأتي بعده ؛ ولكنّها الإمامة التي جعلت بعد وفاة الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله عقداً لابدّ منه .

ويقول السيّد الحِميَرِيّ أيضاً :

لَقَدْ سَمِعُوا مَقَالَتَهُ بِخُمّ

غَدَاةَ يَضُمّهُمْ وَهُوَ الغَدِيرُ

فَمَنْ أَوْلَى بِكُمْ مِنْكُمْ فَقَالُوا

مَقَالَةَ وَاحِدٍ وَهُمُ الكَثيرُ

جَمِيعاً أَنْتَ مَوْلَانَا وَأَوْلَى

بِنَا مِنّا وَأَنْتَ لَنَا نَذِيرُ

فَإنّ وَلِيّكُمْ بَعْدِي عَلِيّ

وَمَوْلَاكُمْ هُوَ الهَادِي الوَزِيرُ

وَزِيري فِي الحَيَاةِ وَعِنْدَ مَوْتِي

وَمَنْ بَعْدِي الخَلِيفَةُ وَالأَمِيرُ

فَوَالَى اللهُ مَنْ وَالَاهُ مِنْكُمْ

وَقَابَلَهُ لَدَى المَوْتِ السّرُورُ

وَعَادَ اللهُ مَنْ عَادَاهُ مِنْكُمْ

وَحَلّ بِهِ لَدَى المَوْتِ النّشُورُ (10)

استهدى الحميريّ في هذه الأبيات بكلام رسول الله : مَنْ أَوْلَى بِكُمْ ، واستنتج من كلامه صلّى الله عليه وآله : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ أمرَ الخلافة والإمارة . ذلك أنّ رسول الله بعد أن أشهد الناس على أَولويّته ، وجعل ولاية عليّ

كولايته ، نظّم القيادة والوزارة في حياته حتّى دنوّ أجله ، كما هيّأ الأجواء للخلافة والإمارة بعد وفاته . ومن المعلوم أنّ هذه المعاني والمفاهيم تستنبط من الولاية ، وإلّا فإنّ الاستنتاج والتفرّع والترتّب أُمور غير صحيحه .

ويقول الحميريّ أيضاً :

نَفْسِي فِدَاءُ رَسُولِ اللهِ يَوْمَ أَتَى
جَبْرِيلُ يَأْمُرُ بِالتّبْلِيغِ إعْلاَنَا
إنْ لَمْ تُبَلّغْ فَمَا بَلّغْتَ فَانْتَصَبَ
النّبِيّ مُمْتَثِلاً أَمْراً لِمَنْ دَانَا
وَقَالَ لِلنّاسِ : مَنْ مَوْلَاكُمُ قُبُلاً
يَوْمَ الغَدِيرِ ؟ فَقَالُوا : أَنْتَ مَوْلَانا
أَنْتَ الرّسُولُ وَنَحْنُالشّاهِدُونَ عَلَى
أَنْ قَدْ نَصَحْتَ وَقَدْ بَيّنْتَ تِبْيَانَا
هَذَا وَلِيّكُمْ بَعْدِي أُمِرْتُ بِهِ
حَتْماً فَكُونُوا لَهُ حِزْبَاً وَأَعْوَانَا
هَذَا أبَرّكُمْ بِرّاً وَأَكْثَرُكُمْ
عِلْماً وَأَوّلُكُمْ بِاللهِ إيمَانَا
هَذَا لَهُ قُرْبَةٌ مِنّي وَمَنْزِلَةٌ
كَانَتْ لِهَارُونَ مِنْ مُوسَى بنِ عِمْرَانَا (11) ونشاهد الحميريّ هنا أيضاً يذكر بعد العبارة المتمثّلة بقوله : مَنْ مَوْلَاكُمْ ، وقولهم : أَنْتَ مَوْلَانا ، عبارة : هَذَا وَلِيّكم بعدي ، ويتفرّع عليها أنّ منزلة الإمام من رسول الله هي كمنزلة هارون ، وأُخوّته له كأُخوّة هارون لموسى بن عمران .

ومن الواضح أنّ الولاية بعد الموت ، والخلافة والوصاية هي من المعاني المستفادة من الولاية بمعنى الإمارة والإمامة ، لا بمعنى المحبّة والنّصرة .

وأنشد القاضيّ التّنُوخيّ قائلاً : (12)

وَزِيرُ النّبِيّ المُصْطَفى وَوَصِيّهُ
وَمُشْبِهُهُ فِي شِيمَةٍ وَضَرائِبِ
وَمَنْ قَالَ فِي يَوْمِ الغَدِيرِ مُحَمّدٌ
وَمَنْ خَافَ مِنْ غَدْرِ العِدَاةِ النّواصِبِ
أَمَا أَنّنِي أَوْلَى بِكُمْ مِنْ نُفُوسِكُمْ
فَقَالُوا بَلَى رَيْبَ المُرِيبِ المَوارِبِ
فَقَالَ لَهُمْ : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ مِنْكُمُ
فَهَذَا أَخِي مَوْلَاهُ بَعْدِي وَصَاحِبِي
أَطِيعُوهُ طُرّاً فَهْوَ مِنّي بِمَنْزِلٍ
كَهَارُونَ مِنْ مُوسَى الكَلِيمِ المُخَاطَبِ (13)

والقاضيّ التنوخيّ هذا يصل نسبه إلى يَعْرب بن قَحْطَان أيضاً . (14) وراه في هذه الأبيات بعد ذكره حديث الولاية : مَنْ كُنتُ مَوْلَاهُ ... يجعل وجوب طاعة الإمام كوجوب طاعة هارون . ولا طائل تحت هذا الأمر ما لم

يحمل معنى ومفاد الإمام والإمامة .

وأنشد الشريف المرتضى عَلَمُ الْهُدَى قائلاً :

أمّا الرّسُولُ فَقَدْ أبَانَ وِلَاءَهُ
لَوْ كَانَ يَنْفَعُ جَائِرَاً أنْ يُنْذَرَا
أمْضَى مَقَالاً لَمْ يَقُلْهُ مُعَرّضاً
وَأَشَادَ ذِكْراً لَمْ يُشِدْهُ مُعَذّرَا
وَسَنَى إلَيْهِ رِقَابَهُمْ وَأَقَامَهُ
عَلَماً عَلَى بَابِ النّجَاةِ مُشَهّرَا
وَلَقَدْ شَفَى يَوْمُ الغَدِيرِ مَعَاشِراً
ثَلِجَتْ نُفُوسُهُمُ ، وأُدْوَى مَعْشَرَا
قَلِقَتْ بِهِمْ أَحْقَادُهُمْ فَمُرَجِّعٌ
نَفَساً وَمَانِعُ أَنّةٍ أنْ تُجْهَرَا
يَا رَاكِباً رَقَصَتْ بِهِ مَهْرِيّةٌ (15)
أَشِبَتْ بِسَاحَتِهِ الهُمُومُ فَأَصْحَرَا
عُجْ بِالغَرِيّ فَإنّ فِيهِ ثَاوِياً
جَبلاً تَطَأْطَأَ فَاطْمَأَنّ بِهِ الثّرَى
وَاقْرَ السّلَامَ عَلَيْهِ مِنْ كَلِفٍ بِهِ
كُشِفَتْ لَهُ حُجُبُ الصّبَاحِ فَأَبْصَرَا
فَلَوِ اسْتَطَعْتُ جَعَلْتُ دَارَ إقَامَتِي
تِلْكَ القُبُورَ الزّهْرَ حَتّى أُقْبَرَا (16)

نرى في هذه الأبيات أنّ الشريف المرتضى ، وهو حفيد أهل البيت ، يعبّر عن حبّه وكلفه بأمير المؤمنين عليه السلام وتعلّقه بشخصيّة المقدّسة . يشبّه . شاكراً . تشيّعَهُ بالبصيرة عند انبلاج الفجر وتمزّق حجب الجهل والجور والتعدّي والمرض ، التي تحول دون قبول الحقّ . فيقول : إنّ الرسول قد أصحر عن ولائه ، لو كان فيه نفع لجائر قاسط . ويقول : لم يقل النبيّ ما قاله معرّضاً ، ولم يبغ هدفاً خاصّاً أو خديعة . وأقام عليّاً باباً للنجاة ؛ أمّا ذوو الضغائن ، فإنّهم حبسوا أنفاسهم في صدورهم حقداً وحسداً ، ولم يجهروا بأنّاتهم . وهذه كلّها آثار ومواصفات نصب الإمامة المتّخذة من كلام النبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلّيّ مَوْلَاهُ . وإلّا فإنّ وصيّة رسول الله بحبّ الإمام أو نصره لا تتمخّض بهذه النتائج كلّها .

كان الشريف المرتضى ضليعاً في اللغة العربيّة وآدابها حتّى قالوا فيه : هو أصل العربيّة . أي : أنّ العرب الذين تمثّل اللغة العربيّة لغتهم الأُمّ ينبغي لهم أن يتعلّموا العربيّة منه .

جاءت ترجمة الشريف المرتضى ومجالسه مع أبي العَلَاء المَعَرّيّ ومناقشاته الأدبيّة في كتب التراجم ، ومنها : «روضات الجنّات» . فقد أُثِر عن الشيخ عزّ الدين أحمد بن مقبل أنّه قال : لو حلف إنسان إنّ السيّد المرتضى كان أعلم بالعربيّة من العرب ، لم يكن عندي آثماً . ونقل عن شيخ من شيوخ مصر أنّه قال : والله ، إنّي استفدت من كتاب السيّد مرتضى «الغُرَر والدّرَر» مسائل لم أجدها في كتاب سيبويه وغيره من كتب النحو

. وكان الخواجة نصير الدين الطوسيّ إذا جرى ذكر السيّد المرتضى في درسه يقول : صَلَوات الله عَلَيهِ ، ويلتفت إلى القضاة والمدرّسين الحاضرين ويقول : كيف لا أُصلّي على السيّد المرتضى ؟!

ونقل ابن فتّال النيسابوريّ عن الشيخ الأديب : عليّ بن أحمد الفنجكرديّ :

لَا تُنْكِرَنَّ غَدِيرَ خُمّ إنّهُ

كالشَّمْسِ فِي إشْرَاقِهَا بَلْ أَظْهَرُ

مَا كَانَ مَعْرُوفاً بِإِسْنَادٍ إلَى

خَيْرِ البَرَايا أحْمَدٍ لَا يُنْكَرُ

فِيهِ إمَامَةُ حَيْدَرٍ وَجَمَالُهُ

وَجَلَالُهُ حَتّى القِيَامَةِ يُذْكَرُ

أَوْلَى الأَنَامِ بِأنْ يُوَالِي المُرْتَضَى

مَنْ يَأخُذُ الأَحْكَامَ مِنْهُ وَيَأْثِرُ (17)

هذا الرجل المطّلع الخبير والأديب العالم المتضلّع الذي كان معاصراً لابن فتّال النيسابوريّ ، استنتج من كلمة المَوْلَى في شعره معنى الإمامة والمرجعيّة في أحكام الدين .

إنّ مانقلناه من شعر مأثور عن كبار الشعراء كشاهد على معنى المولى نموذج من قصائد لا تحصى أنشدها العلماء والأُدباء في الغدير والمعنى المستفاد من الولاية طيلة أربعة عشر قرناً . وفي هذا المقدار الذي نقلناه ما يكفي لأهل الفهم والدراية إن شاء الله .

ونتحدّث فيما يلي عن الشواهد الموجودة في قصّة الغدير ، ودلالة الولاية على معنى الإمامة .

أوّلاً : لفظ المولى نفسه الذي جاء في الحديث . والمولى من مصدر الولاية . والولاية تعني الاتّحاد بين شيئين ، وزوال الحجاب المانع من اتّحادهما . وقد ذكرنا في الجزء الخامس من كتابنا هذا «معرفة الإمام» أنّ جميع المعاني المنقولة للوَلَاية والمَوْلى تعود إلى معنى واحد ، وقد وضع لفظ الولاية لذلك المعنى بلا إضافة .

وقال الراغب الإصفهانيّ في مفرداته ، مادّة وَلِيْ : الْوَلَاءُ والتَّوَالِي أَنْ يَحْصُلَ شَيْئَانِ فَصَاعِداً حُصُولاً لَيْسَ بَيْنَهُمَا مَا لَيْسَ مِنْهُمَا . (18) أي : إذا كان بينهما ما يفصلهما ، فينبغي أن يكون منهما ، أو لا وجود لما يفصل بينهما ، فهما متّحدان بكلّ ما للكلمة من معنى ، أو إذا لم تتحقّق بينهما وحدة ، فإنّ ما يفصل بينهما يجب أن يكون منهما ، لا من شيء آخر .

هذا هو معنى الوَلَاية وَالوَلَاء والتّوَالِي . وجميع مشتقّات هذه المادّة من وَلِيّ ومَوْلَىْ وأَولَى ووَالِي وغيرها لها نفس المعنى . ونلاحظ هذا المعنى نفسه في جميع تصاريف أبواب «فعل» .

ثمّ جاءت في اللغة بمعنى القرب نظراً لما تقتضيه الكيفيّة الحاصلة بين شيئين من القرب . ولمّا كان القرب المعنويّ كالقرب الحِسّيّ يتمتّع بميزات القرب وخصائصه ، لذلك عبّروا عن القرب المعنويّ بلفظ الولاية . واستعاروا الوَلاء والتّوَالِي للقرب النّسَبيّ ، والقرب الدينيّ ، وقرب الصداقة ، والنصرة ، والاعتقاد ، وما شابهها .

ثمّ استخدموا هذه الكلمة حيثما كان معنى الولاء الحقيقيّ ورفع الحجاب بين شيئين قائماً ، وكان المصداق لتحقّق معنى الوَلاء موجوداً . وعلى سبيل المثال فقد استعملوا كلمة الولاية في النسبة والقرب اللذين يوجدان نوعاً من الاتّحاد والاشتراك بين المالك والمملوك ، وعبّروا عن كلّ واحد منهما : المَوْلَى . وكذلك أطلقوا هذه الكلمة في النسبة بين السيّد والعبد ، والمُنْعِمْ والمنعَمُ عَلَيْهِ ، والمُعْتِق والمُعْتَق . وفي النسبة بين الحليفين ، والعقيدين ، والحبيب والمحبوب ، والناصر والمنصور ، وابني العمّ ، والجارين ، والمتصرّف في الأمر والمتصرّف فيه ،

والمتولّي وصاحب الاختيار ، ومن كان تحت ولايته . وأطلقوا لفظ المولى على كثير من الحالات الأُخرى بنفس النسق . ويقال لكلّ طرف من هذه النسبة : مَوْلَى . وما نستنتجه من هذا العرض هو :

أوّلاً : أنّ إطلاق لفظ المَوْلَى علي كلّ واحد من هذين الشخصين ، اللذين يتواجهان ، ليس من باب إطلاق كلمة على معنيين متضادّين ، ولا يدخل هذا في باب الأضداد كما يعبّرون . لأنّه على الرغم من أنّ السيّد والعبد متضادّان من حيث الفاعليّة والمفعوليّة ، لكنّ استعمال كلمة المَوْلَى في هذين المعنيين لم يأت من وحي هذه المواصفات المتضادّة ، بل من وحي الارتباط والاشتراك القائم بينهما ، وهو كالارتباط بين الناصر والمنصور اللذين يربطهما معنى النصرة . وهذا الارتباط والاشتراك في النصرة له معنى واحد يوصل مفهوم الناصر بمفهوم المنصور .

وثانياً : أنّ استعمال لفظ الوَليّ والمَوْلَى والوَلَايَة ومشتقّاتها في جميع هذه المعاني العديدة التي بلغ بعضها سبعة وعشرين معنى ، ليس من باب استعمال اللفظ في معانٍ متعدّدة ، بل من باب استعماله في معناه الحقيقيّ الأصليّ الواحد ، وإنّما استُعْمِل في هذه المصاديق المختلفة من باب التطبيق والانطباق دون النظر إلى خصائص موضع الانطباق . فعلى هذا ، فلفظ المَوْلَى والوَليّ والوَلَاية وما شابهَا التي استعملت في هذه المعاني العديدة هي من باب الاشتراك المعنويّ ، لا الاشتراك اللفظيّ . (19)

قال التفتازانيّ في «شرح المقاصد» (20) والقوشجيّ في «شرح التجريد» ، ومير سيّد شريف الجرجانيّ في «شرح المواقف» للقاضي الإيجيّ ، في ص 611 : جاءت كلمة المَوْلَى لسبعة معانٍ : المُعْتِق والمُعْتَق ، والحَلِيف ، والجار ، وابن العمّ ، والنّاصِر ، والأوْلَى في التصرّف .

وذكر السجستانيّ العزيزيّ في كتاب «غريب القرآن» ، (21) والأنباريّ في «مشكل القرآن» ، (22) ثمانية معانٍ للمولى ، وهي : العَبْد ، والسِيّد ، والصِهْر ، والوَلِيّ ، وابن العَمّ ، والجار ، والحَلِيف ، والأَوْلَى بالشّيْء .

وذكر الشيخ أبو الفتوح الرازيّ في تفسيره أحد عشر معنى للمولى ، مع مثال لكلّ واحد منها . ونظراً لأهمّيّة كلامه في هذا المجال ننقله نصّاً :

«اعلم أنّ المولى في اللغة على أحد عشر قسماً :

المَوْلَى بمعنى الأَوْلى ، وهو الأصل ، وترجع إليه الأقسام الأُخرى للمولى كما يقال . ومن شواهده ، قَولُهُ تَعالىَ : مَأْوَيكُمُ النّارُ هِىَ مَوْلَيكُمْ . (23) أي : أنّها أولى بكم . ولا تحتمل معنى آخر . ومن شواهده في الشعر ، قول لُبَيْد :

فَغَدَتْ كِلَا الفَرْجَيْنِ تَحْسَبُ أَنّهُ

مَوْلَى المَخَافَةِ خَلْفُهَا وَأَمَامَهَا (24)

أي : أَوْلَى بِالمَخَافَةِ . ولا خلاف بين أهل اللغة في هذا الموضوع .

المعنى الآخر للمولى : مَالِك الرِقّ . والشاهد عليه قَوْلُهُ تَعَالَى : ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مّمْلُوكًا لّا يَقْدِرُ عَلَى شَىْءٍ ... إلى قوله : وَهُوَ كَلّ عَلَى مَوْلَبهُ . (25) يعني عَلَى مَالِكِه .

والمعنى الثالث : المُعْتِق ويسمّى : مَوْلَىً مِنْ فَوْق . والرابع : المُعْتَق ويسمّى : مَوْلَىً مِنْ تَحْتٍ . وكذلك يطلق المَوْلَى على الله ، وعلى العبد قبل العِتق . وهذا قسم آخر . ولا يحتاج إلى شواهد لأنّه معروف . فهذه خمسة أقسام .

ولعلّ من شواهد المُعْتِق قوله تعالى : ادْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَ نُكُمْ فِى الدِّينِ وَمَوَ لِيكُمْ . (26)

والمعنى السادس : ابن العمّ ، كما قال الشاعر :

مَهْلاً بَني عَمّنَا مَهْلاً مَوَالِينَا

لَا تَنْبُشُوا مَيْتَنَا مَا كَانَ مَدْفُونَا

والسابع : الناصر . قال الله تَعالَى :

ذَ لِكَ بِأَنّ اللهَ مَوْلَى الّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنّ الْكَفِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ، (27) أي : لَا نَاصِرَ لَهُمْ .

الثامن : مولى ضمان الجريرة كما يعتق رجل عبداً ، ويتبرّأ من ضمان جريرته وولائه ، فيقول : أنا بريءٌ من خيره وشرّه . ويُدعى : سَائِبَة . فهو يذهب ويتولّى أحداً ، وذلك الشخص يضمن جريرته ، وله ولاء الميراث . يطلق على هذا الشخص : مَوْلَى .

التاسع : الحَلِيف ، كما قال الشاعر :

مَوَالِيَ حَلْفٍ لَا مَوَالِي قَرَابَةٍ

وَلَكِنْ قَطِيناً يَأْخُذُونَ الأَتَاوِيَا

وقال الآخر :

مَوالِيكُمُ مَوْلَى الوَلَايَةِ مِنْكُمُ

وَمَوْلَى اليَمِينِ حَابِسٌ قَدْ تَقَسّما

العاشر : الجار ، كما قال الشاعر :

هُمُ خَلَطُوني بالنّفوسِ وَأَلْجَمُوا

إِلَى أَصْلِ مَوْلَاهُمْ مُسَوّمَةً جُرْدَا

الحادي عشر : السيّد المطاع ، والرئيس ، والإمام ، ومن انخرط في هذا السلك .

فمن تأمّل هذه الأقسام يجد أنّ معناها جميعها : الأَولَىَ . فالله أولى بالعبد ، والعبد أولى بالله ؛ والمعتِق أولى بالمعَتق ، والمعتَق أولى بالمعتِق ؛ والجار أولى بالجار ؛ والحليف أولى بالحليف ؛ والناصر أولى بالمنصور ؛ وابن العمّ أولى بابن العمّ ؛ وهكذا ضامن الجريرة ؛ فهؤلاء أولى بأصحابهم من غيرهم الذين ليس لهم هذه الولاية ؛ فصحّ . إذَن . أن يكون المعنى أَوْلَى ، وهذا المعنى هو المناسب هنا» . (28)

وذكر سِبْط بْنُ الجَوْزَيّ هذه المعاني التي نقلناها عن الرازيّ كلّها إلّا المالك ، والعبد قبل العِتق . وجعل معاني المولى عشرة ، عاشرها الأَوْلَى . ونقل لكلّ معنى شاهداً من القرآن الكريم ، أو من شعر العرب ، ثمّ قال : «المعاني المذكورة في حديث ولاية الغدير لا تصحّ إلّا الوجه العاشر وهو الأَولَى ومعناه : مَنْ كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ نَفْسِهِ فَعَلِيّ أَوْلَى بِهِ . وقد صرّح بهذا المعنى الحافظ أبو الفرج يحيى بن سعيد الثقفيّ الإصبهانيّ في كتابه المسمّى ب : «مَرَج البَحْرِين» ، فإنّه روى هذا الحديث بإسناده إلى مشايخه ، وقال فيه : فأخذ رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم بِيَدِ عليّ عليه السلام فقال : مَنْ كُنْتُ وَلِيّهُ وَأَوْلَى بِهِ مِنْ نَفْسِهِ فَعَلِيّ وَلِيّهُ . فعلم أنّ جميع المعاني راجعة إلى الوجه العاشر . ودلّ عليه أيضاً قول رسول الله : أَلَسْتُ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ؟ وهذا نصّ صريح في إثبات إمامته وقبول طاعته . وكذا قول رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم : وَأَدِرِ الحَقّ مَعَهُ حَيْثُمَا دَارَ وَكَيْفَمَا دَارَ ! و هذا [الكلام من رسول الله] بإجماع الأُمّة . ألا ترى أنّ العلماء إنّما استنبطوا أحكام البغاة من وقعة الجمل وصفّين» . (29)

وقال محمّد بن طَلْحَة الشافعيّ بعد ذكر حديث الولاية في الغدير وشأن نزول آية التبليغ نقلاً عن «أسباب النّزول» للواحديّ ، وبعد نقله سبعة معان لكلمة المولى : «قول رسول الله في غدير خمّ : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ قد اشتمل على لفظه «مَنْ» ، وهي موضوعة للعموم . فاقتضى أنّ كلّ إنسان كان رسول الله مولاه ، كان عليّ بن أبي طالب مولاه . واشتمل على لفظه «المَوْلَى» . وهي لفظة مستعملة بإزاء معان متعدّدة قد ورد القرآن الكريم بها . فتارة تكون بمعنى أَوْلَى ، قال الله في حقّ المنافقين : مَأوَ كُمُ النّارُ هِىَ مَوْلَبكُمْ . (30) معناه : أولى بكم .

وتارة بمعنى الناصر ؛ قال الله : ذَ لِكَ بِأَنّ اللهَ مَوْلَى الّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنّ الكَفِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ . (31) أي : لا ناصر لهم .

وتارة بمعنى الوَارِث ؛ قال تعالى : وَلِكُلّ جَعَلْنَا مَوَ لِىَ مِمّا تَرَكَ الْوَ لِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ . (32) الموالي هنا : الورّاث . [جعلنا لكلّ ورّاثاً] .

وتارة بمعنى العَصَبَة أي : الأقارب من جهة الأب . قال الله تعالى [على لسان زكريّا على نبيّنا وآله وعليه الصلاة والسلام] وَإِنّى خِفْتُ الْمَوَ لِىَ مِن وَرَآءِى . (33) معناه عصبتي . [وقرابتي من أبي] .

وتارة بمعنى الصّديق والحَميم . قال الله تعالى : يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مّوْلًى شَيْئًا . (34) معناه : حميم عن حميم ، وصديق عن صديق ، وقرابة عن قرابة .

وتارة بمعنى السيّد والمعتق . وإذا كانت واردة لهذه المعاني ، فعلى أيّها حملت ؟ إمّا على كونه أولى كما ذهب إليه طائفة ؟ أو على كونه صديقاً حميماً ؟ فيكون معنى الحديث : من كنت أولى به أو ناصره ؛ أو وارثه ؛ أو عصبته ؛ أو حميمه أو صديقه ؛ فإنّ عليّاً منه كذلك .

وهذا صريح في تخصيصه لعليّ عليه السلام بهذه المنقبة العليّة ؛ وجعله لغيره كنفسه بالنسبة إلى من دخلت عليهم كلمة «مَنْ» التي هي للعموم بما لم تجعله لغيره .

وليعلم أنّ هذا الحديث هو من أسرار قوله تعالى : في آية المُبَاهَلَة :

فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ . (35)

والمراد [من نفس رسول الله هنا] نفس عليّ عليه السلام ، فإنّ الله قرن بين نفس رسول الله صلّى الله عليه وآله وبين نفس عليّ . وجمعهما بضمير مضاف إلى نفس رسوله . صلّى الله عليه وآله .

[و في حديث الولاية يوم الغدير] أثبت رسول الله صلّى الله عليه وآله لنفس عليّ عليه السلام ما هو ثابت لنفسه على المؤمنين عموماً . فإنّه صلّى الله عليه وآله أولى بالمؤمنين ، وناصر المؤمنين ، وسيّد المؤمنين . وكلّ معنى أمكن إثباته ممّا دلّ عليه لفظ المولى لرسول الله ، فقد جعله لعليّ عليه السلام .

وهي مرتبة سامية ومنزلة سامقة ودرجة عليّة ومكانة رفيعة خصّص رسول الله صلّى الله عليه وآله بها عليّاً [عليه السلام] دون غيره . فلهذا صار ذلك اليوم يوم عيد وموسم سرور لأوليائه» .

ثمّ أطال ابن طلحة الحديث عن هذا الموضوع مفصّلاً وعرض بحثاً مفيداً وشاملاً ضمّ الأحاديث الدالّة على منزلة أمير المؤمنين عليه السلام بنحو وافٍ . (36)

وقد نقلنا فيما مضى ستّة عشر معنى لكلمة المَوْلَى عن ابن الأثير الجَزَرِيّ في «النهاية» ، (37) فأصبح مجموع معانيها سبعة عشر معنى بعد إضافة الأَوْلَى .

وذكر العلّامة الأمينيّ سبعة وعشرين معنى لكلمة المَوْلَى ، وهي على النحو التالي :

1 . الرّبّ . 2 . العَمّ . 3 . ابْنُ العَمّ . 4 . الابْن . 5 . ابْنُ الأُخْت . 6 . المُعْتِقْ . 7. المُعْتَق . 8 . العَبْد . 9 . المَالِك . [38] 10 . التّابِع . 11 . المُنْعَمُ عَلَيْهِ . 12 . الشّرِيك . 13 . الحَلِيف . 14 . الصَاحِب . 15 . الجَار . 16 . النّزِيل . 17 . الصِهْر . 18 . القَرِيب . 19 . المُنْعِمْ . 20 . العَقِيد . 21 . الوَلِيّ . 22 . الأَولَى بِالشّيء . 23 . السَيّد غَيْرُ المَالِك وغَيْرُ المُعْتِق . 24 . المُحِبّ . 25 . النَاصِر . 26 . المُتَصَرّف فِي الأَمْرِ 27 . المُتَوَلّي فِي الأَمْرِ .

وتحدّث بعد ذلك عن ضرورة الأخذ ببعض هذه المعاني في حديث الولاية وفيما يلي ملخّص لما ذكره .

«فالمعني الأوّل وهو الربّ ، لا يمكن أن يكون هو المراد من المولى في حديث رسول الله ، لأنّه يلزم من إرادته الكفر . وأمّا المعنى الثاني والثالث إلى الثالث عشر ، فلا يمكن الأخذ بها أيضاً لأنّه يلزم من إرادتها الكذب . ذلك أنّه لا يصحّ أن نقول : كلّ من كان رسول الله عمّه ، أو معتقه مثلاً ، أو مالكه ، أو شريكه ، أو حليفه ، أو عقيده ، فعليّ بن أبي طالب عمّه ، أو معتقه ، أو مالكه ، أو شريكه ، أو حليفه أيضاً . وأمّا المعنى الرابع عشر إلى الثامن عشر ، أي : الصاحب ، والجار ، والنزيل ، والصهر ، والقريب ، فلا يمكن أن تكون هي المقصودة من الحديث ، لأنّه يلزم من إرادتها سخافة هذه الخطبة الهامّة وتفاهتها .

فلا معنى لأمر رسول الله بالتوقّف ، ورجوع المتقدّم ، وبقاء المتأخّر في مكانه ، في ذلك الحشد الرهيب ، في أثناء المسير ، ورمضاء الهجير . وإبقاء الجميع في محلّ ليس بمنزل فيه على أساس الوحي الإلهيّ المشفوع بما يشبه التهديد ، والناس قد أنهكهم وعثاء السفر ، وحرّ الهجير ، وحراجة الموقف ، حتّى أنّ أحدهم ليضع نصف ردائه تحت قدمه ، والنصف الآخر على رأسه لجلوسه على الأرض لاستماع الخطبة ، لئلّا يرهقه حرّ الأرض والسماء . فيرقى رسول الله المنبر المصنوع من أحداج الإبل ليقول : إنّ نفسه نعيت إليه ، وهو مهتمّ بتبليغ أمر يخاف فوات وقته بانتهاء أيّامه ، وإنّ له الأهمّيّة الكبرى في الدين والدنيا ، فيخبرهم بأُمور ليس فيها أيّ فائدة ، ولا حاجة إلى إعلانها على الملأ بتلك الحالة المذكورة ، فيقول : من كنت مصطحباً أو جاراً له ، أو نزيلاً عنده ، أو مصاهراً له ، أو قريباً منه ، فعليّ بن أبي طالب كذلك .

ونحن لا نحتمل هذا في أحد من أهل العقول الضعيفة ، فضلًا عن العقل الأوّل والإنسان الكامل : نبيّ الرحمة ، وخطيب البلاغة ، وعلى هذا ، من الإفك الشائن أن نعزو إلى النبيّ إرادة شيء منها .

وعلى تقدير إرادة شيء منها ، فأيّ فضيلة فيها لأمير المؤمنين عليه السلام حتّى يهنّأ بها في ذلك الجمع الغفير ، ويقال له : بخّ بخّ لك ، ويُفضّلها سعد بن أبي وقّاص في حديثه على حمر النعم لو كانت ، أو تكون وأحبّ إليه من الدنيا وما فيها وإن عمّر فيها مثل عمر نوح ؟!

وأمّا المُنْعِمْ والعقيد . فلا يمكن أن يكونا هما المرادين من المَوْلَى في الحديث . لأنّه لا ملازمة في أن يكون كلّ من أنعم عليه رسول الله ، يكون عليّ بن أبي طالب منعماً عليه أيضاً . ولا ملازمة في أن يكون كلّ من حالفه رسول الله ، يكون عليّ عليه السلام حليفاً له أيضاً ، إلّا أن نقول : إنّ المراد هو كلّ من كان رسول الله منعماً عليه بالدين ، والهدى ، والتهذيب ، والإرشاد ، والعزّة في الدنيا ، والنجاة في الآخرة ، فعليّ عليه السلام منعم عليه بذلك ، لأنّه القائم مقامه ، وحافظ شرعه ، ومبلّغ دينه ، والصادع عنه ؛ فلهذا أنّ الله أكمل به الدين ، وأتمّ النعمة . فهو حينئذٍ لا يبارح معنى الإمامة والولاية الذي نحن في صدد إثباته ولا ينفكّ عنه ويساوقه بهذه الأسباب ، لأنّه من معاني الأولويّة التي هي بمعنى الرئاسة وصاحب الاختيار .

ونقول في العقيد : إنّ المراد من العقد ، العهود التي كانت تبرم بين رسول الله ، وبين بعض القبائل من أجل إقرار السلم والصلح ، أو من أجل نصرته . وأمير المؤمنين عليه السلام في هذه العهود بمنزلة رسول الله ، يقوم

بها لتنظيم السلطة الإسلاميّة ، والحكومة الإلهيّة ، والقضاء على الفوضى . وحينئذٍ لا منافاة بينها وبين الولاية بمعنى الإمامة والرئاسة الإلهيّة العامّة ، والقصد متحقّق على أيّ حال .

وأمّا المُحِبّ والنّاصِر على أيّ تقدير كان ، فلا يمكن أن يكونا هما المقصودين من الحديث الشريف ، لأنّه إذا كان القصد من قوله : مَنْ كُنْتُ مُحِبّهُ أَوْ نَاصِرَهُ فَعَلِيّ نَاصِرُهُ أَوْ مُحِبّهُ ، الإخبار بوجوب حبّ المؤمنين عليّ بن أبي طالب ونصرهم إيّاه ، أو إنشاء لهذا المعنى ، فيكون معناه : من كنت محبّه ، وناصره ؛ فعليّ محبّه وناصره ؛ أو أنّ على عليّ أن يكون محبّه وناصره . فلا ضرورة حينئذٍ أن يكون الإخبار بمحبّة عليّ ونصره أو إنشاء وجوبهما في ذلك الحشد من الناس ، وإبلاغهم بذلك ، بل كان من الضروريّ أن يخبر رسول الله أمير المؤمنين عليه السلام نفسه بذلك ، أو ينشئ وجوبه .

إلّا أن يكون المراد من الخطبة واستماع الناس جلب عواطف الملأ وتشديد حبّهم لعليّ عليه السلام إذا علموا أنّ أمير المؤمنين في درجة النبيّ الأكرم محبّهم وناصرهم . لذلك وجب عليهم أن يتّبعوه ، ولا يخالفوا له أمراً ولا يردّوا له قولاً .

ولمّا صدّر رسول الله صلّى الله عليه وآله كلامه بقوله : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ ، نعلم أنّه على هذا التقدير لا يريد من المحبّة أو النصرة إلّا ما هو على الحدّ الذي هو فيه بالنسبة إلى أفراد المؤمنين . فلهذا تكون لعليّ عليه السلام هذه المحبّة والنصرة للناس .

وحينئذٍ فإنّ هذا النوع من المحبّة والنصرة ستكون كمحبّة رسول الله ونصرته تخصّه بما أنّه زعيم الدين والدنيا ، ومالك الأمر ، وحافظ كيانهم . وهذا هو معنى الأولويّة بهم من أنفسهم . فإنّه لو لم يفعل بهم ذلك ، لأجفلتهم الذئاب العادية ، وانتاشتهم الوحوش الكاسرة ، وستمتدّ أيدي العناد من كلّ حدب وصوب ، فمن غارات تشنّ ، و أموال تباح ، ونفوس تُزهق ، وحُرمات الله تُهتك . فينتقض الغرض من بثّ الدعوة وبَسْط نظام الدين . ومن الطبيعيّ أنّ من كان في المحبّة والنصرة على هذا الحدّ ، فهو خليفة الله في أرضه ، وخليفة رسوله . وهذا هو معنى الولاية الإلهيّة الكبرى .

وإذا كان المراد من الحديث الإخبار بوجوب محبّة ونصرة عليّ بن أبي طالب على جماعة المؤمنين أو إنشاء لهذا المعنى ، فيكون المعنى : من كنت محبّه وناصره ، فهو محبّ عليّ بن أبي طالب وناصره ؛ أو أنّ عليه أن يكون محبّاً وناصراً لعليّ . وحينئذٍ لم يكن هذا المعنى جديداً فيحتاج إلى خطبة ، وجمع للناس بالنحو المارّ ذكره ، ذلك أنّنا نعلم أنّه لمّا كان أمير المؤمنين أحد المؤمنين ، فالناس يحبّونه أو عليهم أن يحبّوه وفقاً للآيات القرآنيّة الكريمة .

يضاف إلى ذلك ، لو كان المراد من الحديث الإنشاء أو الإخبار عن محبّة المسلمين أو نصرتهم أمير المؤمنين عليه السلام فينبغي أن يقول : مَنْ كَانَ مَوْلَايَ فَهُوَمَولَى عَلِيّ . أي : من كان محبّي أو ناصريّ ، فهو محبّ عليّ وناصره . بينما نجد أنّ معنى المولى هو المحبّ والناصر ، لا المحبوب والمنصور . ولذلك لا يمكن حمل الحديث على هذا المعنى . ولعلّ سبط بن الجوزيّ نظر إلى هذا المعنى ، وقال في تذكرته ، ص 19 : لم يجز حمل لفظ المَوْلَى في هذا الحديث على الناصر .

على أنّ وجوب المحبّة والنّصرة غير مختصّ بأمير المؤمنين ، وإنّما هو شرع سواء بين المسلمين أجمع ، أن يحبّوا كافّة المؤمنين وينصروهم . فما وجه تخصيصه بأمير المؤمنين عليه السلام ؟ وإن أُريد محبّة أو نصرة مخصوصة له تربو على درجة الرعيّة ، كوجوب المتابعة ، وامتثال الأوامر ، والتسليم له ، فهو معنى الحُجّيّة

والإمامة ، لا سيّما بعد مقارنتها بما هو مثلها في النبيّ الأكرم بقوله : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مُوْلَاهُ . والتفكيك بينهما في سياق واحد إبطال للكلام .

تحدّثنا إلى الآن عن اثنين وعشرين من المعاني السبعة والعشرين التي ذكرناها للمولى . واتّضح أنّ أيّاً منها لا يمكن أن يكون هو المراد من لفظ المَوْلَى في حديث الولاية ؛ فلم يبق منها إلّا خمسة معانٍ هي : 1 . الوَلِيّ . 2 . الأَوْلَى بِالشّيء . 3 . السَيّد (غير المالك أو المعتق ؛ فلا يقال له : مَوْلًى بلحاظ هذا المعنى ، بل للسيادة نفسها لا غير) . 4 . المُتَصَرّف في الأَمْرِ . 5 . المُتَوَلّي فِي الأَمْرِ .

أمّا السيّد فهو الأولى بالشيء من حيث السيادة الدينيّة العامّة على الأُمّة الإسلاميّة ، لأنّه لا معنى أن يعطي الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله سيادة لابن عمّة وفيها عسف وظلم مع أنّ سيادته صلّى الله عليه وآله إلهيّة .

وكذلك المتصرّف في الأمر ، فلابدّ أن يكون معناه التصرّف الإلهيّ المعنويّ المساوق للسيادة والولاية السبحانيّة . وذكر كثيرون أنّ التصرّف في الأمر بمعنى الولاية ، كما قال الفخر الرازيّ في تفسيره الآية المباركة : وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَبكُمْ . [39] عن القفّال ، إذ قال القفّال : «هُوَ مَوْلَبكُمْ» يَعْنِي سَيّدَكُمْ وَالمُتَصَرّفَ فِيكُمْ . وذكرهما أيضاً سعيد الحلبيّ مفتي الروم ، وشهاب الدين أحمد الخفّاجيّ في تعليقهما على تفسير «البيضاويّ» وعدّة في «الصواعق» من معانيه الحقيقيّة . وحذا حذوه كمال الدين الجهرميّ في «ترجمة الصواعق» ، ومحمّد بن عبد الرسول البرزَنْجيّ في «النواقض» ، والشيخ عبد الحقّ في لمعاته .

ولذلك فإنّ المراد بهذا المولى المتصرّف الذي قيّضه الله سبحانه لأن يُتّبَع ، وإلى مدارج ومعارج الإنسانيّة ؛ فهو أولى من غيره بأنحاء التصرّف في المجتمع الإنسانيّ . فليس هو إلّا نبيّ مبعوث أو إمام مفترض الطاعة منصوص عليه من قبل ذلك النبيّ بأمر إلهيّ .

وكذلك المُتَوَلّي في الأَمْرِ وصاحب الاختيار فإنّه ينبغي أن يكون بهذا المعنى حتّى يتسنّى له أن يتولّى أُمور الناس من قبل الله بحقّ فيسوقهم إلى الكمال .

وعدّ أبو العبّاس المبرّد متولّي الأمر من معاني المَوْلَى . قال في قوله : بِأَنّ اللهَ مَوْلَى الّذِينَ ءَامَنُوا : [40] الوَلِيّ والمَوْلَى معناهما سواء . وأبو الحسن الواحديّ في تفسيره «الوسيط» ، والقرطبيّ في تفسيره للآية الشريفة : بَلِ اللهُ مَوْلَبكُمْ . [41] وابن الأثير في «النهاية» ، والزبيديّ في «تاج العروس» ، وابن منظور في «لسان العرب» . فإنّهم ذكروا هذا المعنى للمولى ، وقالوا : ومنه الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : أَيّمَا امْرَأَةٍ نكحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ مَوْلَاهَا فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ . وفي رواية : بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيّهَا ، أي : متولّي أمرها .

وذكره البيضاويّ في ثلاثة مواضع من تفسيره : في قوله تعالى : مَا كَتَبَ لَنَا هُوَ مَوْلَبنَا ، [42] وقوله تعالى : وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَبكُمْ ، [43] وقوله تعالى : وَاللهُ مَوْلَبكُمْ . [44]

وذكر أبو السّعُود العماديّ في تفسيره أنّ المراد بالمولى : متولّي الأمر ، وذلك في تفسير قوله تعالى : وَاللهُ مَوْلَبكُمْ ، [45] وقوله : هِيَ مَوْلَبكُمْ ، [46] وكذلك ذكره الراغب الإصفهانيّ في مفرداته .

وعن أحمد بن الحسن الزاهد الدرواجكيّ في تفسيره : المَوْلَى فِي اللّغَةِ مَنْ يَتَوَلّى مَصَالِحَكَ فَهُوَمَوْلَاكَ يَلِي القِيَامَ بِأُمُورِكَ وَيَنْصُرُكَ عَلَى أَعْدَائِكَ . و لهذا سمّي ابن العمّ ، والمعتِق مَولى . ثمّ صار اسماً لمن لزم الشيء ولا يفارقه .

وكذلك ذكر هذا المعنى الزمخشريّ في «الكشّاف» ، وأبو العبّاس أحمد بن يوسف الشيبانيّ في «تلخيص الكشّاف» والنّسَفِيّ في تفسيره ، في قوله تعالى : أَنتَ مَوْلَىٰنَا ، (47) والنيسابوريّ في «غرائب القرآن» في قوله : أَنتَ مَوْلَىٰنَا ، وفي قوله : فَاعْلَمُوا أَنّ اللهَ مَوْلَىٰكُمْ ، (48) وقوله : هِيَ مَوْلَىٰكُمْ . (49)

وسار على هذا النهج السيوطيّ في «تفسير الجلالين» حين أخذ معنى المولى في قوله : تعالى : أَنتَ مَوْلَىٰنَا ، وقوله: فَاعْلَمُوا أَنّ اللهَ مَوْلَىٰكُمْ ، وقوله : قُلْ لَن يُصِيبَنَا إِلّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا . (50) بمعنى : مُتَوَلّي أَمْرِنَا .

فهذا بحث حول المعاني العديدة للمولى ، وعلمنا أنّ الولاية في الحديث الشريف لا تعني غير الرئاسة الكلّيّة ، والإمامة الإلهيّة ، وأنّ الأُمّة الإسلاميّة بِيَدِ النبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله .

يضاف إلى ذلك ، أنّ الذي نرتأيه في خصوص المقام بعد الخوض في غمار اللغة ، ومجاميع الأدب ، وجوامع العربيّة أنّ الحقيقة من معاني المولى ليس إلّا الأولى بالشيء ، وهو الجامع لهاتيك المعاني جمعاء ، ومأخوذ في كلّ منها بنوع من العناية . إذَنْ فليس للمولى إلّا معنى واحد ، وهو الأولى بالشيء . وتختلف هذه الأولويّة بحسب الاستعمال في كلّ من موارده . وقد سبقنا إلى هذه النظريّة ابن البطريق في «العمدة» ، وهو أحد أعلام الطائفة في القرن السادس . وتطفح بشيء من ذلك كلمات غير واحد من علماء أهل السنّة حيث ذكروا المناسبات في جملة من معاني المولى تشبه ما ذكرنا .

ويكشف عن كون المعنى الأوّل (أي الأولى بالشيء) هو المتبادر من المولى إذا أُطلق ، ما رواه مسلم بإسناده في صحيحه عن رسول الله صلّى الله عليه وآله : لَا يَقُلِ العَبْدُ لِسَيّدِهِ : مَوْلَايَ . وزاد في حديث أبي مُعَاوِية : فَإِنّ مَوْلَاكُمُ اللهُ . وأخرجه غير واحد من أئمّة الحديث في تآليفهم . (51)

وقال الشيخ أبو الفتوح الرازيّ : لا يحتمل من المعاني الواردة في كلمة المَوْلَى ، في الحديث : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ أي معنى غير الأَوْلَى ، أو السَيّد المُطَاع ، كما خاطب الأخْطَل عبد الملك بن مروان بذلك ، وكان نصرانياً . ولا يمكن أن يتّهم الأخطل بأنّ له غرضاً في ذلك ، أو أنّه يميل إلى هذا المذهب وأتباعه . وكان ممدوحه عَلَماً في عدائه لأهل البيت . يخاطبه فيقول :

فَمَا وَجَدَتْ فِيهَا قُرَيشٌ لِأَهْلِهَا
أَعَفّ وَأَوفَى مِنْ أَبِيكَ وَأَمْجَدَا
وَأَوْرَى بِزَنْدَيْهِ وَلَوْ كَانَ غَيْرَهُ
غَدَاةَ اخْتِلَافِ النّاسِ أَكْدَى وَأَصْلَدَا
فَأَصْبَحْتَ مَوْلَاهَا مِنَ النّاسِ كُلّهِمْ
وَأَحْرَى قُرَيشٍ أَنْ يُجَابَ وَيُحْمَدَا

وعلى أيّ حال ، فإنّه أراد بالمولى : السَيّد والأَوْلَى . (52)

ومن الأبيات التي جاء فيها التصريح بإمامة أمير المؤمنين عليه السلام و إمارته ويستفاد ذلك من لفظ المَوْلَى ، أبيات عمرو بن العاص من قصيدة طويلة أنشدها في مدح أمير المؤمنين عليه السلام وبيان منزلته ومقامه وإمامته وإمارته . وبعث بها إلى معاوية حين دعاه إلى نصرته في رسالة أرسلها إليه وهو مقيم في فلسطين . فكتب إليه عمرو بن العاص جواباً يضمّ هذه القصيدة . وأراد أن يشعره أنّه دعاه إلى نصرته ليجعله في مواجهة هذه الشخصيّة الرفيعة ! وأنّ حظّه من هذه الدعوة ينبغي أن يكون عظيماً ذا قيمة ، لا تافهاً لا شأن له . ومن أبيات هذه القصيدة الدالّة على ما نحن بصدده ، هذه الأبيات :

وَكَمْ قَدْ سَمِعْنَا مِنَ المُصْطَفَى

وَصَايَا مُخَصّصَةً فِي عَلِي

وفي يَوْمِ خُمّ رَقَى مِنْبَراً

وَبَلّغَ وَالصّحْبُ لَمْ تَرْحَلِ

فَأَمْنَحَهُ إمْرَةَ المُؤْمِنِينْ

مِنَ اللهِ مُسْتَخْلِفِ المُنْحِلِ

وَفِي كَفّهِ كَفّهُ مُعْلِنَاً

يُنَادِي بِأَمْرِ العَزِيزِ العَلِي

وَقَالَ : فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَىً لَهُ

عَلِيّ لَهُ اليَوْمَ نِعْمَ الوَلِي (53)

وقال الشاعر العربيّ المعروف أبو تمّام ، وهو من شعراء القرنين الثاني والثالث ، قال في هذا الموضوع :

وَيَوْمَ الغَدِيرِ اسْتَوْضَحَ الحَقّ أَهْلَهُ

بِضَحْيَاءَ لَا فِيهَا حِجَابٌ وَلَا سِتْرُ

أَقَامَ رَسُولُ اللهِ يَدْعُوهُمْ بِهَا

لَيَقْرَبَهُمْ عُرْفٌ يَنَهاهُمُ نُكْرُ

يَمُدّ بِضَبْعَيْهِ وَيُعْلِمُ : أَنّهُ

وَلِيّ وَمَوْلَاكُمْ فَهَلْ لَكُمُ خُبْرُ ؟!

يُرُوحُ وَيَغْدُو بِالبَيَانِ لِمَعْشَرٍ

يِرُوحُ بِهِمْ غَمْرٌ وَيَغْدُو بِهِمْ غَمْرُ

فَكَانَ لَهُمْ جَهْرٌ بِإِثْبَاتِ حَقّهِ

وَكَانَ لَهُمْ فِي بَزّهِمْ حَقّهُ جَهْرُ (54)

ومن قصيدة طويلة لشاعر أهل البيت العبديّ الكوفي :

وَكَانَ عَنْهَا لَهُمْ فِي خُمّ مُزْدَجِرٌ

لَمّا رَقَى أَحْمَدُ الهَادِي عَلَى قَتَبِ

وَقَالَ وَالنّاسُ مِنْ دَانٍ إِلَيْهِ وَمِنْ

ثَاوٍ لَدَيْهِ وَمِنْ مُصْغٍ وَمُرْتَقِبِ

قُمْ يَا عَلِيّ فَإِنّي قَدْ أُمِرْتُ بِأَنْ

أُبَلّغَ النّاسَ وَالتّبْلِيغُ أَجْدَرُ بِي

إِنّي نَصَبْتُ عَلِيّاً هَادِياً عَلَماً

بَعْدِي وَإِنّ عَلِيّاً خَيْرُ مُنْتَصِبِ

فَبَايَعُوكَ وَكُلّ بَاسِطٌ يَدَهُ

إِلَيْكَ مِنْ فَوقِ قَلْبٍ عَنْكَ مُنْقَلِبِ

عَافَوْكَ لَا مَانِعٌ طَوْلاً وَلَا حَصَرٌ

قَوْلاً وَلَا لَهَجٌ بِالغِشّ وَالرّيَبِ

وَكُنْتَ قُطْبَ رَحَى الإِسْلَامِ دُونَهُمُ

وَلَا تَدُورُ رَحىً إلّا عَلَى قُطْبِ

وَلَا تُمَاثِلُهُمْ فِيالفَضْلِ مَرْتَبَةً

وَلَا تُشَابِهُهُمْ فِي البَيْتِ وَالنّسَبِ (55)

فهذه كلّها شواهد تدلّ على أنّ المَوْلَى هو الإمام والحاكم على مقدّرات الناس ، والمفوّضة إليه من الله تعالى شؤونهم الدنيويّة والأُخرويّة . أي : أنّ من بلغ مقام الفناء في الله ، ولم يبق بينه وبين الحقّ أيّ بُعْد أو فاصلة في سير مراتب التقرّب ، فإنّ جميع الحجب والفواصل الظلمانيّة والنورانيّة قد رفعت . وهذه هي حقيقة الولاية التي تمثّل مقام العبوديّة الحقّة الحقيقيّة وآخر درجة من الكمالات البشريّة .

وإذا استثنينا أمير المؤمنين عليه السلام والشعراء المعاصرين لرسول الله والأئمّة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين الذين ذكرناهم إلى الآن ، فإنّنا نجد كثيراً من الشعراء الكبار المعروفين بفضلهم وبلاغتهم وأدبهم ، سواء الذين كانوا معاصرين للأئمّة عليهم السلام أم المتأخّرين عنهم ، قد نظموا القصائد العصماء في الغدير والولاية ، وفضائل أمير المؤمنين عليه السلام ومحاسنه ومناقبه . ويستفاد منها معنى المولى المستنبط من الأحاديث التي جاءت فيها كلمة الولاية أو الْمَوْلَى . وقد اتّفق أهل العربيّة على كلامهم وشعرهم واستشهدوا بهما . ومن هؤلاء الشعراء : دِعْبِل الخُزاعيّ ، والأمير أبو فِرَاس ، وا لحُسَيْن بن الحَجّاج ، والحِمّانيّ الكُوفيّ ، والشريف المُرْتَضَى عَلَمُ الهُدَى ، والشريف الرضِيّ ، وابن الروميّ ، والصِنَّوْبَريّ ، والمُفَجّع ، والصّاحِبُ بنُ عَبّاد ، والنَاشِيء الصَغير ، وابن عَلَوِيّة ، وابن حَمّاد ، وابن طَبَاطَبا ، وابن العُوديّ النيليّ ، والجَوهريّ ، والزّاهيّ ، والتّنُوخيّ ، والصّوْليّ النيليّ ، وأبو العَلَا السّرويّ ، وَمَهْيَار ، (56) والفَنْجكِرْديّ ، وَأبُو الفَرَج الرازيّ . وقد ذكرنا قريباً بعض هؤلاء ، ونقلنا من شعرهم الرائع نماذج تدلّ على ما نحن فيه . فهل لأحد أن يرتاب في معاني كلمات هؤلاء الأعلام ، التي عُدّ بَعضها أصل العربيّة وأُصُولها ؟

بحث دقيق في معنى المَوْلَى والأَوْلَى

ينبغيّ أن نعلم أنّ كثيراً من مفسّري العامّة قالوا في تفسير الآية الواردة في سورة الحديد : الْيَوْمَ لَايُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَيكُمُ النّارُ هِيَ مَوْلَبكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ : (57) إنّ المولى هنا بمعنى الأولى ، أي : النار أولى بكم . ومن هؤلاء : الكلبيّ ، والزجّاج ، والفَرّاء ، وأبو عُبَيْدَة . (58) وأبو عُبَيْدَة هو : مُعَمر بن مُثَنّى البَصْريّ المتوفّى سنة 210 هـ . وبناءً على ما قاله كثير من أعلام العربيّة كالشريف المرتضى علم الهدى ، والأخفش الأوسط : سَعيد بن مسعدة ، وابن قُتَيبَة ، وثعلب : أحمد بن يحيى ، وأبو بكر الأنباريّ ، وشهاب الدين أحمد الخَفَاجيّ ، فإنّ أبا عبيده استشهد هنا ببيت لبيد بن ربيعة . والإجماع قائم على أنّ المراد بالمولى في بيت لبيد هو الأولى . وقد نقلنا قبلاً شيئاً من شعر لبيد عن تفسير أبي الفتوح . وفيما يلي عدد من أبيات قصيدته ، نقلاً عن ديوانه ، ليستبين الموضوع جيّداً :

وَتُضِيءُ فِي وَجْهِ الظّلَام مُنِيرَةً

كَجُمَانَةِ البَحْرِيّ سُلّ نِظَامُهَا

حَتّى إذَا انْحَسَرَ الظّلَامُ وَأَسْفَرَتْ

بَكَرَتْ تَزِلّ عَنِ الثّرَى أزْلَامُهَا

عَلِمَتْ تَرَدّدُ فِي نُهَاءِ صَعَائِدٍ (59)

سَبْعَاً تُؤاماً كامِلاً أيّامُهَا

حَتّى إذَا يَئِسَتْ وَأَسْحَقَ حَالِقٌ

لَمْ يُبْلِهِ إرْضَاعُهَا وَفِطَامُهَا

وَتَوَجّسَتْ رِزّ الأَنِيسِ (60) فَرَاعَهَا

عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ وَالأَنِيسُ سَقَامُهَا

فَغَدَتْ كِلَا الفَرْجَيْنِ تَحْسِبُ أَنّهُ

مَوْلَى المَخَافَةِ خَلْفُهَا وَأَمَامُهَا (61)

وتبلغ هذه القصيدة ثمانية وثمانين بيتاً . يصف الشاعر في هذه الأبيات بقرة وحشيّة جميلة وصفاً في غاية الحسن والروعة إذ صادوا ولدها وهي حائرة قلقة خوفاً من بنى آدم ، وكانت تبحث عنه في الفيافي ليالي وأيّاماً ؛ وسيطر عليها الخوف حتّى لم تجد وجهة خاصّة لدهشتها وخوفها ، بل كانت ترى أمامها وخلفها كلّ واحد منهما مولى المخافة ، أي : أولى بالخوف منه .

1 . هذه البقرة البيضاء تضيء في أوّل الليل كاللؤلؤ البحريّ المنظّم في سلسلة واحدة ، وهاهي السلسلة قد انقطعت وتناثرت حبّاتها على الأرض ، فهي تتلألأ في نقاط مختلفة . وتنقل من مكان إلى مكان بيضاء متلألئة .

2 . وهكذا إلى أن انجلى الظلام وخرجت في بياض الصبح مبكّرة فتزلّ قوائمها عن التراب النديّ ، وهي تبحث عن ولدها .

3 . وكانت في جزع دائم بسبب فقدان ولدها ، وجاءت في مواضع الماء المرتفعة ، وتردّدت في الصعائد سبع ليال بأيّامها علّها تتثف ولدها .

4 . وتردّدت هذه البقرة كثيراً إلى أن يئست من ولدها ، وصار ضرعها الممتلئ لبناً خلقاً لانقطاع لبنها ؛ ولم يبل ضرعها إرضاعها ولدها ولا فطامها إيّاه (وإنّما أبلاه حزنها على ولدها) .

5 . وأحسّت في هذه الحال صوت الناس فأفزعها ذلك بدون أن تشاهدهم ، وإنّما سمعته عن ظهر غيب . ذلك أنّ الناس سقامها لأنّهم يأخذونها ويصيدونها .

6 . وخافت خوفاً شديداً حتّى أنّها لا تعرف أي فرجة بين أطرافها أولى بالخوف ، أمامها أو خلفها (أي : كان فزعها على درجة أنّها لم تفهم جهة الخطر ومجيء الإنسان ، بل كانت ترى الخطر محدقاً بها من جميع الجوانب) .

وجاء في شرح المعلّقات عند شرح هذا البيت : قال ثعلب : إنّ المَوْلَى في هذا البيت بمعنى الأولى بالشيء ، كقوله تعالى : النّارُ هِيَ مَوْلَبكُمْ أي : هِيَ الأَوْلَى بِكُمْ . فيكون المعنى : فغدت البقرة وهي تحسب أنّ كلا فرجيها مولى المخافة .

أو أنّ الفَرْج (الفاصل بين اليدين والرجلين) هو موضع المخافة . فيكون المعنى : تحسب تلك البقرة أنّ كلّ فرج من فرجيها هو الأولى بالمخافة منه . (62)

كان لَبيْد أحد شعراء الجاهليّة . وأفضل شعر له في الجاهليّة قصيدتان : معلّقته ، ولاميّته التي جاء فيها هذا البيت :

أَلَا كُلّ شَيءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ

وَكُلّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلُ

وعندما أُنشد هذا البيت بين يدي رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : أَصْدَقُ شِعْرٍ قَالَتْهُ العَرَبُ .

أدرك لبيد الإسلام ، و أسلم ؛ وعمّر حتّى زمان عثمان ، فكان أحد المعمّرين الطاعنين في السنّ . ومن ترجم له ، ذكر أنّ عمره لم يقل عن مائة وعشر سنين . وقيل : بلغ مائة وسبع وخمسين سنة .

ومن الذين صرّحوا بأنّ معنى المولى في الآية : هِيَ مَوْلاَكُمْ : الأولى : البُخاريّ ، وأبو جعفر الطَبَريّ ، (63) وأبو الحسن الواحديّ في «الوسيط» ، وأبو الفرج بن الجوزيّ ، (64) ومحمّد بن طلحة الشافعيّ ، (65) وسبط بن الجوزيّ ، (66) والتفتازانيّ في «شرح المَقَاصِد» نقلاً عن أبي عبيدة ، (67) وابن الصَبّاغ المالكيّ ، (68) والسيوطيّ ، (69) وغيرهم .

وذكر الشيخ المفيد في رسالة صنّفها في معنى المَوْلى ، والشريف المرتضى علم الهدى في كتاب «الشافي» أنّ المَوْلَى بمعنى الأوْلَى . وفي ضوء هذا النهج استدلّوا على إمامة أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلّين .

وقال القوشجيّ في «شرح تجريد الاعتقاد» في شرح قول الخواجة نصير الدين : وَلِحَدِيثِ الغَدِيرِ المُتَوَاتِرِ في تقرير استدلال الشيعة : أحد معاني المَوْلَى ، الأولى في التصرّف ، قال الله : مَأْوَبكُمُ النّارُ هِىَ مَوْلَبكُمْ ، أي : أَوْلَى بِكُمْ وذكر أبو عبيدة هذا المعنى ؛ وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : أَيّمَا امْرَأَةٍ نَكَحَتْ بِغَيْرِ إذْنِ مَوْلاَهَا يعنى : بِغَيْرِ إذنِ الأَوْلَى بِهَا وَالمَالِكِ لِتَدْبيرِ أَمْرِهَا . ومثل هذا في الشعر كثير .

وبالجملة فإنّ استعمال المَوْلَى بمعنى المُتولّي ، ومالك الأمر ، والأوْلَى في التصرّف شائع في كلام العرب ، ومنقول عن أئمّة اللغة . والمراد أنّ المَوْلَى اسم لهذا المعنى ، لا صفة بمثابة الأوْلَى لئلّا يُعْتَرَض على أنّ المولى ليس اسم تفضيل ، ولا يستعمل بمعنى التفضيل .

ولابدّ أن يكون هذا المعنى هو المراد في حديث الغدير لكي يتطابق مع صدر حديثه صلّى الله عليه وآله : أَلَسْتُ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ؟

ولمّا كان القوشجيّ على مذهب العامّة ، لذلك جهد في دفع الاستدلال بحديث الغدير ، ولكن من جهات أُخرى ، لا من جهة معنى المولى الذي يعني في أحد معانية الأولى بالشيء . (70)

وقال الزمخشريّ في تفسير هذه الآية أيضاً : هِىَ مَوْلَبكُمْ . قيل : معناه أوْلَى بِكُمْ . واستشهد بشعر لُبَيْد ، ثمّ قال : وَحَقِيقَةُ مَوْلاَكُمْ مَحْرَاكُمْ وَمَقْمَنُكُمْ أَي مَكَانُكُمُ الّذِي يُقَالُ فِيهِ : هُوَأَوْلَى بِكُمْ كَمَا قِيلَ : هُوَ مَأَنّةُ الكَرَمِ أي مَكَانٌ لِقَوْلِ القَائِلِ : إنّهُ الكَرِيمُ . (71)

وذكر البيضاويّ في تفسيره أيضاً عبارة الزمخشريّ نفسها واستشهد ببيت لُبَيْد ؛ ومن الواضح أنّ البيضاويّ اقتبس من الزمخشريّ ، لأنّ وفاة الزمخشريّ كانت في سنة 538 ، ووفاة البيضاويّ في سنة 791 . وكلاهما احتمل أنّ المراد من المَوْلَى في الآية الشريفة : النّاصِر . إلّا أنّ كلّ واحد منهما جاء بمثال مستقلّ . فقال الزمخشريّ : ويجوز أن يكون المراد : هِيَ نَاصِرُكُمْ ، أي : لاَ نَاصِرَ لَكُمْ غَيْرَهَا ؛ والمراد نفي الناصر حتماً . كما يقولون : أُصِيبَ فُلاَنٌ بِكَذَا فَاسْتَنْصَرَ الجَزَعَ ؛ أي : ليس له معين غير الجزع . ويجري على هذا قوله تعالى : وإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ . (72) و (73)

وقال البيضاويّ : أو أنّ معنى المولى الناصر على طريقة قول العرب : «تَحِيّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ» . (74)

وقال الخازن في تفسير الآية : هِىَ مَوْلَبكُمْ : أي وَلِيّكُمْ . وقيل : هِىَ أَوْلَى بِكُمْ لِما أسلفتم من الذنوب [في الدنيا] . [ويكون] المعنى : النار تلي عليكم ، لأنّها ملكت أمركم ، وأسلمتم إليها ، فهي أولى بكم من كلّ شيء ! وقيل : معنى الآية : لَا مَوْلَى لَكُمْ وَلَا نَاصِرَ ، لأنّ من كانت النار مولاه ، فلا مولى له . (75)

وعلى الرغم من أنّ الفخر الرازيّ يعترف بأنّ أحد معاني المولى هو الأَوْلَى ، إلّا أنّه اقتفى نهجاً آخر ، وقال : على هذا النهج ، لا يتمّ استدلال الشريف المرتضى بالآية على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام . ونذكر فيما يلي كلامه ثمّ نناقشة :

قال : الآية الكريمة مَأْوَبكُمُ النَّارُ هِىَ مَوْلَبكُمْ وَبِئسَ الْمَصيِرُ في لفظ المولى ها هنا أقوال :

أحدها : قال ابن عبّاس : مَوْلَبكُمْ ، أي : مَصِيرُكُمْ . وتحقيقة أنْ المَوْلَى موضع الوَلْي . والوَلي هو القرب . فالمعنى : أنّ النار هي موضعكم الذي تقربون منه وتصلون إليه .

الثاني : قال الكَلْبيّ : يعني : أَوْلَى بِكُمْ . وهو قول الزجّاج ، والفرّاء ، وأبي عُبَيْدة . واعلم أنّ هذا الذي قالوه معنى وليس بتفسير اللفظ ، لأنّه لو كان مَوْلَى وأَوْلَى بمعنى واحد في اللغة ، لصحّ استعمال كلّ واحد منهما في مكان الآخر . فكان يجب أن يُقال : هَذَا مَوْلَى مِنْ فُلَانٍ ، كما يقال : هَذَا أَوْلَى مِنْ فُلَانٍ . وكذلك يجب أن يقال : هَذَا أوْلَى فُلَانٍ ، كما يقال : هَذَا مَوْلَى فُلَانٍ .ولمّا بطل ذلك ، علمنا أنّ الذي قالوه [للمولىّ (الأَوْلى) هو] معنى وليس بتفسير .

وإنّما نبّهنا على هذه الدقيقة لأنّ الشريف المرتضى لمّا تمسّك في إمامة عليّ [عليه السلام] بقول رسول الله صلّى الله عليه وآله : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ، قال : أحد معاني مَوْلَى أنّه أَوْلَى . واحتجّ في ذلك بأقوال أئمّة اللغة في تفسير هذه الآية [هِىَ مَوْلَبكُمْ] بأنّ مَوْلَى معناه أوْلَى . وإذا ثبت أنّ اللفظ محتمل له ، وجب حمله عليه . لأنّ ما عداه إمّا بيّن الثبوت ككونه ابن العمّ ، والناصر ؛ أو بيّن الانتفاء كالمعتِق والمعتَق . فيكون على التقدير الأوّل عبثاً ؛ وعلى التقدير الثاني كذباً . [انتهى كلام السيّد المرتضى] .

[ثمّ قال] : وأمّا نحن فقد بيّنا بالدليل أنّ قول هؤلاء في هذا الموضع معنى لا تفسير ؛ وحينئذٍ يسقط الاستدلال بالآية [: هِىَ مَوْلَبكُم لإثبات مذهب السيّد المرتضى] .

وفي الآية وجه آخر . وهو أنّ معنى قوله هِىَ مَوْلَبكُمْ : أي لا مَوْلى لَكُمْ ، وذلك لأنّ من كانت النار مولاه فلا مولى له ؛ كما يقال : نَاصِرُهُ الخِذْلَانُ وَمُعِينُهُ البُكَاءُ ، أي : لا ناصر له .

وهذا الوجه متأكّد بقوله تعالى : وَأَنّ الْكَفِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ . (76) وقوله : يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ . (77) و (78)

وبعد أن عرض العلّامة الأمينيّ رحمة الله عليه أكثر ما ذكرناه هنا عن الفخر الرازيّ ، نقل كلاماً له عن كتاب «نهاية العقول» ، قال فيه : إنّ تصرّف الواضع في الألفاظ والكلمات ليس إلّا في وضع الألفاظ المفردة لا في وضع الجمل التركيبيّة ؛ مثلاً ، وضع لفظ الإنسان لمعنى منظور ، ولفظ الحيوان لمعنى منظور آخر . فإذا نسبنا الحيوان إلى الإنسان وقلنا : الإنسانُ حَيْوَانٌ فهذه النسبة ليست متعلّقة بالوضع بل هي أمر عقليّ . لذلك لو كان للفظة المَوْلَى ، ولفظة الأولى معنى واحد من غير زيادة ولا نقصان ، لاستطعنا أن نضع أحدهما مكان الآخر في تركيبات الكلام . لأنّنا علمنا أنّ النسبة غير متعلّقة بالوضع ، بل الكلمات المفردة وحدها تتعلّق بالوضع . ولمّا كنّا لا نستطيع أن نضع لفظة المَوْلَى بدلاً عن الأولى أو العكس ، فلهذا ينبغي أن نقول : المَوْلَى والأولَى لهما معنيان مختلفان . (79)

وقال أيضاً : وللرازيّ كلمة أُخرى صعّد فيها وصوّب في كتابه «نهاية العقول» ، قال : إنّ أحداً من أئمّة النحو واللغة لم يذكر مجيء مَفْعَل الموضوع للزمان ، أو المكان ، أو الحدثان بمعنى أَفْعَل الموضوع لإفادة التفضيل .

وتبعه القاضي عَضُد الإيجيّ في «المَوَاقِف» ، وشَاه صَاحِب الهنديّ في «التّحْفَة الاثنا عَشَريّة» ، والكَابُليّ في «الصَوَاقِع» ، وعَبْدُ الحَقّ الدهْلَويّ في «اللّمَعات» ، والقاضي سَناءُ اللهِ البانيّ بِتي في «السّيْف المَسْلُول» .

وفيهم من بالغ في إنكار مجيء صيغة مَفْعَل بدل أفْعَل حتّى أسند ذلك إلى إنكار أهل العربيّة .

إنّ أساس هذه الشبهة من الرازيّ الذي ذكرها في كتبه ولم يسندها إلى غيره . وقلّده أُولئك تقليداً أعمى حيثما وجدوا طعناً في دلالة الحديث على ما ترتأيه الإماميّة .

وبناءً على هذا الأصل ، قال شَاه وَليّ الله صَاحِب الهنديّ في «التّحْفَة الاثنا عَشَريّة» : لا تتمّ دلالة حديث الغدير على الإمامة إلّا إذا جاء المَوْلَى بمعنى الوَلِي ، بينما لم تأتِ صيغة مَفْعَل بمعنى فَعِيل .

فهو يريد دحض ما نصّ به أهل اللغة على مجيء المولى بمعنى الوليّ ، ونحن نعلم أنّ المَوْلَى بمعنى وَلِيّ الأمْر قد استعمل في اللغة والمحاورات كثيراً إذ يراد به وليّ المرأة ، ووليّ اليتيم ؛ ووليّ العبد ، وولاية السلطان ، ووليّ العهد ، وأمثال ذلك .

ووليّ اليتيم ؛ ووليّ العبد ، وولاية السلطان ، ووليّ العهد ، وأمثال ذلك .

لقد تصدّى العلّامة الأمينيّ لدحض شبهات الرازيّ بكلّ إصرار ، وكان في صدد إرجاع المعنى الحقيقيّ والأصليّ لكلمة المَوْلَى إلى الأَوْلَى بِالشّيء . فهو يقول : العجب كلّ العجب أن يعزب عن الرازيّ اختلاف الأحوال في المشتقّات لزوماً وتعدية بحسب صيغها المختلفة . إنّ اتّحاد المعنى أو الترادف بين الألفاظ إنّما يقع في جوهريّات المعاني لا عوارضها الحادثة من أنحاء التركيب وتصاريف الألفاظ وصيغها . فالاختلاف الحاصل بين كلمة المَوْلَى ، وكلمة الأولَى بلزوم مصاحبة الثاني للباء فنقول : الأولَى به ؛ والأوّل متجرّد عن الباء فنقول : المَوْلَى . وهذا إنّما حصل من ناحية صيغة أفْعَل من هذه المادّة ؛ كما أنّ مصاحبة مِن هي مقتضى تلك الصيغة ونقول : أَوْلَى بِهِ مِنْ فُلَان . إذَنْ فمفاد فُلَان أَوْلَى بِفُلَان وفُلَانٌ مَوْلَى فُلَان واحد . حيث يراد به الأولى به من غيره .

كما أنّ صيغة أَفْعَل بنفسه يستعمل مضافاً إلى المثنّى والجمع أو ضميرهما بغير أداة ، فنقول : زَيْدٌ أَفْضَلُ الرَّجُلَيْنِ وَأَفْضَلُهُمَا ؛ وَأَفْضَلُ القَوْمِ وَأَفْضَلُهُمْ . ولا يستعمل كذلك إذا كان ما بعده مفرداً ؛ فلا يقال : زَيْدٌ أَفْضَلُ عَمْرُوٍ . بل نستعمله بالأداة فنقول : أَفْضَلُ مِنْ عَمْرُوٍ .

ولا يرتاب عاقل في اتّحاد المعنى في الجميع . وهكذا الحال في بقيّة صيغ أَفْعَل كأعْلَمْ ، وأشْجَعْ ، وأحْسَن ، وأسْمَع ، وأجْمَل ، ونظائرها .

ودعم كلامه بما ذكره التفتازانيّ في «شرح المقاصد» ، والقوشجيّ في «شرح التجريد» إذ لم ينكر هذان الاثنان مجيء المَوْلَى في الحديث بمعنى الأَوْلَى ؛ وكذلك مير سيّد شريف الجرجانيّ في «شرح المقاصد» فإنّه حذا حذوهما في القبول ؛ وزاد بأنّه ردّ بذلك مناقشة القاضيّ عضد بأنّ مَفْعَلاً بمعنى أفْعَل لم يذكره أحد ، فقال : أُجيب عنه بأنّ المَوْلَى بمعنى المُتَوَلّي ، والمَالِكِ لِلأمْر ، وَالأولَى بالتَصرّف شائع في كلام العرب منقول من أئمّة اللغة .

وابن حجر في «الصواعق» ص 24 على تصلّبه في ردّ الاستدلال بحديث الغدير ، سلّم مجيء المَوْلَى بمعنى الأولَى بالشَيْء ، لكنّه ناقش في متعلّق الأولويّة في أنّه هل هي عامّة الأُمور ، أو أنّها الأولويّة من بعض النواحي ؟ واختار الأخير . ونسب فهم هذا المعنى من الحديث إلى الشيخين : أبي بكر ، وعمر في قولهما لأمير المؤمنين عليه السلام : أَمْسَيْتَ مَوْلَى كُلّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ .

وحكى الشيخ عبد الحقّ في «اللّمَعات» هذا المعنى عن ابن حجر . وكذا حذا حذوه الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد القادر الشافعيّ في «ذَخيرة المآل» عن ابن حجر فقال : التَوَلّي : الوَلَايَة ، وهو الصديق والناصر والأولَى بالاتّباع والقرب منه ، كقوله تعالى : إنّ أَوْلَى النّاسِ بِإبر هِيمَ لَلّذِينَ اتّبَعُوهُ . (80) وهذا هو المعنى الذي فهمه عمر من الحديث ، فإنّه لمّا سمعه ، قال : هَنِيئاً يَابْنَ أَبِي طَالِبٍ ! أَمْسَيْتَ وَلِيّ كُلّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ . انتهى كلام ابن حَجَر .

ونقل الشريف المرتضى عن أبي العبّاس المُبَرّد أنّ أصل يا وَلِيّ ، الّذِي هُوَ أَوْلَى وَأَحَقّ ، ومثله المَوْلَى .

وقال أبو نَصْر الفارابيّ الجوهريّ في «صحاح اللّغَة» في مادّة وَلِي في شرح بيت لُبَيد ، إنّه يريد : أَوْلَى مَوْضِعٍ يَكُونُ فِيهِ الخَوْفُ . وأبو زكريّا الخطيب التبريزيّ في شرح «ديوان الحماسة» ج 1 ، ص 22 في قول جعفر بن علبة الحارثيّ :

أَلَهْفِي بِقُرّى سَحْبَلٍ (81) حِينَ أَحْلَبَتْ

عَلَيْنَا الوَلَايَا وَالعَدُوّ المُبَاسِلُ

عدّ من وجوه معاني المولى الثمانيّة الوَليّ ، والأولى بالشَيء . وعن عمر بن عبد الرحمن الفارسيّ القزوينيّ في «كَشْف الكَشّاف» في بيت لُبَيد : مَوْلَى المَخَافَةِ . أي : أَوْلَى وَأَحْرَى بِأن يَكُونَ فِيهِ الخَوْفُ . وعدّ سبط بن الجوزيّ في «التذكرة» ص 19 الأولَى من معاني المولى العشرة المستندة إلى علماء العربيّة . ومثله ابن طلحة الشافعيّ في كتاب «مَطَالِبُ السّؤول» ص 16 ، وذكر الأوْلى في طليعة المعاني التي جاء بها الكتاب . وتبعه الشَبْلَنْجيّ في كتاب «نُور الأبْصَار» ص 78 وأسند ذلك إلى العلماء . وقال شارحا المُعَلّقات السبع : عبد الرحيم بن عبد الكريم ، ورشيد النبي في بيت لُبَيد : إنّه أراد بوليّ المَخَافَة : الأَوْلَى بِالمَخَافَةِ . (82)

أجل ، يصرّ المرحوم الأمينيّ على أنّ الأصل اللغويّ للمولى ، الأولَى ، و حتّى في بقيّة المعاني الستّ والعشرين التي تحدّث عنها للمولى ، نجده يبحث في كلّ واحدة منها ويرجعها على أنّها بمعنى الأوْلَى . بينما يصرّ الفخر الرازيّ ومن تبعه على أنّ المعنى الأصليّ للمَوْلَى ليس الأوْلى ، وأنّ صيغة مَفْعَل لم تأت بديلاً عن أفعل التفضيل . لذلك لا يمكن أن نستدلّ بالحديث المأثور . مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَليّ مَوْلَاهُ على الإمامة كما ذهب إليه الشريف المرتضى في «الشافيّ» .

وأعتقدُ أنّ الأمر قد التبس على هذين العالمين كليهما من خلال تضارب رأييهما . أمّا الفخر الرازيّ فإنّه ، وإن زعم أنّ المعنى الحقيقيّ للمولى ليس الأولى ، بَيدَ أنّه يعترف باستعماله في موضع الأولى . وحسب الإماميّة هذا القدر من الاستدلال . ولا يستفاد من استدلال الشريف المرتضى أيضاً أكثر من هذا . فهو يقول : أحد معاني المَوْلَى ، الأوْلَى . ولمّا كانت بقيّة المعاني إمّا بَيّنة الثّبوت ، أو بيّنة الكِذب ، فالمعنى المراد والمقصود من هذا الحديث : الأولى . وهذا الاستدلال صحيح .

وأمّا العلّامة الأمينيّ : فإنّه يجعل المعاني الموضوعة للمولى تصبّ في معنى الأولى . ولا دليل عندنا على أنّ الأولى هو المعنى الموضوع له والحقيقيّ للمولى ، بل ورد الدليل على خلاف ذلك . فلهذا لا حاجة إلى هذا الأُسلوب المسهب لإثبات عقيدة الإماميّة . إنّنا نثبت الولاية والإمامة من حديث الغدير بأُسلوب بسيط ، ونجد أنفسنا في غنى عن استشهادات الفخر الرازيّ بعدم مجيء بعض الصّيَغ بديلة عن صيغ أُخرى . ونحتاج هنا إلى مقدّمتين لتوضيح هذا الموضوع :

المقدّمة الأولى : إنّ اختلاف الألفاظ والصيغ المتنوّعة هو من أجل إفادة المعاني المتفاوتة ، وإلّا فإنّ وضع الكلمات المختلفة والصيغ المتباينة عبث لا طائل تحته . وفي ضوء هذه الحقيقة يعتقد الكثيرون أنّ اللغة تخلو من الألفاظ المترادفة ، وما يبدو أنّه مترادف ، أو أنّ أهل اللغة ذكروه في كتبهم بوصفه مترادفاً ، هو غير مترادف في الحقيقة . ولم يوضع لمعنى مشترك في جميع النواحي ، بل لكلّ واحد من تلك المعاني خاصيّة وُضِعَ اللفظ لأجلها ؛ وإن كان اللفظان أو الألفاظ المتعدّدة تشترك في الانطباق على المعاني المشتركة . فعلى سبيل المثال ، يبدو أنّ الإنسان والبَشَر مترادفان ، وقد وضعا لحقيقة معنى الإنسان ، بَيدَ أنّ البَشَر أُطلق على الإنسان بسبب بَشَرته وجلده ، في مقابل المَلَك والجنّ اللذين لا بَشَرة لهما . وأنّ الإنسان أُطلق عليه لأنّه كائن فيه أُنس أو نسيان فيما إذا اشتقّ من الفعل أنِسَ أو نَسِيَ (نسيان) . ومن هذا المنطلق جاء في القرآن الكريم أنّ الأنبياء يخاطبون الناس قائلين لهم : إن نحن بَشَر مثلكم ، أي : لنا بَشَرة مثل بَشَرتكم . قال تعالى : قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ . (83) وقال : قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَ حِدٌ . (84)

ذلك أنّ الكفّار في هذه المحاورات كانوا ينكرون رسالة الرسول لأنّها صادرة عن إنسان له جلد وبَشَرة ، أي : طبيعيّ ومادّيّ . أو أنّنا نقرأ في القرآن الكريم أنّ مريم تخاطب المَلَك السماويّ متعجّبة من ولدٍ يكون لها ، وهي الطاهرة التي لم يمسسها بشر . والنجيبة التي تجلّ عن البغاء ! قال تعالى : قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَمٌ وَلَمْ

يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًا . (85) ذلك أنّ شرط الحمل والإنجاب هو أنّ يباشر المرأة إنسان له بَشَرة ، لا أن يباشرها إنسان بنفسه الملكوتيّة .

وفي ضوء هذا الكلام ، وضعت صيغة مَفْعَل للحديث ، أو للزمان ، أو للمكان ، وصيغة أَفْعَل لإفادة التفضيل . وهذان معنيان مختلفان على الرغم من اشتراكهما في أصل المعنى المشترك الذي اشتقّا منه .

فلهذا قال الفخر : الخليل وأضرابه لم يذكروا معنى الأولى في كتبهم . (86) وقال مير سيّد شريف في «شرح المواقف» : لم يذكر أحد من أئمّة اللغة مجيء صيغة مَفْعَل بمعنى أفْعَل . وقوله تعالى : وَمَأْوَيكُمُ النّارُ هِىَ مَوْلَىكُمْ ، أي : مَقَرّكُمْ وَمَا إِلَيْهِ مَآلُكُمْ وَعَاقِبَتُكُمْ . ولذلك قال في ذيلها : وَبِئسَ الْمَصِيرُ . (87)

ويستفاد ممّا قيل أنّ كثيراً من التفاسير قد ذكرت إرادة معنى الأَوْلَى من لفظ المَوْلَى ، بناءً على إيصال المعنى بألفاظ تناسب المعنى الحقيقيّ لذلك اللفظ في كثير من الجهات ، وإن لم يكن معناها الحقيقيّ . ويُلاحَظ هذا الأُسلوب أيضاً في كثير من كتب اللغة التي لا تتطرّق إلى المعاني الحقيقيّة فحسب ، بل وتذكر مواطن استعمال الألفاظ معها أيضاً .

المقدّمة الثانية : الحَمْل على قسمين : أوّلي ذَاتِيّ ، وشائع صَناعِيّ .

المراد من الحمل الأوّليّ اشتراك اسمين في مفهوم واحد ؛ أي : نريد أن نقول بأنّ المفهوم المحمول متّحد مع المفهوم الموضوع ، مثل : الإنسَانُ حَيْوَانٌ نَاطِقٌ إذ لا تفاوت بين مفهوم الإنسان ، ومجموع الحيوان الناطق .

والمراد من الحَمل الصناعيّ اشتراك مفهومين في مصداق واحد ، أي : نريد أن نقول : يشترك المفهوم المحمول مع المفهوم الموضوع في المصداق والتحقّق الخارجيّ ، وإن كان ذانك المفهومان لا يشتركان معاً ، مثل : زَيْدٌ إنْسَانٌ ، وزَيْدٌ قَائِمٌ . فمفهوم الإنسان اتّحد مع زيد في الخارج . ويصدق المفهومان على هذا الموجود الخارجيّ . واتّحد مفهوم «قائم» مع «زيد» أيضاً . وبناءً على ذلك ، فإنّ هذا الموجود الخارجيّ ينطبق عليه المفهومان «قائم» و«زيد» .

وبعد أن استبانت هاتان المقدّمتان نقول : لا ريب أنّ مفهوم صيغة مَفْعَل يختلف عن مفهوم صيغة أفْعَل التفضيل ؛ ولكنّهما كثيراً ما يتّحدان في المصداق . وعلى هذا ، إذا قلنا : فُلَانٌ مَوْلَى فُلَانٍ ، وأردنا من المولى أفعل التفضيل ، صحّ الحمل الشائع الصناعيّ هنا ، وإذا قلنا : المَوْلَى هو الأَوْلَى ، صحّ الحمل الشائع أيضاً .

وإذا قلنا : فُلَانٌ لَيْسَ مَوْلَى فُلَانٍ ، وكان المراد من المُوْلَى أفعل التفضيل ، صحّ الحمل الشائع أيضاً . وكذلك إذا قلنا : المَوْلَى لَيْسَ الأَوْلَى ، فلا يصحّ الحمل الشائع ، بل يصحّ الحمل الأوّليّ ، ذلك أنّهما ليسا متّحدي المفهوم . كما أنّ قولنا : زَيْدٌ لَيْسَ بِقَائِمٍ لا يصحّ على الحمل الشائع ، ويصحّ على الحمل الأوّليّ ؛ عندما يكون زيد قائماً في الخارج .

استبان ممّا عرضناه أنّ كلاًّ من الفخر الرازيّ ، والعلاّمة الأمينيّ في زاوية واحدة من البحث ، ويثبتان شيئاً لا ينبغي لهما أن يثبتاه ؛ وينفيان شيئاً لا ينبغي لهما أن ينفياه .

يقول الفخر الرازيّ : المَولَى لَيْسَ الأَوْلَى . وهو أمرٌ صحيح بحسب الحمل الأَوّليّ الذاتيّ ، بَيدَ أنّه غير صحيح بحسب الحمل الشائع ؛ لأنّنا لا نعتزم إثبات الاتّحاد بين مفهوميهما . بل نطلب الاتّحاد الوجوديّ في الخارج لمثل قولهم : زَيْدٌ انْسَانٌ ؛ وهذا المعنى يتمّ بالحمل الشائع أيضاً ، لأنّ الاتّحاد المصداقيّ والخارجيّ لمعنى المَوْلَى مع معنى الأَوْلَى يكفي لإثبات الولاية . بَيدَ أنّ الفخر الرازيّ يريد أن يستنتج عدم الاتّحاد بين المصداقين من عدم الاتّحاد بين المفهومين ؛ ولذلك ظنّ تمسّك الشريف المرتضى باطلاً . وهذا الكلام خاطئ .

يقول العلاّمة الأمينيّ : المَوْلَى هُوَ الأوْلَى . وهذا صحيح بحسب الحمل الشائع الصناعيّ ، ولكنّه غير صحيح بحسب الأوّليّ الذاتيّ ، لعدم الاتّحاد بين مفهوميهما . وحسبنا الاتّحاد المصداقيّ . بَيدَ أنّ العلاّمة الأمينيّ يريد أن يستنتج الاتّحاد بين المصداقين من الاتّحاد بين المفهومين ، ويقول : لمّا كان المفهومان شيئاً واحداً ، فمفهوم الأولويّة ينطبق على الإمام عليّ عليه السلام في الخارج . وهذا خطأ ، لأنّنا في غنىً عن الاتّحاد المفهوميّ من أجل الاتّحاد المصداقيّ . دع المفهومين : المَوْلَى ، والأَوْلَى يتباينان فيما بينهما ، واسم المكان يتفاوت مع أفعل التفضيل ، ولكن بعد الاتّحاد المصداقيّ ، والحمل الشائع ، وانطباق معنى الأولى على عليّ عليه السلام في الخارج بعد عدم إمكان انطباق المعاني الأُخرى المذكورة للمَوْلَى ، فإنّ الإمامة تثبت للإمام عليه السلام ؛ ولا مناص لمنكري الولاية من الإقرار بذلك .

واستبان ممّا عرضناه إلى الآن أنّ حقيقة لفظ المَوْلَى عند العلاّمة الأمينيّ بمعنى الأولى بالشيء ، ولكنّ حقيقتها عند الحقير أنّها اسم مكان لموضع فيه حقيقة الولاية . والولاية . كما بيّناها مراراً . ارتفاع الحجاب بين شيئين بحيث لا يفصل بينهما ما ليس منهما . وكافّة المعاني المذكورة للمَوْلَى ، والوَلِيّ ، والأولَى ، وغيرهما هي بواسطة هذا المعنى الذي يستعمل في كلّ مصداق من المصاديق عبر انطباق هذا المعنى عليه . وَأشْهَدُ أَنّ عَلِيّاً وَلِيّ اللهِ ؛ أي : أشهد أنّ عليّاً قد بلغ درجة ، وتسنّم منزلةً ارتفع فيها الحجاب بينه وبين الله في مقام العبوديّة المحضة ، وهذا هو معنى الولاية الكاملة ، وهذا هو معنى العبوديّة التامّة . اللَهُمّ اجْعَلْنَا مِنَ المُتَمَسّكِينَ بِوَلاَيَتِهِ . وفي هذا المقام تقع الولاية التي تمثّل مظهر تجلّي جميع الصفات والأسماء الإلهيّة الكلّيّة ، ومنشأ ظهور الجمال والجلال ، مرآةً وآيةً عظيمةً لا تُظهر نفسها بل تُظهر الله ، فهي تقتبس من الله ، وتفيض على ما سوى الله.

وهنا جرى بيت العارف الكامل ابن الفارض المصريّ على لسانه بلا اختيار .

فَكُلّ مَلِيحٍ حُسْنُهُ مِنْ جَمَالِهَا

مُعَارٌ لَهُ بَلْ حُسْنُ كُلّ مَلِيحَةِ (88)

وما أروع أن ننقل هنا القصّة التي ذكرها شيخ التفسير : أبو الفتوح الرازيّ أعلى الله تعالى مقامه الشريف :

«ثمّ أومأ إلى أمير المؤمنين عليّ ، ودعاه ، ورقي ذلك المنبر وهو معه ، وأخذ بعضديه ، ورفعه ، وعرضه على الناس كما تعرض العروس حَتّى رَأى النّاسُ بَيَاضَ إبْطَيهِمَا . وكان صامتاً ساعةً . ونُقل أنّ الشبليّ دنا من أحد العلويّين المعروفين يوم الغدير ، وهنّأه ، ثمّ قال له : يَا سَيّدي ! هل تعلم السرّ من أخذ جدّك يدَ أبيك ورفعها دون أن يتكلّم ؟! قال : لا أعلم .

قال : كانت إيماءة إلى أنّ النسوة اللاّئي جهلنَ بجمال يوسف ، فَلُمْنَ زليخا ، وقلن : امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَ وِدُ فَتَىٰهَا عَن نّفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبّا إنّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مّبِينٍ . فأرادت أن تريهنّ شيئاً من جمال يوسف ، فصنعت لهنّ وليمة ودعتهنّ إليها . ولمّا جئنها ، أجلستهنّ في بيت ذي بابين ؛ وألبست يوسف قميصاً أبيض وقالت له : ادخل من هذا الباب واخرج من ذلك الباب لأجلي ! وقالت لهنّ : أُريد أن أُريكنّ مَن أُحبّ مرّة واحدة ، وأرجو منكنّ أن تبررنه لأجلي !

قلن : مذا نصنع ؟! قالت : آتي كلّ واحدة منكنّ سكّيناً وأُتْرُجّاً ؛ فإذا خرج عليكنّ ، فلتأخذ كلّ واحدة منكنّ قطعة من أُترجّها وتعطيها إيّاه ! قلن : نفعل . ولمّا خرج ووقع بصرهنّ على جماله ، أردن أن يقطّعن الأُترج ، فقطّعن أيديهنّ انبهاراً وذهولاً . ولمّا انصرف ، قلن : حَشَ لِلّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إنْ هَٰذَآ إلّا مَلَكٌ كَرِيمٌ .

قالت : رأيتُنّ ! فَذَٰ لِكُنّ الّذِى لُمْتُنّنِى فِيهِ .

فكذلك رسول الله صلّى الله عليه واله أومأ وقال : ذلك الرجل الذي لو قلتُ في حقّه شيئاً ، لما راق لكم ، ولُلمتموني فيه . فانظروا اليوم ماذا يقول الله تعالى في حقّه ؟ وأين يضعه ؟ وما هي المنزلة التي يتحفه بها ؟ ثمّ قال : أَلَسْتُ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ؟!

قَالُوا : بَلَى . قرّرهم فأقرّوا . ولمّا أقرّوا كلّهم ، قال على الفور : مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَهَذَا عَلِيّ مَوْلاَهُ ؛ اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالاَهُ ، وَعَادِ مَن عَادَاهُ ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ . ثمّ قال : اللَهُمّ هَلْ بَلّغْتُ ؟! قالوا : بلى .

قال : اللَهُمّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ . إلى آخر القصّة . (89)

وقد أنشد جلال الدين الروميّ في هذا المجال قائلاً :

زين سبب پيغمبر با اجتهاد

نام خود وآنِ علي مولا نهاد

گفت : هر كس را منم مولا و دوست

ابن عمّ من عليّ ، مولاى اوست

كيست مولا ، آن كه آزادت كند

بند رقّيّت زِ پايت بركند

چون به آزادى نبوّت هادى است

مؤمنان را ز انبيا آزادى است

أى گروه مؤمنان شادى كنيد

همچو سرو وسوسن آزادى كنيد (90)

الثاني : الشاهد والدليل على أنّ المراد من المَوْلَى في حديث الغدير ، الإمامة والولاية الكلّيّة ، قول رسول الله صلّى الله عليه وآله قبل عرض هذه الفقرة من الخطبة ، إذ خاطب الناس وسألهم بأُسلوب الاستفهام التقريريّ : أَلَسْتُ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ؟ قالوا : بلى . وعلى هذا الأساس فرّع كلامه قائلاً : فَمَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيّ مَوْلاَهُ .

ولمّا كانت عبارته صلّى الله عليه وآله : أَلَسْتُ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ نتيجة متفرّعة عن الآية القرآنيّة الكريمة : النّبِيّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ . (91) التي تبيّن أنّ ولاية النبيّ على المؤمنين أكثر من ولايتهم على أنفسهم ؛ وهذه الولاية تعني بلا شكّ الأولويّة من جميع الجهات الروحيّة والمادّيّة ، والظاهريّة والباطنيّة ، والدينيّة والدنيويّة ؛ فعلى هذا ، فإنّ المراد من الاستفهام التقريريّ الذي أثاره رسول الله بقوله : أَلَسْتُ أَوْلَى بِكُمْ هو هذا الضرب من الولاية . وفي ضوء ذلك ، فإنّ الولاية المعطاة لأمير المؤمنين في كلامه : مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيّ مَوْلاَهُ . ستكون هذه الولاية نفسها .

هذه الجملة الاستفهاميّة لرسول الله كحديث الولاية نفسه ، ذكرها علماء الشيعة قاطبة ، وذكرها أيضاً أعلام أهل السنّة وحفّاظهم ، مثل : أحمد بن حنْبَل ، والترمذيّ ، وابن ماجَة ، والنسائيّ ، والطبريّ ، والطّبَرانيّ ، وأبي حاتم ، والدارقُطْنيّ ، والذّهَبيّ ، والحاكم ، وأبي نُعَيْم ، والثّعْلَبيّ ، والبَيهَقيّ ، والخطيب ، والحَسْكَانيّ ، وابن المَغَازِليّ ، والسِجستانيّ ، والخوارزميّ ، وابن عَسَاكِر ، والبَيضاويّ ، وابن الأثير ، وأبي الفَرَج ، والتفتازانيّ ، والحَمّوئيّ ، والكنجيّ ، والإيجيّء ، وابن صبّاغ ، وابن حَجَر ، والسيوطيّ ، ذكرها هؤلاء وكثيرون غيرهم في كتبهم . وقد أحصى أسماء هؤلاء الأعلام من أهل السنّة العلاّمة الأمينيّ في أربعة وستّين شخصاً . (92)

وفي ضوء ذلك ، فإنّ هذه المقدّمة الاستفهاميّة نفسها قد بلغت وحدها حدّ التواتر ، وكثير من صحابة النبيّ صلّى الله عليه وآله الذين رووا حديث الولاية ، نقلوا هذه المقدّمة معه .

ونقول الآن : المراد من المَوْلَى في حديث الولاية ، الأَوْلَى في مقدّمة هذه الخطبة عبر الاستفهام الذي أثاره رسول الله . وبعبارة أُخرى فإنّ قوله : أَلَسْتُ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ وقوله : فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ذوا معنى واحد ، وإلّا لانفصلت الجملة الأُولى عن الثانية ، وأصبحت بلا مغزى ، وسقطت عن درجة البلاغة .

والشاهد على هذا الموضوع هو أنّ كثيراً من الأعلام الذينَ نقلوا الحديث . كما رأينا في تضاعيف الكلام ضمن الدروس السابقة . نقلوه بهذه العبارة ، وهي أنّ رسول الله قال بعد طرحه السؤال : أَلَا فَمَنْ كُنْتُ أَوْلَى بِهِ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ، وهذه الجملة تشعر بالارتباط بين الجملتين الاستفهاميّة والإخباريّة اللتين قالهما رسول الله .

يقول الحافظ أبو الفرج يحيى بن سعيد الثقفيّ الإصفهانيّ في كتاب «مَرَجُ البَحْرَينِ» بعد نقل المقدّمات المتعلّقة بخطبة الغدير : أخذ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بِيَدِ عليّ وقال : مَنْ كُنْتُ وَلِيّهُ وَأَوْلَى بِهِ مِنْ نَفْسِهِ فَعَلِيّ وَلِيّهُ .

ويقول سبط بن الجوزيّ بعد ترجيحه معنى الأولَى في حديث الغدير : المراد من المَوْلَى في الحديث الطاعة المحضة المخصوصة ، والأَوْلَى ، فيكون المعنى : مَنْ كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ نَفْسِهِ فَعَلِيّ أَوْلَى بِهِ . (93)

ويقول ابن طلحة الشافعيّ : يرى جماعة أنّ المراد من الحديث ، الأولويّة . (94)

ونستخلص ممّا عرضناه عدم صحّة ما قاله بعض العامّة من أنّ دلالة تقديم أَلَسْتُ أَوْلَى بِكُمْ ، على مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ على الولاية التامّة والإمامة تتمّ عندما لا يستتلي الحديث دعاءُ رسول الله : اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ . وهذا الدعاء الدالّ على موالاة أولياء عليّ . الوارد بلفظ «وَالِ» يفيدنا أنّ المراد من المَوْلَى ، المحبّ أيضاً . وحينئذٍ لا تتمّ دلالة الحديث على الولاية .

فهذا الاستدلال غير صحيح لأنّه يستند على أنّ المراد من قوله : اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، المحبّة أو النصرة . وليس كذلك ، بل المراد هو المعنى الحقيقيّ للولاية . فمعنى اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ : اللَهُمّ تولّ مَن يلتزم بولاية علي ! وتعهّد من انضوى تحت لواء عليّ بالرعاية والحماية ! وقم بأمر من جعل عليّاً وليّ أمره ! لأنّنا قلنا إنّ الولاية تعني رفع الحجاب ، ويستعمل لفظ المَوْلَى والوليّ بالنسبة إلى الطرفين . ويقع تصريف الفعل في كلا الطرفين أيضاً . وكلمة «وَالِ» وهي فعل أمر تعني تعهّد بأمر الولاية ، و «وَالَاهُ» وهي صيغة الفعل الماضي تعني : انضوى تحت ولايته .

فهذه الفقرة من دعاء رسول الله ، مضافاً إلى أنّها لا تتنافى مع الولاية في المقدّمة والحديث ، فهي تؤيّدها وتسدّدها .

ذلك لأنّها أوّلاً : أوجبت ولاية عليّ على جميع الناس بصيغة العموم ، ودعت الجميع إلى اتّباعه وطاعته . وهذا المعنى ينسجم مع الولاية ، لا مع المحبّة أو النصرة .

وثانياً : أمرت الناس كافّة بالمؤازرة والمعاضدة حتّى يتيسّر رفع العقبات التي تعترض إمامته وولايته ، وذلك بغية ترسيخهما . ومن المعلوم أنّ الإمامة منصب عامّ يحتاج إلى مؤازرة الناس وطاعتهم ؛ وإلّا فإنّ المحبّة والنصرة لا تحتاج عموميّتها إلى كلّ هذا التأكيد والإصرار .

وثالثاً : يمكن الاستدلال بهذه الفقرة على عصمته عليه السلام ، لأنّ دعوة الناس عامّتهم بلا قيد وشرط إلى لزوم التَوَلّي والنّصرة ، والبراءة من الأعداء ، ومن الخذلان وعدم الاهتمام بالأوامر والنواهي ، لا معنى لها بدون تحقّق معنى العصمة وحقيقتها .

ويستبين ممّا عرضناه أنّ جعل قوله : وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ . عِدلاً وقرينةً لقوله : وَالِ مَنْ وَالَاهُ ليس دليلاً على معنى المحبّة والنصرة من كلمة : وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، لأنّ من لوازم عدم الولاية والبعد . طبعاً . ظهور الخصومة

والعداء .

ناهيك عن أنّ كلّ جملة من الجمل المأثورة : مَنْ كُنْتُ مَولَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ، واللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ مستقلّة وحدها ، ولها معنى خاصّ بها ، وعلى فرض أنّ المراد من قوله : وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، المحبّة والنصرة ، فإنّ ظهور قوله : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ على الولاية الكلّيّة والإمامة بخاصّة مع تفريع قوله : أَلَسْتُ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ؟ ثابت فِي حدّ نفسه أحد ولا محلّ للتشكيك في حجّيّة الظهورات في المحاورات والكلمات .

الشاهد والدليل الثالث ، العبارات الواردة في الخطبة ، فكلّ واحدة منها تدلّ وحدها على أنّ المراد من كلمة المولى ، الإمامة . وعلى هذا فكلّ واحدة منها قرينة للمعنى المنظور .

منها ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله دعا الناس إلى اتّباع الكتاب والعترة . وأطلق على هذين الاثنين : الثّقلين (والثقل يعني كلّ شيء نفيس) وذكر أنّهما لن يفترقا حتّى يوم القيامة ، وقال فيهما : فَلَا تُقَدّموهُمَا فَتَهْلِكُوا ! وَلَا تَقْصُروا عَنْهُمَا فَتَهْلِكُوا ! أليس في التقدّم عليهما ، والقصور عنهما معنى يمكن تصورّه غير المعنى الوارد في مواطن الطاعة ولزوم الاتّباع ككتاب الله ؟ ولزوم الطاعة من آثار الإمامة .

ومنها ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله بعد أن أخذ من الناس الإقرار والاعتراف بتوحيد الله ورسالته ، جعل ولاية أمير المؤمنين عليه السلام مترتّبة عليهما مباشرة . ومن الواضح البيّن أنّ اقتران الولاية برسالة الرسول ، وتوحيد الله لا يعني شيئاً آخر غير الزعامة والإمامة . قال رسول الله صلّى الله عليه وآله :

يَا أَيّهَا النّاسُ ! بِمَ تَشْهَدُونَ ؟ قَالُوا : نَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ ! قَالَ : ثُمّ مه ؟! قَالُوا : وَأَنّ مُحَمّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ! قَالَ : فَمَنْ وَلِيّكُمْ ؟! قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ مَوْلَانَا .

وضرب بيده يؤمئذٍ على عضد عليّ ، فرفعها ، وقال : مَنْ يَكُنِ اللهُ وَرَسُولُهُ مَولَاهُ فَإِنّ هَذَا مَوْلَاهُ .

إنّ إلقاء نظرة خاطفة على هذه العبارات يبيّن لنا بجلاء أنّ ولاية عليّ هي ولاية الله ورسوله بنفس المعنى والمفاد ، ولا تنفصل عنها أبداً . ولا يُتَصَوّر معنى آخر غير هذا ؛ وإلّا فالعبارة لغو ، والكلام هراء .

وجاء في عبارة مأثورة عن أحمد بن حنبل قال فيها : فَقَالَ : أَيّها النّاسُ ! مَنْ أَوْلَى النّاسِ بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ؟ قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ !

قَالَ : إِنّ اللهَ مَوْلَايَ وَأَنَا مَوْلَى المُؤْمِنِينَ وَأَنَا أَولَى بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ . وكرّر الجملة الأخيرة ثلاث مرّات ، وفي رواية أحمد ابن حنبل ، أربع مرّات .

أجل ، إنّ اقتران الولاية ووحدتها ، واتّحاد سنخيّة الإمارة والأولويّة بين ولاية رسول الله وولاية أمير المؤمنين عليهما أفضل الصلوات والتحيّات في هذه الفقرات من الخطبة بديهيّ ، ولا يحتاج إلى التفكير والتأمّل .

ومنها ، أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قال في بداية الخطبة : كَأَنّي دُعِيتُ فَأَجَبْتُ . أو : يُوشَكُ أَنْ أُدْعَى فَأُجِيبَ . أو : أَلَا وَإِنّي أُوشِكُ أَنْ أُفَارِقَكُمْ . أو : يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبّي فَأُجِيبَ .

وهذا النمط من الكلام يشعر أنّ أمراً مهمّاً للغاية لم يُبَلّغ ، وأنّ النبيّ كان يخشى أن يأتيه الموت ، ولم يبادر إليه فيبقى دين الله ناقصاً ورسالته خداجاً .

ونحن لا نلاحظ في هذه الخطبة إلّا الوصيّة بالعترة الطاهرة ، ونصب أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المُصَلّين . ولم تضمّ تعليماً آخر . ومن المعلوم أنّ ذلك الأمر المهمّ . الذي يُخشى من عدم المبادرة إليه قبل حلول الأجل . ليس إلّا الولاية . وعلى هذا ، فهل يمكن أن نفترض لهذه الولاية الواردة في الخطبة معنى آخر غير الإمامة والحكومة التي تمثّل الامتداد الطبيعيّ لإمامة رسول الله وإمارته . ونقول : إنّها المحبّة والنصرة ، مع وجود هذا القلق الذي كان يعانية رسول الله ؟ حَاشَا وَكَلّا .

ومنها ، أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قال : وَلْيُبَلّغُ الشّاهِدُ الغَائِبَ . فلو كان المراد من الولاية النصرة أو المحبّة . مع فرض لزوم هذين الأمرين على المؤمنين ، المستفاد من الكتاب والسنّة ، فما معنى التأكيد على ضرورة إيصالها للغائبين ؟ إذَن ، يستبين لنا أنّ هذه الرسالة رسالة جديدة ومهمّة يتوجب على الشاهد إبلاغها الغائب .

بخاصّة ونحن نقرأ أنّه صلّى الله عليه وآله أشْهَدَ الله بعد الإبلاغ ، فقال : اللّهُمّ أنْتَ شَهِيدٌ عَلَيْهِمْ أَنّي قَدْ بَلّغْتُ وَنَصَحْتُ ! وإشهاد الله على هذا الأمر الذي تكرّر في هذه الخطبة : اللّهُمّ اشْهَدْ ، اللّهُمّ اشْهَدْ دليل على أنّ أمراً جديداً قد حدث ذلك اليوم ، ولم يكن قبله شيئاً مذكوراً .

ومنها ، قول رسول الله صلّى الله عليه وآله في عقبى الحديث : اللهُ أَكْبَرُ عَلَى إكْمالِ الدّينِ ، وإتْمامِ النّعْمَةِ ، ورِضَا الرّبّ بِرِسَالَتي وَالوَلاَيَةِ لِعَلّي بْنِ أَبِي طَالِبٍ مِن بَعْدِي . (95)

وجاء في رواية مأثورة عن شيخ الإسلام الحَمّوئيّ قوله : اللهُ أكْبَرُ عَلَى تَمَامِ نُبُوّتِي وَتَمَامِ دِينِ اللهِ بِوَلاَيَةِ عَلِيّ بَعْدِي . ومنها قول رسول الله بعد الفراغ من الخطبة : هَنّئُوني ! هَنّئُونِي ! إنّ اللهَ خَصّنِي بِالنّبُوّةِ وَخَصّ أهْلَ بَيْتِي بِالإمَامَةِ !

وصريح العبارة إمامة أهل البيت ، وفي طليعتهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام . ومن المعلوم أنّ عقد الاجتماع يومئذٍ ، ونصب خيمة مستقلّة لتقديم التهاني والتبريكات ، وجلوس الإمام صلوات الله عليه في تلك الخيمة بوصفه أميرَ المؤمنينَ ، ومفزع الناس ، وأمر المؤمنين بالذهاب إلى تلك الخيمة وتقديم التهاني ، وإرسال النبيّ صلّى الله عليه وآله زوجاته إليه لتقديم التبريكات والتهاني ، كلّ أُولئك دليل على تخويل الإمام منصب الإمارة والإمامة والولاية .

فلهذا رأينا الشيخين : أبي بكر ، وعُمَر لمّا التقيا الإمام قاما بتهنئته بالولاية ، وكلّ منهما يقول : بَخٍّ بَخٍّ لَكَ يَابْنَ أبي طَالِبٍ ! أَصْبَحْتَ وَأَمْسَيْتَ مَوْلاَيَ وَمَوْلَى كُلّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةً . (96)

ومنها ، جاء التعبير عن الموقف يوم الغدير في أحاديث جمّة بلفظ النّصْب ، فقال رسول الله ما مضمونه : أمرني ربّي أن أنصب لكم إمامكم . وورد لفظ النّصْب في كثير من طُرق الحديث مقروناً بلفظ الولاية أيضاً ، وجاءت الولاية بوصفها نصباً ، وفي ذلك دلالة على درجة تكون الحكومة مطلقة فيها لجميع أفراد الأُمّة ، وهذا هو معنى الإمامة الملازم للأولويّة في الشؤون المتعلّقة بالأُمّة .

ويتبيّن هذا اللفظ درجة جديدة لأمير المؤمنين عليه السلام منّ الله بها عليه في ذلك اليوم ، ولم يسبق بها . ولا يمكن أن تكون هذه الدرجة المحبّة والنصرة . فقد كانت هذه الدرجة موجودة منذ القديم ، وهي واضحة بصورة عامّة لجميع أفراد المسلمين .

إنّ لفظ النّصْب في موارد الإقامة هو لأمر الحكومة وتقرير الولاية . مثلاً يقولون : نصب السلطان فلاناً والياً وحاكماً على المحافظة الفلانيّة . ولا يقولون : نصبه محبّاً ، أو ناصراً ، أو محبوباً ، أو مَنْصُوراً ، وأمثال ذلك من العناوين التي يشترك فيها أفراد المجتمع كافّة . وهذا هو مقام الخلافة والإمامة والوصاية والقيام بالأُمور ، الذي نصب رسول الله فيه عليّاً بأمر الله .

روى شيخ الإسلام الحَمّوئيّ بسنده عن سُلَيم بن قَيس الهلاليّ ، قال : رأيت عليّاً عليه السلام في مسجد رسول الله صلّى الله عليه [وآله] في خلافة عثمان رضي الله عنه وجماعة يتحدّثون ويتذاكرون العلم والفقه والحديث . ثمّ ذكر الحديث مفصّلاً حتّى بلغ قوله : «قام زَيد بن أرقم ، والبَراء بن عَازِب ، وسَلمان ، وأبو ذرّ ، والمِقداد ، وعمّار ، وقالوا : نشهد لقد حفظنا قول النبيّ صلّى الله عليه وآله وهو قائم على المنبر وأنت إلى

جانبه وهو يقول : يَا أَيّهَا النَّاسُ ! إِنّ اللهَ عَزّ وَجَلّ أَمَرَنِي أَنْ أَنْصِبَ لَكُمْ إِمَامَكُمْ وَالقَائِمَ فِيكُمْ بَعْدِي وَوَصِيّي وَخَلِيفَتِي ، وَالّذِي فَرَضَ اللهُ عَزّ وَجَلّ عَلَى المُؤْمِنِينَ فِي كِتَابِهِ طَاعَتَهُ ، فَقَرَنَهُ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَتِي ، وَأَمَرَكُمْ بِوَلاَيَتِهِ . وَإِنّي رَاجَعْتُ رَبّي خَشْيَةَ طَعْنِ أَهْلِ النّفَاقِ وَتَكْذِيبِهِمْ فَأَوْعَدَنِي لأُبَلّغَهَا (ظ) أَوْ لِيُعَذّبَنِي . (97)

وروى السيّد علي شهاب الدين الهَمَداني عن عُمَر بن الخطّاب أنّه قال : نَصَبَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ ، عَلِيّاً عَلَماً ، فَقَالَ : مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيّ مَوْلاَهُ ، اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالاَهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ، اللَهُمّ أنْتَ شَهِيدي عَلَيْهِمْ . (98)

ومنها ، أنّ ابن عبّاس قال بعد فراغ النبيّ من خطبته : وَجَبَتْ واللهِ فِي رِقَابِ القَوْمِ . (99)

إذا كان المراد من الولاية المحبّة أو النصرة ، فهل يمكن أن نتصوّر وجهاً لكلام ابن عبّاس ؟ ذلك أنّ أيّاً من النصرة والمحبّة لا يحتاج إلى الوجوب في الرقاب ، بَيدَ أنّ منصب الإمامة والخلافة المستلزم للإمارة والحكومة يجب في رقاب من يريد التنصّل من المسؤوليّة ، وعدم الانضواء تحت لواء تلك الحكومة .

وإذ نصل الآن إلى ختام البحث في معنى المَوْلَى في حديث الغدير ، أرى من المناسب جدّاً أن أذكر قصيدة المرحوم السيّد رضا الهنديّ المعروفة بالقصيدة الكوثريّة ، ونتوسّل إلى الله ببركات النفس النفيسة لرسول الله صلّى الله عليه وآله و أمير المؤمنين سلام الله عليه ، ونستمدّ من تينك الروحين المقدّستين اللتين هما أعلى من روح القدس . ونطلب من الذات الأحديّة الخير والرحمة لرفع عقبات السير ، وطيّ درجات القرب من ذينك العظيمين .

تضمّ هذه القصيدة أربعة وخمسين بيتاً ، موضوع الأبيات الأربعة والعشرين الأُولى التوسّل برسول الله ، وسائر الأبيات في التوسّل بأمير المؤمنين ، وذكر محامد ومناقب وفضائل ذلك الدرّ الثمين لعالم الإمكان :

أَمُفَلّجُ ثَغرُكَ أَمْ جَوْهَرْ
وَرَحِيقُ رُضَابُكَ أَمْ سُكّرْ
قَدْ قَالَ لِثَغْرِكَ صَانِعُهُ
إنّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرْ
وَالخَالُ لِخَدّكَ أمْ مِسْكٌ
نَقّطْتَ بِهِ الوَرْدَ الأَحْمَرْ
أمْ ذَاكَ الخَالُ بِذَاكَ الخَدّ
فَتّيْتَ النّدّ عَلَى مَجْمَرْ
عَجَباً مِنْ جَمْرَيهِ تَذْكُو
وَبِهَا لاَ يَحْتَرِقُ العَنبَرْ
يَامَنْ تَبْدُو لِي وَفْرَتُهُ
فِي صُبْحِ مُحَيّاهُ الأَزْهَرْ
فَأُجِنّ بِهِ فِي اللّيْلِ إذا يَغْشَى
وَالصّبْحِ إذَا أسْفَرْ
إرْحَمْ أرِقَا لَوْ لَمْ تَمْرَض
بِنُعَاسِ جُفُونِكَ لَمْ يَسْهَرْ
تَبْيَضّ لِهِجْرِكَ عَيْنَاهُ

حَزَناً وَمَدَامِعُهُ تَحْمَرْ
يَا لَلْعُشّاقِ لِمَفْتُونٍ
بِهَوَى رَشَأٍ أَحْوَى أَحْمَرْ
إِنْ يَبْدُ لِذِي طَرَبٍ غَنّى
أَوْ لَاحَ لِذِي نُسُكٍ كَبّرْ
أَمَنْتُ هَوىً بِنُبُوّتِهِ
وَبِعَيْنَيْهِ سِحْرٌ يُؤثَرْ
أَصْفَيْتُ الوُدّ لِذِي مَلَلٍ
عَيْشِي بِقَطِيعَتِهِ كَدّرْ
يَا مَنْ قَدْ آثَرَ هِجْرَانِي
وَعَلَيّ بِلُقْيَاهُ اسْتَأْثَرْ
أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِمَا أُوْلَتْكَ
النّظْرَةَ مِنْ حُسْنِ المَنْظَرْ
وَبِوَجْهِكَ إِذْ يَحْمَرّ حَياً
وَبِوَجْهِ مُحِبّكَ إِذْ يَصْفَرْ
وَبِلُؤْلُؤِ مَبْسَمِكَ المَنْظُومْ
وَلَؤْلُؤِ دَمْعِيَ إِذْ يُنْثَرْ
أَنْ تَتْرُكَ هَذَا الهَجْرَ فَلَيْسَ
يَلِيقُ بِمِثْلِيَ أَنْ يُهْجَرْ
فَأَجِلِ الأَقْدَاحَ بِصَرْفِ الرّاحِ
عَسَى الأَفْرَحُ بِهَا تُنْشَرْ
وَأَشْغِلْ يُمْنَاكَ بِصَبّ الكَأْ
سِ وَخَلّ يُسْرَاك لِلْمَزْهَرْ
فَدَمُ العُنْقُودِ وَلَحْنُ العُودِ
يُعِيدُ الخَيْرَ وَيَنْفِي الشّرْ
بَكّرْ لِلسّكْرِ قُبَيْلَ الفَجْرِ
فَصَفْوُ الدّهْرِ لِمَنْ بَكّرْ
هَذَا عَمَلِي فَاسْلُكْ سُبُلِي
إِنْ كُنْتَ تَقِرّ عَلَى المُنْكَرْ
فَلَقْد أَسْرَفْتُ وَمَا أَسْلَفْتُ
لِنَفْسِي مَا فِيهِ أَعْذَرْ
سَوّدْتُ صَحِيفَةَ أَعْمَالِي
وَوَكَلْتُ الأَمْرَ إِلَى حَيْدَرْ
هُوَ كَهْفِي مِنْ نَوْبِ الدّنْيَا

وَشَفِيعِي فِي يَوْمِ المَحْشَرْ
قَدْ تَمّتْ لِي بِوَلَايَتِهِ
نِعَمٌ جَمّتْ عَنْ أَنْ تُشْكَرْ
لِأُصِيبَ بِهَا الحَظّ الأَوفَى
وأُخَصّصَ بِالسّهْمِ الأَوْفَرْ
بِالحِفْظِ مِنَ النّارِ الكُبْرَى
وَالأَمْنِ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرْ
هَلْ يَمْنَعُنِي وَهُوَ السّاقِي
أَنْ أشْرِبَ مِنْ حَوْضِ الكَوْثَرْ
أَمْ يَطْرُدني عَنْ مَائِدَةٍ
وُضِعَتْ لِلْقَانِعِ وَالمُعْتَر
يَا مَنْ قَدْ أَنْكَرَ مِنْ آياتِ
أبي حَسَنٍ مَا لَا يُنْكَرْ
إنْ كُنْتَ لِجَهْلِكَ بِالأَيّامِ
جَحَدْتَ مَقَامَ أَبِي شُبّرْ
فَاسْأَلْ بَدْراً وَاسْأَلْ أُحُداً
وَسَلِ الأَحْزَابَ وَسَلْ خَيْبَرْ
مَنْ دَبّرَ فِيهَا الأَمْرَ وَمَنْ
أَرْدَى الأَبْطَالَ وَمَنْ دَمّرْ
مَنْ هَدّ حُصُونَ الشّرِكِ وَمَنْ
شَادَ الإسْلَامَ وَمَنْ عَمّرْ
مَنْ قَدّمَهُ طَه وَعَلَى
أهْلِ الإيمَانِ لَهُ أَمّرْ
قَاسَوْكَ أَبَا حَسَنٍ بِسِوَاكَ
وَهَلْ بَالطّودِ يُقَاسُ الذّرْ
أَنّى سَاوَوْكَ بِمَنْ نَاوَوْكَ
وَهَلْ سَاوَوْا نَعْلَي قَنْبَرْ
مَنْ غَيْرُكَ مَنْ يُدْعَى لِلحَرْبِ
وَلِلمِحْرَابِ وَلِلمِنْبَرْ
أَفْعَالُ الخَيْرِ إذَا انْتَشَرتْ
فِي النّاسِ فَأَنْتَ لَهَا مَصْدَرْ
وَإذَا ذُكِرَ المَعْرُوفُ فَمَا
لِسِوَاكَ بِهِ شَيءٌ يُذْكَرْ
أَحْيَيْتَ الدّينَ بِأَبْيَضَ قَدْ

أَوْدَعْتَ بِهِ المَوْتَ الأَحْمَرْ

قُطْباً لِلحَرْبِ يُدِيرُ الضّرْبَ

وَيَجْلُوا الكَرْبَ بِيَوْمِ الكَرْ

فَاصْدَعْ بِالأَمْرِ فَنَاصِرُكَ التّبّارُ

البَتّارُ وَشَانِئُكَ الأَبْتَرْ

لَوْ لَمْ تُؤْمَرْ بِالصّبْرِ وَكَظْمِ

الغَيْظِ وَلَيْتَكَ لَمْ تُؤْمَرْ

مَا نَالَ الأَمْرَ أَخُو تَيمٍ

وَلَا تَنَاوَلَهُ مِنْهُ حَبْتَرْ

مَا آلَ الأَمْرُ إِلَى التّحْكِيمِ

وَزَايَلَ مَوْقِفَهُ الأَشْتَرْ

لَكِنّ أعْرَاضَ العَاجِلِ مَا

عَلِقَتْ بِرِدَائِكَ يَا جَوْهَرْ

أَنْتَ المُهْتَمّ بِحِفْظِ الدّينِ

وَغَيْرُكَ بِالدّنْيَا يَغْتَرْ

أَفْعَالُكَ مَا كَانَتْ فِيهَا

إلّا ذِكْرَى لِمَنِاذّكّرْ

حُجَجاً أَلْزَمْتَ بِهَا الخُصَمَاءَ

وَتَبْصِرَةً لِمَنِ اسْتَبْصَرْ

آيَاتُ جَلَالِكَ لَا تُحْصَى

وَصِفَاتُ كَمَالِكَ لَا تُحْصَرْ

مَنْ طَوّلَ فِيكَ مَدَائِحَهُ

عَنْ أَدْنَى وَاجِبِهَا قَصّرْ

فَاقْبَلْ يَا كَعْبَةَ آمَالِي

مِنْ هَدْي مَدِيحِيَ مَا اسْتَيْسَرْ

أقول : المعروف بين العلماء أنّ هذه القصيدة كلّها منظومة في أمير المؤمنين عليه السلام . بَيدَ أنّي أرى أنّ الأبيات الأربعة والعشرين الأُولى منها في رسول الله صلّى الله عليه وآله . فالبيت الأوّل :

* أمُفَلّجُ ثَغْرُكَ أَمْ جَوْهَر *

لايناسب أن يكون المخاطب به أمير المؤمنين عليه السلام . والشواهد على ذلك كثيرة :

أوّلاً : نقل جميع المؤرّخين أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان مُفَلّج الأسنان ، أي : أسنانه الأماميّة متفارقة .

ثانياً : ذكر في البيت الثاني قوله تعالى :

* إِنّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرْ *

والمخاطب في هذه الآية هو رسول الله.

ثالثاً : قال في البيت الثاني عشر :

* آمَنْتُ هوىً بِنُبُوّتِهِ *

والنبوّة لرسول الله .

رابعاً : قال في البيت السادس عشر :

* وَبِوَجْهِكَ إذْ يَحْمَرّ *

وهذا الاحمرار بسبب الحياء ، وقد عدّ المؤرّخون من صفات رسول الله ، قالوا : وَهُوَ رَجُلٌ حَيّيّ . وكذلك سائر الأبيات فإنّها تناسبه .

ويواصل الشاعر قصيدته في رسول الله صلّى الله عليه وآله حتّى يصل إلى البيت الخامس والعشرين الذي يقول فيه :

سَوّدْتُ صَحِيفَةَ أعْمَالِي

وَوَكَلْتُ الْأَمْرَ إلَى حَيْدَر

وهذا البيت وما يليه من الأبيات حتّى آخر القصيدة قد نظمت في أمير المؤمنين عليه السلام . والحقّ أنّ الشاعر قد أجاد وأجمل كثيراً .

ونقل أنّ هذه القصيدة فازت بالجائزة الأُولى في المسابقات الشعريّة التي أُقيمت في العراق لمدح أمير المؤمنين عليه السلام . وَلِكُلّ بَيْتٍ بَيْتٌ فِي الجَنّةِ . رَحِمَهُ اللهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً وَحَشَرَهُ مَعَ مَوَالِيهِ بِمُحَمّدٍ وَآلِهِ الطّاهِرِينَ .

روى ابن عساكر بسنده عن عمّار الدّهنيّ ، عن أبي فاختة ، قال : أَقْبَلَ عَلِيّ وَعُمَرُ جَالِسٌ فِي مَجْلِسِهِ ، فَلَمّا رَآهُ عُمَرُ تَضَعضَعَ وَتَوَاضَعَ وَتَوَسّعَ لَهُ فِي المَجْلِسِ . فَلَمّا قَامَ عَلِيّ قَالَ بَعْضُ القَوْمِ : يَا أَمِيرَ المؤْمِنِينَ ! إنّكَ تَصْنَعُ بِعَلِيّ صَنِيعاً ما تَصْنَعُهُ بِأَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمّدٍ ! قَالَ عُمَرُ : وَمَا رَأَيْتَنِي أَصْنَعُ بِهِ ؟! قَالَ : رَأَيْتُكَ كُلّمَا رَأَيْتَهُ تَضَعْضَعْتَ وَتَوَاضَعْتَ وَأَوْسَعْتَ حَتّى يَجْلِسَ ! قَالَ : وَمَا يَمْنَعُنِي وَاللهِ إنّهُ لَمَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلّ مُؤْمِنٍ . (100)

وجاء في كتاب «الفتوحات الإسلاميّة» : حكم عليّ بن أبي طالب مرّة على أعرابيّ بحكم ، فلم يرض بحكمه . فتلبّبه عمر بن الخطّاب وقال له : وَيْلَكَ ! إنّهُ مَوْلَاكَ وَمَوْلَى كُلّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ . (101)

وأخرج الطبرانيّ أنّه قيل لعمر : إنّكَ تَصْنَعُ بِعَليّ . أي مِنَ التّعْظِيمِ . شَيئاً لَا تَصْنَعُ مَعَ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ ! فَقَالَ : إنّهُ مَوْلَايَ . (102)

تعليقات:

1) وسط الآية 3 ، من السورة 5 : المائدة .

2) لمّا كانت أُمّ حبيبة بنت أبي سفيان وأُخت معاوية من أزواج رسول الله ، والقرآن يصرّح أنّ أزواج النبيّ أُمّهات المؤمنين : وَأَزوَ جُهُ أُمّهَاتُهُمْ ، لذلك استغلّ معاوية هذه الآية فاختلق له نسباً يتمثّل في خؤولة المؤمنين . وكان يسمّي نفسه في الشام : خال المؤمنين .

3) جاء هذا البيت في كتاب «النقض» ص 145 على الشكل التالي :

سبقتكم إلى الإسلام طرّاً

غُلَاماً ما بلغت أوَانَ حُلْمِي

وفي كتاب «كشف الغمّة» للإربليّ ، ص 92 :

* صَغِيراً مَا بَلَغْتُ أَوانَ حُلمِيّ *

4) مناقب ابن شهرآشوب» ج 1 ، ص 356 الطبعة الحجريّة ؛ و«معجم الأُدباء» ج 14 ، ص 48 ؛ و «البداية والنهاية» ج 8 ، ص 8 و 9 ؛ و «الغدير» ج 2 ص 25 .

ونُقِلَت هذه الأبيات عن أمير المؤمنين عليه السلام في «فرائدالسمطين» ج 1 ، الباب 70 ، ص 427 . وقال في مستهلّ هذا الموضوع : «لمّا قرأ الإمام كتاب معاوية ، قال : أبا الفضل يفخر عَلَيّ ابن آكلة الأكباد ؟ اكتب إليه يا قنبر : إنّ لي سيوفاً بدريّة ، وسهاماً هاشميّة ، قد عرفت مواضع نصالها في أقاربك وعشائرك يوم بدر ؛ وما هي من الظالمين ببعيد (ثمّ قال له : اكتب : محمّد النبيّ ... إلى آخره) ؛ و «الاحتجاج» للشيخ الطبرسيّ ، طبعة النجف ، ج 1 ، ص 265 و 266 .

5) الغدير» ج 2 ، ص 26 إلى 30 . إكتفى بذكر أسماء المؤلّفين فحسب .

6) ذكر أبو الفرج الإصفهانيّ نسبه في «الأغاني» طبعة ساسي ج 4 ، ص 3 كما يلي : «حسّان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عديّ بن عمرو بن مالك بن النجّار . وهو تيم الله بن ثَعْلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة . وهو العنقاء بن عمرو وإنّما سمّي العنقاء لطول عُنُقه) وعمرو . هو مزيقياء . بن عامر بن ماءِ السّماءِ بن حارثة الغِطْريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة البهلول بن مازن بن الأزد ، وهو ذرى . وقيل : ذراء ممدود . بن الغوث بن بنت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

7) جاء نسبه في «الأغاني» ج 15 ، ص 108 كما يلي : هو الكميت بن زيد بن خنيس ابن مخالد بن وهيب بن عمرو بن سبيع . وقيل : الكميت بن زيد بن خنيس بن مخالد بن ذؤيبة بن قيس بن عمرو بن سبيع . بن مالك بن سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مُضَر بن نزار . وجاء في التعليقة من «المؤتلف والمختلف» للآمديّ أنّ المسمّين باسم الكُميت بين الشعراء ثلاثة من بني أسد : أوّلهم : الكميت أكبر بن ثعلبة بن نوفل بن فضلة بن الأشتر بن جحوان بن فقعس . الثاني : الكميت بن المعروف بن الكميت الأكبر ، والثالث : الكميت بن زيد [بن خنيس ، موضوع بحثنا] .

8) مناقب ابن شهرآشوب» الطبعة الحجريّة ج 1 ، ص 530 ؛ و «تفسير أبي الفتوح الرازيّ» ج 2 ، ص 193 . وذكرها ابن الفتّال في «روضة الواعظين» ص 90 ؛ إلّا أنّه نسبها إلى عليّ بن أحمد الفنجكرديّ سهواً . ونسب شعر الفنجكرديّ :

* يوم الغدير سوى العيدين لي عيد *

إلى قيس بن سعد بن عبادة .

9) ديوان الحميريّ» ص 111 و 112 . وهذه الأبيات الأربعة هي البيت المائة وما بعده بالترتيب ، وهي من قصيدة تبلغ 113 بيتاً ، ومطلعها :

هَلّا وقفت على المكان المعشب

بين الطويلع فاللوي من كبكبِ

10) ديوان الحميريّ» ص 198 . وجاء في التعليقة : ورد في البيت السابع : «النّشُور» حسب نقل «المناقب» و «الغدير» . وصوابه على ما أعتقد : «الثّبور» .

11) ديوان الحِمْيَرِيّ» ص 420 .

12) القاضيّ التنوخيّ أحد علماء القرن الثالث والرابع . توفّي سنة 342 هـ . نظم قصيدة ردّ فيها على عبد الله بن المعتزّ المتوفّي سنة 296 هـ ، وكان عبد الله قد نظم قصيدة في مدح العبّاسيّين ، افتخَرَ بهم على الطالبيّين ، ومطلعها :

أبى الله إلّا ما ترون فما لكم

غضاباً على الأقدار يا آل طالبِ

فانبرى إليه التنوخيّ بقصيدة في غاية الروعة والجمال ، وأوّلها :

من ابن رسول الله وابن وصيّه

إلى مُدْغلٍ في عقدة الدين ناصبِ

نَشَا بين طُنْبور ودفّ ومزهر

وفي حجر شادٍ أو على صَدر ضاربِ

ومن ظَهر سَكران إلى بطن قينةٍ

على شُبَهٍ في ملكها وشوائبِ

ويعدّد الشاعر الظلامات التي حلّت بأهل البيت حتّى يصل إلى سمّ الإمام الرضا عليه السلام من قبل المأمون فيقول :

ومأمونكم سَمّ الرّضا بعد بَيعةٍ

تودّ ذرى شمّ الرجال الروا سبِ

13) المناقب» ص . 531

14) أبو القاسم التنوخيّ : وهو عليّ بن محمّد بن أبي الفهم داود بن إبراهيم بن تميم بن جابر بن هاني بن زيد بن عبيد بن مالك ... بن حارث بن عمرو (ملك تنوخ) ... يَعرب بن قحطان .

15) الناقة المهريّة ، وهي ناقة معروفة بسرعة السير والحركة . تنسب إلى مَهرة بن حيدان من بني قضاعة .

16) ديوان الشريف المرتضى» ج 2 ، ص 36 و 37 ، تصحيح رشيد الصفّار . ونقلت خمسة أبيات منها في «مناقب ابن شهرآشوب» ، الطبعة الحجريّة ، ج 1 ، ص . 538

17) روضة الواعظين» ص . 90 وجاء في آخر البيت الرابع من هذا الكتاب : يُؤْثَرُ . ولمّا لم يكن لها معنى مناسب هنا ، تمّ تصحيحها بكلمة : يَأثِرُ . ويمكن أن تكون الأفعال : يُوَالَى ، ويُؤْخَذُ وَيُؤْثَرُ بصيغة المجهول ، فيكون المعنى : «أُولى الأنام بأن يوالَى المرتضى (عليّ بن أبي طالب) ، أي : يواليه الناس ، وهو الذي تؤخذ منه الأحكام وتنقل إلى الآخرين» . فيصبح الشعر في هذه الحالة سلساً .

وذكر ابن شهرآشوب في مناقبه ، ج 1 ، ص 540 بيتين من هذه الأبيات الأربعة .

18) معرفة الإمام» ج 5 ، الدرس 61 و 62 ، جاء الحديث عن معنى الولاية ولفظ الولي والمولى هناك بصورة وافية . بَيدَ أنّي أشرت هنا إلى ذلك الموضوع إجمالاً وذلك لأنّ الحديث يحوم هنا حول لفظ المولى الوارد في حديث الغدير .

19) قال في «شرح المواقف» ضمن نقله تقرير دليل الشيعة في كيفيّة استفادة الإمامة من حديث الولاية : «ولأنّها (أي المعاني المذكورة) تشترك في الولاية فيجب الحمل عليها وجعل اللفظ حقيقة في هذا القدر المشترك دفعاً للاشتراك اللفظيّ» . (ص 611) . وقال المرحوم العلّامة الأمينيّ أيضاً في «الغدير» ج 1 ، ص 370

بعد عرض القاسم المشتركبين المعاني التي ذكرها للمولى ، وبلغت سبعة وعشرين معنى : الوجه المشترك بين هذه المعاني هو الأولى بالشيء فالاشتراك معنويّ وهو أولى من الاشتراك اللفظيّ المستدعي لأوضاع كثيرة غير معلومة بنصّ ثابتٍ والمنفِيّةِ بالأصل المحكّم . وقد سَبَقَنا إلى بعض هذه النظريّة شمسُ الدين ابن البِطْرِيق في «العمدة» ص 56 ، وهو أحد أعلام الطائفة في القرن السادس» بَيدَ أنّنا لا نتّفق مع المرحوم الأمينيّ في طبيعة الوجه المشترك ، وسيأتي .

20) شرح المقاصد» ص . 289

21) غريب القرآن» ، ص . 154

22) مشكل القرآن» ، بناءً على نقل الشريف المرتضى في كتاب «الشافي» . وذكر استشهاد الأنباريّ ببيت لُبَيد . وكذلك بناءً على نقل ابن بطريق في كتاب «العمدة» ص . 55

23) مقطع من الآية 15 ، من السورة 57 : الحديد .

24) هذا البيت من معلّقة لبيد بن ربيعة ، وهي من المعلّقات السبع . يقول : فغدت البقرة وهي تحسب أنّ كلا فرجيها خلفها أو أمامها أولى بالمخافة منه .

25) الآيتان 75 و 76 ، من السورة 16 : النحل .

26) الآية 5 ، من السورة 33 : الأحزاب .

27) الآية 11 ، من السورة 47 : محمّد .

28) تفسير أبي الفتوح» ج 2 ، ص 197 و . 198

29) تذكرة خواصّ الأُمّة» ص 19 و . 20

30) الآية 15 ، من السورة 57 : الحديد .

31) الآية 11 ، من السورة 47 : محمد .

32) الآية 33 ، من السورة 4 : النساء .

33) الآية 5 ، من السورة 19 : مريم .

34) الآية 41 ، من السورة 44 : الدخان .

35) الآية 61 ، من السورة 3 : آل عمران .

36) مطالب السّؤول» ؛ ص 16 و . 17 القطع الرحليّ . فصل ما يتعلّق بالإمام الأوّل عليّ .

37) معرفة الإمام» ج 5 ، الدرس 61 و . 62

38) قال في التعليقة : في «صحيح البخاريّ» ج 7 ص 57 [المَوْلَى بمعنى] المَلِيك ؛ وقال القَسْطَلانيّ في «شرح الصحيح» ج 7 ، ص 77 ؛ المَوْلَى : المَلِيك ، لأنّه يلي أُمور الناس . وشرحه كذلك أبو محمّد العَينيّ في «عُمْدة القارئ» ، وهو شرح آخر لصحيح البخاريّ ؛ وكذا قال لفظيّاً العَدويّ الحمزاويّ في كتاب «النّور السّاري» .

39) الآية 78 ، من السورة 22 : الحجّ .

40) الآية 11 ، من السورة 47 : محمّد .

41) الآية 150 ، من السورة 3 : آل عمران .

42) الآية 51 ، من السورة 9 : التوبة . والآية بتمامها : قُلْ لَنْ يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَبنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

43) الآية 78 ، من السورة 22 : الحجّ .
45.44) الآية 2 ، من السورة 66 : التحريم .
46) الآية 15 ، من السورة 57 : الحديد .
47) الآية 286 ، من السورة 2 : البقرة .
48) الآية 40 ، من السورة 8 : الأنفال .
49) الآية 15 ، من السورة 57 : الحديد .
50) الآية 51 ، من السورة 9 : التوبة .
51) الغدير» ج 1 ، منتخب من ص 362 إلى . 370
52) تفسير أبي الفتوح الرازيّ» ج 2 ، ص . 198
53) هذه الأبيات من قصيدة بعثها عمرو بن العاص من مصر إلى معاوية . ولمّا أراد معاوية عزله عن ولاية مصر ، نظم هذه القصيدة في هجائه ومدح أمير المؤمنين عليه السلام فعزف عن رأيه . ونقل السيّد نعمة الله الجزائريّ هذه الأبيات في كتابه «الأنوار النعمانيّة» ص 38 و . 39
54) ديوان أبي تمّام الطائيّ» ص 143وذكر الخطيب في «تاريخ بغداد» ترجمة أبي تمّام ، ج 8 ، ص 248 إلى 253 ، تحت عنوان : حبيب بن أوْس أبو تمّام الطائيّ الشاعر .
وهذه الأبيات الخمسة مذكورة في «مناقب ابن شهرآشوب» ج 1 ، ص 539 مع بيت آخر هو :
أَحُجّةُ رَبّ العَالَمِينَ وَوَارِثُ
النّبِيّ أَلَا عَهْدٌ وَفيّ وَلَا إصْرُ
55) أبو محمّد سفيان بن مصعب العَبديّ الكوفيّ . («الغدير» ، ج 2 ، ص 292) .
56) جاء في كتاب «النقض» المعروف بكتاب «بعض مثالب النواصِب في نقض بعض فضائح الروافض» تصنيف أبي رشيد عبد الجليل القزوينيّ الرازيّ ، في ص 247 «أنّ مَهْيار بن مرزويه الكاتب من أحفاد كسرى أنوشيروان العادل» .
57) الآية 15 ، من السورة 57 : الحديد .
58) تفسير الفخر الرازيّ» ج 8 ، ص . 131
59) نُهَاء : ارتفاع الماء عن سطح الأرض . وصعائد : اسم مكان .
60) الرزّ : الصوت الخفيّ ؛ الأنيس والإنس والناس واحد .
61) ديوان لُبَيد» ص 172 و 173 ، طبعة دار صادر ، بيروت ، 1386 هـ .
62) شرح المعلّقات السبع» للزوزنيّ : شرح قصيدة لبيد بن ربيعة ، الطبعة الحجريّة ، ص . 78 توفّي القاضيّ الزوزنيّ : الحسين بن أحمد شارح المعلّقات سنة . 486
63) تفسير الطبريّ» ج 9 ، ص . 117
64) تفسير ابن الجوزيّ» : «زاد المسير» .
65) مطالب السّؤول» ص . 16 الطبعة الحجريّة .
66) تذكرة خواصّ الأُمّة» ص . 19 الطبعة الحجريّة .
67) ص . 288
68) الفصول المهمّة» ص 27 الطبعة الحجريّة ، وص 25 من الطبعة الحديثة في النجف .

69) تفسير الجَلاَلَيْن» .

70) شرح تجريد القوشجيّ» الأوراق الثلاث عشرة الأخيرة من الكتاب ، الطبعة الحجريّة .

71) تفسير الكشّاف» ج 2 ، ص 435 ، الطبعة الأُولى في المطبعة الشرقيّة .

مَحْرَى وَمَحْرَاة ، وكذلك مَقْمَنْ وَمَقْمَنَة ، ومَمْأن ومَمْأنَةَ بمعنى المَخْلَقة والمَجْدَرة . وإذا قيل : هُوَ مَقْمَنٌ أَوْ مَحْرِيّ أَو مَمْأَنٌ لِكذَا يعني جديرٌ وَخَلِيقٌ بِكَذا .

72) الآية 29 ، من السورة 18 : الكهف .

73) تفسير الكشّاف» ج 2 ، ص 435 ، الطبعة الأُولى في المطبعة الشرقيّة .

74) تفسير «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» للبيضاويّ ، طبعة مكتبة الجمهوريّة المصريّة ، ص . 555

75) لُباب التّأويل في معاني التّنزيلتفسير عليّ بن محمّد بن إبراهيم البغداديّ المعروف بالخازن ، مطبعة مصطفى محمّد ، ج 7 ، ص . 29

76) الآية 11 ، من السورة 47 : محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم .

77) الآية 29 ، من السورة 18 : الكهف .

78) تفسير «مفاتيح الغَيب» المشهور ب «تفسير الفخر الرازيّ» ، ج 8 ، ص . 131

79) نقلنا ملخّصاً لما يستشفّ من كلام الرازيّ ، وليس كلامه نصّاً .

80) الآية 68 ، من السورة 3 : آل عمران .

81) جاء في «الغدير» : أَلَهْفي بُقرّي سجل . ولمّا يكن لها معنى صحيح ، راجعنا شرح «ديوان الحماسة» في قول جعفر بن علبة الحارثيّ ، فوجدناه هكذا : أَلَهْفَا بُقرّي سَحْبَلٍ . لذلك نقلناه كما ورد في المصدر المذكور . وجاء فيه «الهمزة : حرف نداء ، لَهْفَا : منادى بحذف الياء أو بدونها . قُرّى . بضمّ القاف وتشديد الراء المفتوحة . : أرض أو معنى الاجتماع . سَحْبَل : مكان واسع . ولايا جمع وليّة مؤنّث وليّ بمعنى القريب ، أو كناية عن النساء ، أو بمعنى الضعفاء الناصرين للأغنياء ، أو بمعنى العشائر والقبائل . وربّما رُوي المواليّ بمعنى بني الأعمام . ثمّ قال : يستعمل المَوْلَى لعدّة معان : العبد ، والسيّد ، وابن العمّ ، والصهر ، والجار ، والحليف ، والوليّ ، والأولى بالشيء» .

82) ملخّص لما يستنتج من كلام الأمينيّ رضوان الله عليه في «الغدير» ج 1 ، ص 351 إلى . 362

83) الآية 11 ، من السورة 14 : إبراهيم .

84) الآية 110 ، من السورة 18 : الكهف .

85) الآية 20 ، من السورة 19 : مريم .

86) الغدير» ج 1 ، ص . 359

87) شرح المواقف» للإيجيّ ص . 612

88) ديوان ابن الفارض» ، ص 70 ، البيت 242 من التائيّة الكبرى .

89) تفسير «رَوح الجِنان وروح الجَنان» المشهور ب «تفسير أبي الفتوح الرازيّ» ج 2 ، ص 192 ، طبعة مظفّرى .

90) مثنوي» طبعة ميرخاني ، ج 6 ، ص 641 ، س . 23

يقول : «لهذا السبب بذل النبيّ غاية جهده فوضع (المولى) اسماً له ولعليّ .

قال : من كنت مولاه ، فابن عمّي عليّ مولاه .

ومن هو المولى ؟ هو الذي يطلقك ويفصم كُبولَ الرِقّ عن أقدامك .
و لأنّ النبوّة تهدي إلى الحرّيّة ، فإنّ حرّيّة المؤمنين الأحرار من الأنبياء .
فابتهجوا أيّها المؤمنون ، و ارفلوا بالحرّيّة كالسرو والسوسن» .

91) الآية 6 ، من السورة 33 : الأحزاب .

92) الغدير» ج 1 ، ص . 371

93) تذكرة الخواصّ» ص . 20

94) مطالب السّؤول» ص . 16

95) فرائد السمطين» ، ج 1 ، ص 74 ، ح 40 ؛ و «شواهد التنزيل» ، ج 1 ص . 157 رواها بسنده عن الخوارزميّ متّصلاً عن أبي هارون العَبْديّ ، عن أبي سعيد الخُدريّ ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله .

96) فرائد السمطين» ج 1 ، ص 65 ، الباب 9 ، الرواية 30 و 31 ، و ص 71 الباب 11 ، الرواية 38 ، ص 71 ، و ص 77 الباب 13 ، الرواية 44 ؛ و «شواهد التنزيل» ج 1 ، ص 157 ، الرواية 120 ، وص 158 ، الرواية 213 ؛ و «تاريخ ابن عساكر» ج 2 ، ص 48 ، الرواية 546 و 547 ، و ص 76 ، الرواية 577 ، وص 78 ، الرواية 578 ، وص 76 ، الرواية . 575 وجاء في بعض روايات ابن عساكر : أصبحتَ مَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلّ مُسْلِمٍ .

97) فرائد السمطين» ج 1 ، ص 315 و 316 ، الباب 58 ، الحديث . 50

98) كتاب «مَوَدّة القُربى» ، حسب نقل «ينابيع الموَدّة» ص 249 ، طبعة إسلامبول .

99) كشف الغُمّة» عليّ بن عيسى الإربليّ ، ص . 94

100) تاريخ دمشق» ، ج 2 ، ص 82 ، الحديث . 582

101) الفتوحات الإسلاميّة» ، ج 2 ، ص . 307

102) الغدير» ج 1 ، ص 382 و . 383 وقال أيضاً : ذكره الزرقانيّ المالكيّ في «شرح المواهب» ص 13 ، عن الدارقطنيّ .

ص 13 ، عن الدارقطنيّ .

الدرس الحادي والتسعون إلى الثالث والتسعين: نصب أمير المؤمنين عليه السلام في غدير خمّ بالولاية العامّة المطلقة

بِسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

وصلّى اللهُ على محمّد وآله الطّاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ وَإِن لّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ إِنّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَفِرِينَ . (1)

يَا سَائِلِي عَنْ حَيْدَرٍ أَعْيَيْتَنِي

أَنا لَسْتُ فِي هَذَا الْجَوَابِ خَلِيقَا

اللهُ سَمّاهُ عَلِيّاً بِاسْمِهِ

فَسَمَا عُلُوّاً فِي الْعَلَا وَسُمُومَا (2)

وَاخْتَارَهُ دُونَ الْوَرَى وَأَمَامَهُ

عَلَماً إِلَى سُبُلِ الْهُدَى وَطَرِيقَا

أَخَذَ إِلَالَهُ عَلَى الْبَرّيّةِ كُلّهَا

عَهْداً لَهُ يَوْمَ الْغَدِيرِ وَثِيقَا

وَغَدَاةَ وَافَى الْمُصْطَفَى أَصْحَابُهُ

جَعَلَ الْوَصِيّ لَهُ أَخَاً وَشَقِيقَا

فَرَقَ الضّلالَ عَنِالْهُدَى فَرَقَاإِلَى

أَنْ جَاوَزَ الْجَوْزَاءَ وَالْعَيّوقَا (3)

وَدَعَاهُ أَفْلَاكُ السّماءِ بِأَمْرِ مَنْ

أَوحَى إِلَيْهِمْ حَيْدَرَ الْفَارُوقَا

وَأَجَابَ أَحْمَدَ سَابِقَاً وَمُصَدّقاً

مَا جَآءَ فِيهِ فَسُمّيَ الصّدّيقَا

فَإِذَا ادّعَى هَذي الْأَسَابِي غَيْرُهُ

فَلْيَأتِنَا فِي شَاهِدٍ تَوْثِيقَا (4)

روى الحافظ أبو نعيم الإصفهانيّ بسنده عن عِكْرِمة ، عن ابن عبّاس ، قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ : مَنْ سَرّهُ أَنْ يَحْيَى حَيَاتِي ، وَيَمُوتَ مَمَاتِي ، وَيَسْكُنَ جَنّةَ عَدْنٍ غَرَسَها رَبّي ، فَلْيُوالِ عَلِيّاً مِنْ بَعْدِي وَلْيُوالِ وَلِيّهُ ، وَلْيَقْتَدِ بِالأَئِمّةِ مِنْ بَعْدِي ؛ فَإِنّهُمْ عِتْرَتِي ، خُلِقُوا مِنْ طِينَتِي ، رُزِقُوا فَهْمَاً وَعِلْمَاً ؛ وَوَيْلٌ لِلْمُكَذّبِينَ بِفَضْلِهِمْ مِنْ أُمّتِي ، لِلْقَاطِعِينَ فِيهِمْ صِلَتِي ، لَا أَنَالَهُمُ اللهُ شَفَاعَتِي . (5)

إنّ قصّة تنصيب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في مقام الولاية الإلهيّة الكبرى والعامّة في غدير خمّ من القصص المهمّة للغاية في التأريخ الإسلاميّ . ولعلّنا لا نشهد واقعة بهذه الأهمّيّة والمواصفات

التي سنتطرّق إليها . ذلك لأنّ هذه الواقعة تمثّل في الحقيقة خلود رسالة النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم واستمرار مرحلة ولايته الإلهيّة متجلّية في الوجود المبارك لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام .

الغدير يرمز إلى تآصر الرسالة والإمامة ، والنبوّة والولاية . ويحكي لنا أنّهما كالثديين المتلازمين لإرضاع وإشباع الطفل ، أو البرعمين المتلاصقين النابتين من جذر واحد .

الغدير معرض إلى : عَلِيّ مِنّي وَأَنَا مِنْهُ أمام أنظار جميع الخلق والأُمّة بأسرها . وإعلان وتبليغ الحقيقة لجميع أبناء العالم حتّى يوم القيامة .

الغدير محلّ ظهور الحقائق المخفيّة ، والبواطن المختفية ، وإرشاد الناس وهدايتهم إلى هذا الطريق .

الغدير هو الصراط المستقيم والسبيل الأعلى للإنسانيّة إلى مقام العرفان وولاية الحقّ الكلّيّة .

الغدير مقام تقولب القضاء الإلهيّ الكلّيّ في عالم القدر . وقياس النور اللامحدود للذات الأحديّة وتعيينه وتحديده وتعريفه من خلال الأسماء والصفات المرئيّة ومشاهد الخلق ، وربط القديم بالحادث ، ونزول التجرّد والبساطة في القيود والحدود الإمكانيّة لتكون في متناول جميع الخلق . وذلك ليرتشف الناس جميعهم من الماء المعين والمنهل العذب للفيض والرحمة والسعادة والبركة .

الغدير يوم تتويج مولى الموحّدين ، ووضع رسول الله صلّى الله عليه وآله العمامة على رأسه بيده الشريفة .

الغدير يومُ : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ .

الغدير يوم : اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ .

الغدير يوم البيعة مع الحقّ . ويوم الطاعة والتسليم ، ويوم معاملة النفس مع ربّها ، ويوم المقايضة بين جنود الشيطان وجنود الرحمن ، ويوم مفارقة الظلام والدخول في عالم النور .

الغدير يوم المحكّ ، ويوم تمايز الإيمان والكفر ، والخلوص والنفاق ، والصفاء والحيلة ، والنور والظلام .

الغدير يوم تأ لّق الشمس المنيرة للعالَم من وراء الغمائم المثقلة ، ويوم إشعاعها في قلوب الكائنات .

الغدير يوم التعريف السويّ ، وذهاب الخوف من الشيطان ، وانصرام عصر التقيّة ، ووحي الأمر الإلزاميّ بضرورة كشف حجاب الحقيقة عن وجه الولاية ، وإبراز هُوَ الهُويّة .

الغدير يوم بَخٍّ بَخٍّ لَكَ يَا عَلِيّ أَصْبَحْتَ وَأَمْسَيْتَ مَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ .

الغدير يوم العيد الأكبر : يوم رفع رسول الله عليّ بن أبي طالب على رؤوس الأشهاد . وإلقاء الخطبة المشهورة ، وأمر الأُمّة بالتسليم لأوامر مولى المتّقين ونواهيه .

ولله الحمد ، وله المنّة أن وفّقنا لعرض واقعة الغدير العظيمة على قدر جهدنا الضئيل هديّة منّا إلى ساحة رسول الله وساحة أخيه وصاحب ذي الفقاره . وهي هديّة متواضعة كهديّة القبّرة التي أتت بضلع الجراد يوم العرض على سليمان . (6) ولابدّ لنا من ذكر عدد من المقدّمات قبل أن ندخل في أصل قضيّة الغدير .

المقدّمة الأُولى : إنّ تعريف أمير المؤمنين عليه السلام إماماً لم يقتصر على يوم الثامن عشر من ذي الحجّة في السنة العاشرة من الهجرة ضمن حجّة الوداع في وادي غدير خمّ على بُعد ميلين عن أرض الجُحفة ، بل كان ذلك اليوم يوم التنصيب الكلّيّ ، والتعريف لجميع الناس ، والإعلان لعموم الأُمّة ، وإلّا فإنّ الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يصرّح بمقامات أمير المؤمنين عليه السلام ودرجاته وإمامته وولايته ووصايته وخلافته وأُخوّته وسائر مناقبه وفضائله ، وذلك في مجالس ومحافل عديدة ، وفي الخفاء والعلن ، وفي الصلح والحرب ، وفي مكّة والمدينة ، ولكلّ رهط وجماعة كانت على اتّصال به طيلة حياة أمير المؤمنين عليه السلام .

ولد أمير المؤمنين عليّ عليه في الكعبة ؛ وحينما أُعطي رسول الله صلّى الله عليه وآله قماطه ، تلا سورة «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» . ونشأ في حجر الرسول الكريم . وهو أوّل من صدّقه يوم كان في العاشرة من عمره . وهو القائل : نزل الوحي على رسول الله يوم الاثنين ، وآمنت يوم الثلاثاء . وعندما كانت الدعوة في سنينها الثلاث أو السبع وحيث كانت دعوة الرسول في دور الخفاء ، فإنّ أحداً لم يصلّ معه في الكعبة غير أمير المؤمنين ، وغير خديجة .

وفي اليوم الأوّل الذي صدع النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله بدعوته في المجلس الذي أقامه لعشيرته الأقربين ، إذ دعاهم لمؤازرته في حمل أعباء النبوّة ، ومعاضدته على القيام بشؤون الرسالة ، لم يجبه إلّا ذلك الفتى اليافع ، والعاشق المُستبسل ، والنابه الواعي . وعندئذٍ اختاره للوزارة والولاية والخلافة .

ولقد قال صلّى الله عليه وآله وسلّم في ذلك اليوم : فَأَيّكُمْ يُؤَازِرُنِي عَلَى هَذَا الأَمْرِ وَأَنْ يَكُونَ أَخِي وَوَصِيّي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ مِنْ بَعْدِي ؟

ولمّا يجبه إلّا عليّ بقوله : أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ !

قال : فَأَنْتَ أَخِي وَوَصِيّي وَوَارِثِي وَخَلِفَتِي فِيكُمْ !

ونلاحظ هنا أنّ تنصيب أمير المؤمنين عليه السلام في مقام الوزارة والخلافة والوصاية كان في إبّان البعثة ، ومنذ ذلك اليوم الذي أُعلنت فيه النبوّة لقريش وفقاً لتعيين رسول الله صلّى الله عليه وآله إيّاه عملاً بآية الإنذار : وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ، (7) وحديث العشيرة .

ويدلّ هذا المعنى بكلّ وضوح أنّ مقام الرسالة ، ومقام الإمامة متلازمان متّصلان ، ولا يقبلان الانفصال والانفكاك ، ولا أساس للرسالة بدون الوزارة والخلافة ، ولا أصل ولا جذور للنبوّة بدون الولاية . فالولاية خفيرة الرسالة ، والإمامة حافظة للنبوّة ، وأنّ الوجود المحدِث للوحي والإنزال من قِبَل الرسول الكريم يصل إلى كماله بواسطة الوجود الحافظ والخفير والمخلّد لأمير المؤمنين،

فقد قال عزّ من قائل:

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا . (8)

وقد تكلّمنا عن حديث العشيرة وآية الإنذار بشكل واف في الدرس الخامس من الجزء الأوّل من كتابنا هذا «معرفة الإمام» .

هذا وقد دعا النبيّ الأكرم أمير المؤمنين صلوات الله عليهما وآلهما كراراً ومراراً ب :

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَيّدُ الْمُسْلِمِينَ ، وَالإمَامُ ، وَالحُجّةُ ، وَالوَصِيّ ، وَسَيّدُ العَرَبِ ، وَسَيّدٌ فِي الدّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَسَيّدُ الأَوصِيَاءِ ، وَسِيّدُ الخَلَائِقِ ، وَسَيّدُ الوَصِيّينَ ، وَأَمِيرُ البَرَرَةِ ، وَإِمَامُ البَرَرَةِ ، وَخَيْرُ البَشَرِ ، وَخَيْرُ الأُمّةِ ، وَخَيْرُ الوَصِيّينَ ، وَخَيْرُ الخَلْقِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ .

وعندما ترك رسول الله المدينة في غزوة تبوك ، واستخلف عليها عليّاً ، فإنّه قال له : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي .

أَي : أنّ كلّ ما كان لهارون من مواصفات فهي لك إلّا النبوّة ، فإنّه لا يأتي نبيّ بعدي ، ولن تكون نبيّاً . أنت كهارون ! أي : أنت أخي ؛ أنت وصيّي ! أنت خليفتي من بعدي ! أنت وزيري ومعيني وحافظ نبوّتي !

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : إنّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثّقَلَيْنِ : كِتَابَ اللهِ وَعِتْرَتِي ، وَإِنّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتّى يَرِدَا عَلَيّ الحَوْضَ .

وقال : مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي مَثَلُ سَفِينَةِ نُوحٍ ، مَنْ رَكِبَهَا نَجَى ، وَمَنْ تَخَلّفَ عَنْهَا غَرِقَ .

والمراد من أهل الذكر في الآية : فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . (9) هم أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم .

والمراد من حبل الله في آية : وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا . (10)

فهم الصراط المستقيم ، والعروة الوثقى إذ لَا يَقْبَلُ اللهُ الأعْمَالَ مِنَ العِبَادِ إلّا بِوِلَايَتِهِمْ عَلَيّاً .

والمقصود من النعيم في الآية الشريفة : ثُمّ لَتُسْئَلُنّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النّعِيمِ . (11) هو نعيم الولاية .

والمقصود من المؤاخذة والسؤال في آية : وَقِفُوهُمْ إِنّهُم مّسْئُولُونَ . (12) هي المؤاخذة والسؤال عن الولاية .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : لَا يَجُوزُ أَحَدٌ عَنِ الصّرَاطِ إلّا وَكَتَبَ لَهُ عَلِيّ الجَوَازَ .

وقال النبيّ : عَلِيّ قَسِيمُ الجَنّةِ وَالنّارِ .

وقال : عَلَيّ مَعَ القُرْآنِ وَالقُرْآنُ مَعَ عَلِيّ .

وقال : عَلِيّ مِنّي وَأَنَا مِنْهُ .

وقال : عَلِيّ مِنّي كَنَفْسِي وَكَرَأْسِي مِنْ بَدَنِي .

وقال : عَلِيّ مَعَ الحَقّ وَالحَقّ مَعَ عَلِيّ : اللَهُمّ أَدِرِ الحَقّ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ .

وقال : عَلِيّ خَيْرُ البَشَرِ ، مَنْ أَبَى فَقَدْ كَفَرَ .

والمراد من أُولي الأمر في قوله : تعالى : أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنكُمْ ، (13) هم أمير المؤمنين والأئمّة المعصومون سلام الله عليهم أجمعين .

ونزلت آية التطهير : إِنّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهّرَكُمْ تَطْهِيرًا (14) في رسول الله ، وأمير المؤمنين ، والزهراء ، والحسن ، والحسين عليهم السلام ، وفي الأئمّة الاثني عشر المعصومين عموماً .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : أَهْلُ بَيْتِي أَمَانٌ لِأَهْلِ الأَرْضِ .

وجاء في آية المباهلة : فَمَنْ حَآجّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لّعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَذِبِينَ . (15) والمقصود من «أنفُسَنَا» هنا هي نفس أمير المؤمنين التي جعلتها الآية نفسَ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وفي قوله تعالى : فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ، (16) حيث إنّ تجلّيات النور الإلهيّ المشعّة والمنتشرة في شبكات عالم الإمكان هي في البيوت التى «أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ» . والمراد من البيوت هنا هي قلوب الأئمّة الطاهرين سلام الله عليهم وأرواحهم المقدّسة .

والمقصود من ذَوِي القُرْبَى في قوله تعالى : قُل لّآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلّا الْمَوَدّةَ فِى الْقُرْبَى ، (17) هم قربى الرسول الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم من نسل الصدّيقة الكبرى عليها السلام وأمير المؤمنين عليه السلام .

والمقصود من خَيْر البَرِيّةِ في قوله تعالى : إِنّ الّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصّلِحَتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيّةِ ، (18) هم أمير المؤمنين وشيعته .

ولمّا نزلت هذه الآية ، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : إِنّ عَلِيّاً وَشِيعَتَهُ هُمُ الفَائِزُونَ .

والمراد من النبأ العظيم في قوله تعالى : عَمّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ النّبَإِ الْعَظِيم . (19) هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

والمقصود من قوله : (مِنَ النّاسِ) في الآية : وَمِنَ النّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللهِ . (20) هو أمير المؤمنين صلوات الله عليه .

والذي كان شريكاً لرسول الله في سرّه ، وعمل بآية النجوى من خلال تقديمه الصدقة والهديّة إلى رسول الله هو أمير المؤمنين عليّ عليه السلام طبق الآية : يَأَيّهَا الّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَيْتُمُ الرّسُولَ فَقَدّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَ كُمْ صَدَقَةً . (21)

وفي الآية الشريفة : قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَبِ . (22)

اعتُبر أمير المؤمنين عليه السلام في مصافّ الذات الإلهيّة المقدّسة تعالى شأنها في الشهادة والدلالة على صدق الرسالة وأحقّيّة الرسول .

وجُعل عليه السلام وليّاً ومَوْلَىً وظهيراً ونصيراً وشريكاً لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في سرّه ، وذلك في قوله تعالى : وَإِنْ تُظَهَرَا (أي عائشة وحفصة) عَلَيْهِ فَإِنّ اللهَ هُوَ مَوْلَبهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ (أي أمير الموحدّين عليه السلام) وَالْمَلَئِكَةُ بَعْدَ ذَ لِكَ ظَهِيرٌ . (23)

وفي إعلان البراءة من المشركين عندما دفع رسول الله صلّى الله عليه وآله الصحيفة التي تضمّ البراءة إلى أبي بكر ليقرأها على الناس في موسم الحجّ في السنة التاسعة للهجرة في منى فنزل عليه الوحي يأمره بأن يقرأها هو أو رجل منه ، فانتدب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أميرَ المؤمنين عليه السلام وأرسله خلف أبي بكر ليأخذ منه الصحيفة ويذهب بنفسه إلى مكّة فيقرأها على المشركين في موسم الحجّ .

أخذ أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان نفس النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم الصحيفة من أبي بكر ، وتوجّه إلى مكّة ، وقرأها على المشركين في موسم الحجّ بعقبة منى ! وَأَذَ نٌ مّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النّاسِ يَوْمَ الْحَجّ الْأَكْبَرِ أَنّ اللهَ بَرِىءٌ مّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ... (24) . الآيات . وانتقلت هذه المهمّة إلى أمير المؤمنين الذي كانت نفسه وروحه من النبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم .

والمراد من الأُذُن الواعية في قوله تعالى : وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَ عِيَةٌ ، (25) هو الوجود المقدّس لأمير المؤمنين عليه السلام .

والمقصود من آل ياسين في قوله جلّ شأنه في الآية : وَسَلَمٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ، (26) هم الأئمّة المعصومون سلام الله عليهم أجمعين .

والمراد من الذي شُرِح صدره بنور الله في قوله تبارك اسمه : أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مّن رّبّهِ ، (27) هو أمير المؤمنين عليه السلام .

والمراد من الصراط في قوله تعالى : وَأَنّ هَذَا صِرَ طِى مُسْتَقِيمًا فَاتّبِعُوهُ وَلَا تَتّبِعُوا السّبُلَ فَتَفَرّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ، (28) هو صراط الله المستقيم ، صراط عليّ بن أبي طالب .

والمقصود ب «مَن يَمشِي سَوِيّاً عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيم» في الآية الشريفة : أَفَمَن يَمْشِى مُكِبّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمّن يَمْشِى سَوِيّا عَلَى صِرَ طٍ مُسْتَقِيمٍ ، (29) هو أمير المؤمنين عليه السلام .

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في خيبر : لَأُعْطِيَنّ الرّايَةَ غداً رَجُلاً يُحِبّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ كَرّارٌ غَيْرُ فَرّارٍ ، لَمْ يَرْجِعْ حَتّى يَفْتَحَ اللهُ بِيَدَيْهِ .

ولمّا حان الغد ، طلب عليّاً ، وكان أرمد العين ، فتفل في عينه ، وأعطاه الراية ، فذهب بها حيدر الكرّار ولم يرجع حتّى اقتلع باب خيبر فاتحاً ظافراً .

وكانت هذه الواقعة بعد فشل أبي بكر وعمر ورجوعهما خائبين خاسِرَين ، إذ لم يستطيعا القيام بالمهمّة التي كلّفهما بها النبيّ صلّى الله عليه وآله في اليومين اللذين سبقا هذه الواقعة .

من هذا المنطلق ، آخى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بينه وبين عليّ عليه السلام مرّتين . الأُولى : في مكّة عندما آخى بين المهاجرين أنفسهم . والثانية : بعد دخوله المدينة ، عندما آخى بين المهاجرين والأنصار . فجعل عليّاً عليه السلام أخاه في كلا المرّتين .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : عَلِيّ أَقْضَاكُمْ .

وفتح النبيّ لعليّ ألف باب من العلم ؛ وقال : أَنَا مَدِينَةُ العِلْمِ وَعَلِيّ بَابُهَا .

وقال : أَنَا دَارُ الحِكْمَةِ وَعَلِيّ بَابُهَا .

وقال : أَنَا مَدِينَةُ الجَنّةِ وَعَلِيّ بَابُهَا .

ولهذا قال صلّى الله عليه وآله : أَنَا وَعَلِيّ أَبَوَا هَذِهِ الأُمّةِ .

وقال : حَقّ عَلِيّ عَلَى هَذِهِ الأُمّةِ كَحَقّ الوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ .

وقال : عَلِيّ وَزِيرِي وَوَارِثِي .

وقال :يَا عَلِيّ لَا يُحِبّكَ إِلّا مُؤْمِنٌ ولَا يُبْغِضُكَ إِلّا مُنَافِقٌ .

وقال : عِنْوَانُ صَحِيفَةِ المُؤْمِنِ : حُبّ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ . (30)

وقال : النّظَرُ إِلَى وَجْهِ عَلِيّ عِبَادَةٌ .

وقال : مَثَلُ عَلِيّ فِي هَذِهِ الأُمّةِ مَثَلُ «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ» . من قرأها مرّة ، فكأنّما قرأ ثلث القرآن ؛ ومن قرأها مرّتين ، فكأنّما قرأ ثلثي القرآن ؛ ومن قرأها ثلاث مرّات ، فكأنّما ختم القرآن كلّه . ومن أحبّ عليّاً بقلبه ، فقد حاز ثلث الإيمان ؛ ومن تبعه بقلبه ولسانه ، فقد حاز ثلثي الإيمان ؛ ومن أحبّه بقلبه ولسانه وجوارحه ، واتّبعه ، فإنّ إيمانه أكمل الإيمان .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : عَلِيّ مِنّي كَنَفْسِي ؛ طَاعَتُهُ طَاعَتِي وَمَعْصِيَتُهُ مَعْصِيَتِي .

وقال : يَا عَلِيّ ! أَنْتَ تُبْرِئُ ذِمّتِي ، وَأَنْتَ خَلِيفَتِي عَلَى أُمّتِي .

وقال : يَا عَلِيّ أَنْتَ تَقْضِي دَيْنِي .

وقال : إنّ وَصِيّي وَوَارِثِي وَمُنْجِزَ وَعْدِي عَلِيّ بْنُ أَبي طَالِبٍ .

وقال : ... يَا عَلِيّ ! أَنْتَ تُؤدّي عَنّي ، وَتُسْمِعُهُمْ صَوْتِي ، وَتُبَيّنُ لَهُمْ ما اخْتَلَفُوا فِيهِ بَعْدِي . (31)

يضاف إلى ذلك كلّه أنّ آية الولاية قد نزلت عند التصدّق بالخاتم أثناء الركوع ، وذلك في مسجد النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم . وقد جعلت الآية عليّاً عليه السلام في مصافّ الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم وليّاً للمسلمين بالولاية الإلهيّة على سبيل الحصر بكلّ صراحة . فقد قال عزّ من قائل : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوَةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوةَ وَهُمْ رَ كِعُونَ . (32)

وهذه الآية في سورة المائدة ؛ وكما نعلم فإنّ هذه السورة هي آخر سورة نزلت على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . حيث أُوحيت إليه في المدينة بعد حجّة الوداع طيلة سبعين يوماً اعتباراً من يوم غدير خمّ حتّى اليوم الذي توفّي فيه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وفي أيّام مرضه ، أمر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بغلق جميع أبواب الصحابة الملاصقة للمسجد النبويّ الشريف ، وذلك لكي لا يكون هناك طريق من دورهم إلى المسجد . ولم يترك باباً مفتوحاً إلّا باب أمير المؤمنين عليه السلام الذي لم يُغْلَق بأمره صلّى الله عليه وآله وسلّم .

ومن الأبواب التي تمّ إغلاقها : باب العبّاس عمّ النبيّ ، وباب عمر ، وباب أبي بكر ، فجاء العبّاس إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم واستأذنه أن يترك بابه مفتوحاً . فقال له رسول الله : ليس الأمر بيدي ، بل

الله لم يأذن بذلك . وقال عمر : يا رسول الله ، إئذن لي بكوّة من أعلى بيتي لأرى قدومك إلى المسجد ! فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : أوحى لي ربّي أن أغلق جميع الأبواب إلّا باب عليّ بن أبي طالب . لذلك أمر بغلق جميع الأبواب بما فيها خَوخَة (33) دار أبي بكر .

فهذه الأُمور وقائع حصلت لأمير المؤمنين عليه السلام في زمن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم . وهذه وأمثالها ممّا لا يحيطها الإحصاء تدلّ على القرب الشديد لأمير المؤمنين من رسول الله ، وعلى روحانيّته الأكيدة واقتران ولايته بولاية رسول الله . ولو لم يسبق أحد أيّ سابقة ذهنيّة أو معرفة بمهفوم وصاية الإمام عليه السلام وخلافته ، كالشخص الغريب على الإسلام مثل : اليهوديّ أو النصرانيّ ، ثمّ يرَ هذه الأشياء ، فلا ريب أنّه سيقول : لا جرم إنّ هذا المقام هو مقام الخلافة والولاية والإمامة بعد رسول الله . وقد أتينا عليها كلّها بالتفصيل في المباحث المتقدّمة أو التي ستأتي في كتاب «معرفة الإمام» بأسانيد معتبرة عن كتب الشيعة ، وعن كتب العامّة كحفّاظهم . وكلّ من رغب أن يرجع إلى أسانيدها عاجلاً ، غير التي جاءت لحد الآن في كتاب «معرفة الإمام» ، فليراجع كتاب «غاية المرام» للسيّد هاشم البحرانيّ ، و «شواهد التنزيل» للحاكم الحَسْكَانى ّ ، و «فرائد السمطين» للحَمّوئيّ ، والأجزاء الثلاثة من تأريخ أمير المؤمنين عليه السلام من «تاريخ دمشق» لابن عساكر .

ويستفاد من هذه المقدّمة أنّ التمهيد لخلافة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان مشهوداً وملموساً تماماً منذ بدء البعثة النبويّة الشريفة ، وعلى امتداد ثلاث وعشرين سنة من نبوّة الرسول العظيم صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وكان بيّناً واضحاً لكلّ جماعة وفريق . بَيدَ أنّ الرسول الكريم لمّا أوشك أن يُدعى فيجيب بناءً على ما أخبره به جبريل من ارتحاله لذلك جاء الإعلان العامّ ، والتنصيب العلنيّ ، وإبلاغ ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وإمامته لجميع طوائف المسلمين بوجه عامّ في غدير خمّ ، إذ مهّد رسول الله الأرضيّة في حجّة الوداع . وكان يتحدّث في خطبة عن كتاب الله وعترته ، حتّى حان موعد الغدير وهبط جبريل بهذه الآية : بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ .

ونختم هذه المقدّمة الشريفة بحديث شريف روي عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه الصلاة والسلام في مجلس المأمون ، ننقله عن كتاب «غاية المرام» :

روى السيّد البحرانيّ عن ابن بابويه ، قال : حدّثنا عليّ بن الحسين بن شاذَوَيه المؤدّب ، وجعفر بن محمّد بن مسرور ، قالا : حدّثنا محمّد بن عبد الله بن جعفر الحميريّ ، عن أبيه ، عن الريّان بن الصّلْت ، قال :

حضر [الإمام] الرضا عليه السلام مجلس المأمون بمرو . وقد اجتمع في مجلسة جماعة من علماء أهل العراق وخراسان .

فقال المأمون : أخبروني عن معنى هذه الآية : ثُمّ أَوْرَثْنَا الْكِتَبِ الّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا . (34)

فقالت العلماء : أراد الله تعالى بذلك الأُمّة كلّها .

فقال المأمون : ما تقول يا أبا الحسن ؟!

فقال الرضا عليه السلام : لا أقول كما قالوا : ولكنّي أقول : أراد الله بذلك العترة الطاهرة .

فقال المأمون : وكيف عنى العترة من دون الأُمّة ؟

فقال الرضا : عليه السلام : لو أراد الأُمّة ، لكانت بأجمعها في الجنّة لقول الله تعالى : فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَ تِ بِإِذْنِ اللهِ ذَ لِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . (35)

ثمّ جمعهم كلّهم في الجنّة ، فقال : جَنّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ . (36)

[(ولمّا لم تكن الأُمّة كلّها في الجنّة ، فلا محالة أنّ المراد من المصطفين الذين يشملون الأصناف الثلاثة هم العترة)] . فَصَارَتِ الوِرَاثَةُ لِلعِتْرَةِ الطّاهِرَةِ لَا لِغَيْرِهِمْ .

فقال المأمون : مَنِ العترة الطاهرة ؟!

فقال الإمام : الّذِينَ وَصَفَهُمْ اللهُ تعالى فِي كِتَابِهِ : فَقَالَ : «إِنّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا» ؛ وَهُمُ الّذِينَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : «إِنّي مَخَلّفٌ فِيكُمُ الثّقَلَيْنِ : كِتَابَ اللهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي ؛ أَلَا وَإِنّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتّى يَرِدَا عَلَيّ الحَوْضَ ؛ فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا ! أَيّهَا النّاسُ ! لَاتُعَلّمُوهُمْ فَإِنّهُمْ أَعْلَمُ مِنْكُمْ» !

قالت العلماء : أخبرنا يا أبا الحسن عن العترة أَهُمُ الآل أم غير الآل ؟ فقال الرضا عليه السلام : هُمُ الآل .

ويبدأ هنا نقاش الإمام عليه السلام فيعرض مواضيع نفيسة وقيّمة جدّاً تشغل ثلاث صفحات تقريباً من كتاب «غاية المرام» وهي صفحات مليئة ومن القطع الرحليّ ومشحونة بالكلمات . وقد تجنّبنا ذكر ذيلها مراعاة للاختصار . (37)

المقدّمة الثانية : إنّ صحابة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وكافّة الذين أسلموا في عصر النبيّ الأكرم عموماً لم يكونوا متساوين من كلّ الجهات ، بل كانوا على درجات ومستويات مختلفة من حيث وعي النبوّة ، واستيعاب معنى الوحي ، وإدراك الدرجات والمقامات التي كان يتمتّع بها رسول الله ، وفهم عالم الغيب ، واليقين بخلوص رسول الله وإخلاصه في جميع الأعمال والسلوكيّات الشخصيّة والاجتماعيّة ، والعباديّة وغير العباديّة ، والنظر إلى ذلك الإنسان العظيم من حيث الطهارة المعنويّة ، والاتّصال بالملأ الأعلى وجبريل ، وبالتالي وإجمالاً في النظر إليه من حيث التجرّد عن النفس والاتّصال بالله جلّ اسمه في كلّ أمر من الأُمور .

فبعضهم كسَلْمَان ، وَعَمّار ، والمِقْدَاد ، وأَبي ذَرّ ، وعُثْمَان بنِ مَظْعُونَ ، وَخَبّابَ بن الأَرَتّ ، وكثير من شهداء بدر ، وأُحد ، والأحزاب ، وغيرها من الغزوات ، كانوا يؤمنون به إيماناً صلباً جعلهم بلا إرادة واختيار أمام إرادته واختياره صلّى الله عليه وآله وسلّم . وكانوا من الفانين فيه فناءً محضاً إذ كانوا يرونه متّصلاً بالغيب متجرّداً عن هوى النفس ، منقطعاً إلى الله .

وهؤلاء لا فرق عندهم بين أن يقرأ عليهم رسول الله آيات القرآن ، أو يأمرهم وينهاهم بأوامره ونواهيه الشخصيّة . ولا فرق عندهم بين أن يكون فعله عباديّاً ، أو سياسيّاً ، أو شخصيّاً ، أو اجتماعيّاً . أو أن يكون نكاحاً ، أو صوماً ، أو حجّاً . ولا فرق عندهم بين أن تتعدّد زوجاته ، أو أن يتزوّج زوجه ابنة بالتبنّيّ ، أو غير ذلك . ولا فرق عندهم بين الهجرة والإقامة ، والحرب والسلم . فكلّ ما كان وبأيّ شكل كان هو فعل الله ، ومن الله ، طهارة محضة ، وحقيقة خالصة لا تشوبها شائبة من غشّ عالم الاعتبار والمجاز وغلّه .

وكان البعض يفرّق بين الآيات القرآنيّة والوحي المنزل ، وبين آرائه وأفكاره صلّى الله عليه وآله وسلّم . فكانوا يقولون : نحن نعتبر الآيات النازلة في القرآن الكريم واجبة الاتّباع ؛ أمّا آراء النبيّ فليست كذلك ، وبالنتيجة ، فإنّنا لا نلزم أنفسنا باتّباعه في آرائه وأفكاره الشخصيّة ، ولا نجعل إرادتنا تابعة لإرادته وفانية فيها . فرسول الله له رأيه . ونحن لنا رأينا أيضاً . ونقدّم رأيه حيناً ، ونقدّم آراءنا حيناً آخر .

وصفوة القول ، إنّ كلامهم ككلام كثير من العامّة إذ يقولون : كان رسول الله مجتهداً في شؤونه الشخصيّة وآرائه ، أو في تجهيز الجيوش ، وبعث الجند في غزوة أو سريّة ، أو في تنسيق وتنظيم الشؤون الإداريّة

والمدنيّة وتنظيمها ، فهو معرّض للخطأ أحياناً . والآخرون مجتهدون أيضاً يصيبون ويخطأون .

لهذا يلاحظ أنّهم كانوا يقولون له في كثير من الحالات : هل هذا كلام الله أو كلامك ؟ ! وهل هذا الأمر منك أو من الله ؟! وهل أنت قلت هذا أم الله أمرك به ؟!

والملحوظ أكثر في التواريخ المعتبرة أنّ هذا السلوك كان يبدر في الأغلب من أبي بكر ، وعمر . وفيما يلي عدد من النماذج :

الأوّل : في السنة السادسة من الهجرة ، وفي شهر ذي القعدة تحرّك رسول الله مع جماعة من أصحابة نحو مكّة قاصدين الطواف حول بيت الله الحرام . وساقوا معهم البدن للهدي . فلمّا بلغ أرض الحديبيّة ، منعه كفّار قريش من الذهاب . وعُقد بينه وبينهم صلح . وأمر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بحلق الرؤوس ، ونحر البدن ، والحلّ من الإحرام في الحديبيّة نفسها .

فعزّ ذلك على بعض الصحابة ، فلم يبدوا استعداداً للحلق والنحر ، واغتمّ رسول الله وشكى ذلك إلى أُمّ سلمة . فقالت أُمّ سلمة : يا رسول الله ! احلق وانحر ؛ فحلق رسول الله ونحر . وحلق المعترضون ونحروا شاكّين في نبوّته .

فلمّا التأم الأمر ولم يبق إلّا الكتاب وثب عمر بن الخطّاب ، فأتى أبا بكر وحدّثه بهذا الموضوع وشكى إليه عدم الدخول إلى مكّة لأداء العمرة ، والنحر والحلق في الفلاة ، وشروط الصلح التي كانت ثقيلة وصعبة على المسلمين . وقال له : ألم يكن رسول الله ، يفعل كذا وكذا ؟!

وبعد تبادل الكلام بينه وبين أبي بكر أتى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : يا رسول الله ! ألستَ برسول الله ؟

قال : بلى ! قال : أَوَ لَسنا على الحقّ ، وعدوّنا على الباطل ؟! قال : بلى !

قال : فَعَلام نعطي الدنيّة في ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله ، لن أُخالف أمَره ، ولن يضيّعني وهو ناصري .

قلتُ : أو لست كنت تحدّثنا أنّا سنأتي البيت ونطوف حقّاً ؟!

قال : بلى ! أفأخبرتك أن تأتيه العام ؟! قلتُ : لا !

قال : فانّك تأتيه وتطوف به .

يقول عمر : ما شككت مذ أسلمتُ إلّا يومئذٍ [في الحديبيّة] . (38)

الثاني : في السنة العاشرة من الهجرة ، وفي حجّة الوداع ، وقف رسول الله على جبل المروة ، ونزل عليه جبرئيل بالوحي ، فأمر الذين لم يسوقوا معهم الهدي (كالبدن مثلاً) أن يستبدلوا نيّة الحجّ بنيّة العمرة ، ويحلّوا من إحرامهم . وكان عمر من الذين اعترضوا اعتراضاً شديداً على هذا الأمر ، وقال : أَيَرُوحُ أَحَدُنَا إلَى عَرَفَةَ وَفَرْجُهُ يَقْطُرُ مَنِيّاً ؟ (39) فقال رسول الله : لن يؤمن بها حتّى يموت .

ولمّا بلغ رسول الله كلام عمر وأصحابه ، بدت عليه علامات الغضب ، حتّى جاء وخطب في الناس فقال : أَمّا بَعْدُ ؛ فَتُعَلّمُونَ أَيّهَا النّاسُ ! لأَنَا وَاللهِ أَعْلَمُكُمْ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ! وَلَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ ، مَا سُقْتُ هَدْياً وَلأَحْلَلْتُ . (40)

وعندما سألوه عن سبب غضبه ، قال : ما لي لا أغضب وأنا آمر أمراً فلا يُتّبَع ؟ أو ما شعرت أنّي أمرتُ الناس بأمرٍ فإذا هم يتردّدون ؟! (41)

لم يَرُقْ لعمر أمر الله ورسوله ، حتّى إذا تسلّم زمام الأُمور ، رفع هذا الحكم بصراحة ، وقال : ليس لأحد أن يتمتّع في الحجّ ، ومَن فعل ، أجريت عليه الحدّ . يقول عمر : أنا أُقِرّ أنّ التمتّع سُنّة رسول الله ، ولكنّي أرى أن لا يعمل به .

يقول أبو موسى [الأشعريّ] ، إنّ عُمَرَ قَالَ : هِيَ سُنّةُ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ . يَعْنِي المُتْعَةَ . وَلَكِنّي أَخْشَى أَنْ يُعَرّسُوا بِهِنّ تَحْتَ الأَرَاكِ ، ثُمّ يَرُوحُوا بِهِنّ حُجّاجاً . (42)

ولقد استعرضنا هذا الموضوع بحول الله وقوّته استعراضاً وافياً والحمد لله ، وذلك في بداية الجزء السادس من كتابنا هذا «معرفة الإمام» .

الثالث : في «الطبقات الكبرى» لابن سعد روايات كثيرة حول طلب رسول الله الكتف والدواة وهو في الاحتضار ليكتب شيئاً لأُمّته لا يضلّوا بعده أبداً ، فقال عمر ، إنّ الرّجُلَ لَيَهْجُرُ ، كَفَانَا كِتَابُ اللهِ . وكان يمانع باستمرار ، حتّى كثر اللغط بين الحاضرين عنده ، فمنهم من قال : آتوه ، وأنصار عمر قالوا : لا حاجة إلى ذلك ، إلى أن امتعض رسول الله كثيراً ، فقال : قوموا ! لا ينبغي عند نبيّ نزاع ؛ فودّع الدنيا وهو في غاية الحزن والألم .

وكان ابن عبّاس يكرّر هذا الكلام دائماً : اَلرّزِيّةُ كُلّ الرّزِيّةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ وَبَيْنَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُمْ ذَلِكَ الكِتَابَ مِنْ اخْتِلَافِهِمْ وَلَغْطِهِمْ . (43)

يقول محمّد حسنين هيكل : وَفِيمَا هُوَ فِي هَذِهِ الشّدّةِ وَفِي البَيْتِ رِجَالٌ قَالَ : هَلُمّوا أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَاباً لَا تَضِلّوا بَعْدَهُ أَبَدَاً .

قَالَ بَعْضُ الحَاضِرِينَ : إنّ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ قَدْ غَلَبَهُ الوَجَعُ ؛ وَعِنْدَكُمْ القُرْآنُ ؛ وَحَسْبُنَا كِتَابُ اللهِ ؛ وَيَذْكُرُونَ أَنّ عُمَرَ هُوَ الّذِي قَالَ هَذِهِ المَقَالَةَ . وَاخْتَلَفَ الحُضُورُ ، مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ؛ قَرّبُوا يَكْتُبْ لَكُمْ كِتَاباً لَا تَضِلّوا بَعْدَهُ ؛ مِنْهُمْ مَنْ يَأْبَى ذَلِكَ مُكْتَفِياً بِكِتَابِ اللهِ ؛ فَلَمّا رَأَى مُحَمّدٌ خُصُومَتَهُمْ قَالَ : قُومُوا ! (44)

ويقول هيكل بعد هذا الكلام مباشرة : وَمَا فَتِئَ ابنُ عَبّاسٍ بَعْدَهَا يَرَى أَنّهُمْ أَضَاعُوا شَيْئاً كَثِيراً بِأنْ لَمْ يُسَارِعُوا إلَى كِتَابَةِ مَا أَرَادَ النّبِيّ إمْلَاءَهُ .

أَمّا عُمَرُ فَظَلّ وَرَأْيَهُ ، أَنْ قَالَ اللهُ فِي كِتَابِهِ الكَرِيمِ : «مَا فَرّطْنَا فِى الْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ» . (45)

الرابع : ذكر ابن عساكر ستّ روايات جاء فيها أنّ رسول الله وأمير المؤمنين صلوات الله عليهما كانا يتناجيان فترة في يوم الطائف . ولمّا بدت الكراهيّة على وجوه بعض الصحابة (أبي بكر وعمر) بسبب طول المناجاة ، وسئل النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فيما بعد عن نجواه مع أمير المؤمنين عليه السلام قال : ما أنا انتجيته ، ولكنّ الله انتجاه .

وجاء في رواية : فَرَأَى الكَرَاهِيَةَ فِي وُجُوهِ رِجَالٍ فَقَالُوا : قَدْ أَطَالَ مُنَاجَاتَهُ مُنْذُ اليَوْمِ فَقَالَ : «مَا أَنَا انْتَجَيْتَهُ وَلَكِنّ اللهَ انْتَجَاهُ» .

وفي رواية أُخرى : فَلَحِقَ أَبُو بَكْرٍ (ظ) وَعُمَرُ فَقَالَا : طَالَتْ مُنَاجَاتُكَ عَلِيّاً يَا رَسُولَ اللهِ ! قَالَ : «مَا أَنَا أُنَاجِيهِ (كذا) وَلَكِنّ اللهَ انْتَجَاهُ» . (46)

الخامس : يقول ابن أبي الحديد : قال ابن عبّاس : خرجت مع عمر إلى الشام في إحدى خرجاته . فانفرد يوماً يسير على بعيره ، فاتّبعته ، فقال لي : يا ابن عبّاس ! أشكو إليك ابن عمّك (عليّ بن أبي طالب) سألته أن يخرج معي ، فلم يفعل .

ولم أزل أراه واجداً ، فيم تظنّ موجدته ؟!

قلتُ : يا أمير المؤمنين ! إنّك لتعلم !

قال : أظنّه لا يزال كئيباً لفوت الخلافة .

قلت : هو ذاك . إنّه يزعم أنّ رسول الله أراد الأمر له .

فقال : يا ابن عبّاس ! لو أراد رسول الله الأمر له ، فكان ماذا إذا لم يرد الله تعالى ذلك ؟! إنّ رسول الله أراد أمراً ، وأراد الله غيره ، فنفذ مراد الله ، ولم ينفذ مراد رسوله . أَوَ كلّما أراد رسول الله كان ؟!

وقد روى معنى هذا الخبر بغير هذا اللفظ ، وهو قوله : إنّ رسول الله أراد أن يذكره للأمر في مرضه ، فصددتُه عنه خوفاً من الفتنة ، وانتشار أمر الإسلام .

فعلم رسول الله ما في نفسي وأمسك ، وأبى الله إلّا إمضاء ما حتم . (47)

ويقول عبد الفتّاح عبد المقصود : قال عمر لابن عبّاس : كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوّة والخلافة ، فنظرتْ لنفسها فاختارت ، ووفّقتْ فأصابت .

فقال ابن عبّاس : أمّا قولك : إنّ قريشاً كرهت ، فإنّ الله قال لقوم [يستحقّون الهلاك لكراهتهم حكم الله] : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطُ أَعْمَالَهُمْ» . (48)

وأمّا قولك : إنّ قريشاً اختارت ، فإنّ الله يقول : وَرَبّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ . (49)

فلم يجبه عمر غير أنّه غضب عليه . (50)

ونرى هنا أنّ عمر قد خلط بين الإرادة التكوينيّة والإرادة التشريعيّة لله ، وأخطأ ؛ وجواب ابن عبّاس المفحم قد قطع عليه الطريق . وجواب عمر هذا كقول عبيد الله بن زياد للسيّدة زينب سلام الله عليها في مجلس دار الإمارة بالكوفة : الحَمْدُ لِلهِ الّذِي قَتَلَكُمْ وَأَكْذَبَ أُحْدُوثَتَكُمْ .

فقال زينب سلام الله عليها : «كَتَبَ اللهُ عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم» لاينافي ارتكابك وارتكاب يزيد للقتل من وحي الجريمة . وإرادة الله لا تمنع قبح فعلكما ؛ ولا تسلب منكما الاختيار . ويزيد أيضاً في الشام ينسب قتل أهل البيت إلى الله ، ويرى أنّ حكومته من الله .

وكثيراً ما نجد في تأريخ بني العبّاس سلاطينهم قد مُنوا بهذا الخبط ؛ فعزوا أعمالهم القبيحة إلى الله ، واعتبروا سلطتهم وحكومتهم من الله لما رأوا من وجودها بأيديهم . وأمّا عدم خلافة أئمّة أهل البيت عليهم السلام فإنّهم اعتبروا ذلك ناتجاً عن عدم التقدير الإلهيّ ، ونابعاً من عدم أحقّيّتهم .

وكم أنشد الشعراء المتملّقون من قصائد في وصف العبّاسيّين وحكومتهم الإلهيّة العادلة على حدّ زعمهم ، وذلك على امتداد خمسة قرون من الحكم العبّاسيّ ! وكم نظموا القصائد الكثيرة في مجالس الحكّام والأُمراء وأبناء الأُمراء للحطّ من شأن أهل البيت ، والتصريح بعدم أحقّيّتهم استناداً إلى عدم التقدير الإلهيّ بالنسبة لحكومتهم ، فسوّدوا بذلك وجه التأريخ .

يقول أبو شَمْط : مَرْوَانُ بْنُ أَبِي الجَنُوب : أَنشدت المتوكّل شعراً ذكرت فيه الرافضة (أئمّة الشيعة) ، فعقد لي على البحرين ، واليمامة ، وخلع عَلَيّ أربع خلع . وخلع عَلَيّ ابنه المنتصر . وأمر لي المتوكّل بثلاثة آلاف دينار من الذهب ، فَنُثِرَتْ عَلَيّ . وأمر ابنه المُنتَصِرَ وَسَعْدَاً الإيتَالِي أن يلقطاها لي ، ففعلاً .

والشعر الذي قلته :

مُلْكُ الخَلِيفَةِ جَعْفَرٍ

لِلدّينِ وَالدّنْيَا سَلَامَه

لَكُمُ تُرَاثُ مُحَمّدٍ

وَبِعَدْلِكُمْ تُنْفَى الظّلَامَه
يَرْجُوا التّرَاثَ بَنُو البَنَا
تِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا قُلَامَه
وَالصّهْرُ لَيسَ بوَارِثٍ
وَالْبِنْتُ لَا تَرِثُ الإمَامَه
مَا لِلّذِينَ تَنَحَلّوا
مِيرَاثَكُمْ إلّا النّدَامَه
أَخَذَ الوِرَاثَةَ أَهْلُهَا
فَعَلَامَ لَوْمُكُمُ عَلَامَه
لَوْ كَانَ حَقّكُمْ لَمَا
قَامَتْ عَلَى النّاسِ القِيَامَه
لَيْسَ التّرَاثُ لِغَيْرِكُمْ
لَا وَالإلَهِ وَلَا كَرَامَه
أَصْبَحْتَ بَيْنَ مُحِبّكُمْ
وَالْمُبْغِضِينَ لَكُمْ عَلَامَه (51)

يقول أَبُو الشّمْط : ثمّ نثر عَلَيّ بعد ذلك لِشِعْرٍ قلته في هذا المعنى عشرة آلاف درهم . (52)

لقد فتح عمر بهذا المنطق الخاطئ طريق المغالطة لجميع حكّام الجور الذين جاؤوا بعده ؛ فلو كان الحصول على المنصب والإمارة والولاية في الإرادة الإلهيّة التكوينيّة دليلاً على الأحقيّة والواقعيّة في الإرادة التشريعيّة ، لما كان . مِن ثَمّ . للظلم ، والقبح ، والاعتداء ، والخيانة ، والجريمة ، وأمثالها أيّ مفهوم . وكان التسلّط ونيل القدرة بأيّ ! شكل وأيّ عنوان ، دليلاً على الإرادة الإلهيّة وشاهداً على أحقّيّته .

بَيدَ أنّ عمر كان يفهم جيّداً أنّه يخلط ويغالط ، ولو كانت الطوارئ الخارجيّة والوقائع والأحداث التي تجري على أساس الاعتداء والظلم والخلاف لأمر الله ورسوله دليلاً على أحقيّة الأمر الواقعيّ الخارجيّ وحقيقته ، فلماذا اعترض عمر على رسول الله في قضيّة الحديبيّة ، وشكّ في نبوّته ؟ فكان له أن يقول : أراد رسول الله أمراً ، وأراد الله غيره . والتسليم في هذه الحالة لأمر الله . وأراد رسول الله العمرة والطواف حول بيت الله ، وأراد الله صدّ الكفّار ، والحلق ، ونحر البُدن في وسط الصحراء ، والرجوع إلى المدينة بلا عمرة .

ولا دخل لنا بهذا المنطق العُمَرِيّ ؛ فعمر كان يعرف منهجه الفكري . إلّا أنّ ما نريد معرفته هنا أنّ هذا المنطق مخالف لمنطق الإسلام ، ومعاكس لمنطق القرآن ، ومغاير لدأب رسول الله وديدنه ، ومناهض لآراء أرباب الأديان السماويّة .

وفي ضوء الآراء العمريّة ، فإنّ سَوْقَ أمير المؤمنين عليه السلام إلى المسجد حاسر الرأس ليبايع ، وكسر ضلع الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام ، وإجهاض جنينها البريء : المحسن ، وغصب فدك وهي نحلة الزهراء الصدّيقة ، كلّ ذلك إرادة الله . ولو لم يرد الله ، لما وقع . وبوجه عامّ ، فلا معنى لغصب الولاية في رأيه ، ذلك لأنّ عنوان الغصب في هذه الحالة ليس له تحقّق خارجيّ أبداً . فكلّ من تسنّم منصباً بأيّ شكل وعنوان ، فإنّه على الحقّ ، وأنّ ذلك قد جرى بإرادة الله !

وهكذا فإنّ الجرائم الواقعة في سقيفة بني ساعدة ، وسَوق الناس إلى البيعة ، في وقت كان جثمان رسول الله ملقى على الأرض لم يدفن بعد ، والأحداث التي أعقبت السقيفة خلال مدّة حُكم الخلفاء الثلاثة التي امتدّت خمساً وعشرين سنة ، ثمّ تمرّد معاوية وبغيه ، واغتيال أمير المؤمنين عليه السلام في المحراب ، والظلامات التي عانى منها الإمام الحسن عليه السلام ، والأحداث الداميّة المؤلمة في كربلاء ، والمشاهد الموجعة المتمثّلة في سبي الحوراء زينب عليها السلام على مرأى من أهل الكوفة والشام والبقاع الأُخرى و... و.. . و... قد جرى بأجمعه بإرادة الله ! ولو لم يشأ ذلك ، لم يحدث ! ولهذا فقد كان الحقّ مع الذين ارتكبوا تلك الجرائم ، وبالملازمة فقد كان الحقّ مجانباً لأُولئك المظلومين المشرّدين الذين نهشتهم السيوف من أجل إعلاء كلمة الحقّ ، والذين طووا تلك الفيافي والقفار جياعاً ظامئين على جمال بغير غطاء ولا وطاء ، تلفح وجوههم الشمس المحرقة .

ومن هنا يستبين للقارئ الكريم جيّداً أنّ منطق عمر كان الباعث على استبدال نبوّة الإسلام ورسول الله بالسلطنة والملكيّة والكسرويّة والقيصريّة ، وكان الباعث على تحكّم الأمويّين والعبّاسيّين في رقاب المسلمين طيلة ستّة قرون متوالية وبالتالي أُفول دين الإسلام المقدّس وانكدار نجم النبوّة المصحوبة بولاية الرسول الأعظم وطهارته التي انبثقت عنها طهارة أهل البيت وأئمّة الحقّ . وهو الذي جعل الحكومة الجائرة والظالمة لكسرى وقيصر تتقمّص شكل الخلافة الإسلاميّة ، ويظهر الحكّام بمظهر خلفاء المسلمين .

وما الفرق بين نظريّة عمر ونظريّة الناهبين والطامعين الدوليّين في عالم اليوم ؟ فهؤلاء يقولون أيضاً : من كانت الحكومة بيده ، فله السيادة والحقيقة والأصالة التي لا تمثّل إلّا القبض على مقاليد الأُمور .

ونظريّة عمر في الإمامة هي نفس نظريّة ماكيافيلّي الإيطاليّ ، أو بتعبير أصحّ : نظريّة ماكيافيلّي هي نظريّة عمر نفسها . فماكيافيلّي يقول أيضاً : الملاك في الشرف والأصالة والواقعيّة عند الإنسان هو القبض على مقاليد الأُمور ، ومن كانت له الحكومة ، فهو عزيز ومنصور ، وقد بلغ هدفه . ومن كان فاقداً لها ، فهو متخلّف عن قافلة الوجود ؛ وناءٍ عن موكب الظافرين الذين بلغوا الهدف .

والفارق بينهما فقط في اختلاف التعبير . فعمر يعبّر عن القدرة الفعليّة ، والاستيلاء على المنصب بأنّهما يتحقّقان عمليّاً فبالخارج بإرادة الله . أمّا ماكيافيلّي فيعبّر عن ذلك بالواقعيّة والأصالة وملاك الشرف ، ومثالها من المفردات .

ولكم أن تقارنوا بين هذا المنطق ومنطق سيّد الموحّدين ومولى المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام إذ يقول : وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيمَ السّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُ ؛ وَإنّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا ! مَا لِعَلِيّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى وَلَذّةٍ لَا تَبْقَى ؟! (53)

ومنطق عمر يضارع منطق أبي سفيان الذي كان يخال أنّ الحكومة تمثّل أُبّهة وجلالاً وعظمة من منظار هذه الدنيا وهذه النشأة . وكان ينكر الرابطة بين النبوّة والاتّصال بعالم الغيب ، والحكومة الإلهيّة الحقّة . وبعبارة أُخرى ، كان يقول : إنّ ما قاله محمّد عن هذه الدنيا وحكومتها وإمارتها يتعلّق بشؤون هذه الدنيا . والحكومة ؛ والسلطنة ، فلا خبر من عالم الغيب . ولا معنى للارتباط به ، ولا معنى لخضوع هذا العالم لأحكام ذلك العالم .

ولم يستطع أبو سفيان أن يتصوّر معنى الشهامة والتضحية والجهاد والإيثار لله والحقيقة وبلا أيّ توجّه ماديّ ؟ ولم يستطع أن يتصوّر أنّ جنود الإسلام الذين يضربون بسيوفهم ليس لهم هدف ماديّ ، ولا طموح إلى الرئاسة والحكومة على الناس ، فعملهم للهِ وفِي اللهِ .

والطابور العظيم من المنافقين . سواءً الذين أسلموا في فتح مكّة ، أو الذين بهرتهم عظمة الإسلام فلم يجدوا بدّاً من أن يظهروا إسلامهم . يتألّف من أمثال هؤلاء الأشخاص .

وكان المنافقون جماعة كثيرة تعدّ من الصحابة . أسلموا في الظاهر وشهدوا بوحدانيّة ورسالة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إلّا أنّ قلوبهم لم تسلم ولم تؤمن ، وكانوا ينظرون إلى الإسلام في باطنهم كحكومة قوميّة أو إمارة دنيويّة .

ولمّا تسلّم عثمان مقاليد الأُمور ، دخل أبو سفيان إلى مجلسه فقال :

يَا بَنِي أُمَيّةَ ! تَلَقّفُوهَا تَلَقّفَ الكُرَةِ ! وَالّذِي يَحْلِفُ بِهِ أَبُو سُفْيَانَ : مَازِلْتُ أَرْجُوهَا لَكُمْ ، وَلَتَصِيرَنّ إلَى صِبْيَانِكُمْ وِرَاثَةً !

وَقَالَ لِعُثْمَانَ : أَدِرْهَا كَالكُرَةِ ! وَاجْعَلْ أَوْتَادَهَا بَنِي أُمَيّةَ ! فَإنّمَا هُوَ المُلْكُ ؛ وَلَا أَدْرِي مَا مِنْ جَنّةٍ وَلَا نَارٍ ! وَأَتَى قَبْرَ حَمْزَةَ سَيّدِ الشّهَدَاءِ عَلَيهِ السّلَامُ فَرَكَلَهُ بِرِجْلِهِ ، ثُمّ قَالَ : يَا حَمْزَةُ ! إنّ الأَمْرَ الّذِي كُنْتَ تُقَاتِلُنَا عَلَيهِ بِالأَمْسِ قَدْ مَلَكْنَاهُ اليَوْمَ وَكُنّا أَحَقّ بِهِ مِنْ تَيْمٍ وَعَدِيّ ! (54) و (55)

نستنتج ممّا ذكرناه في هذه المقدّمة إلى أيّ مدى كان المسلمون متفاوتين في عصر الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله ؛ وفي مستويات مختلفة من حيث الجنوح القلبيّ والإيمان الحقيقيّ . وكان رسول الله في نبوّته يواجه هؤلاء الأشخاص المتفاوتين ذوي الاتّجاهات الفكريّة المتضاربة . وكم كانت الحياة مع هؤلاء شاقّة وصعبة بكلّ ما كان فيها من مجاراة واتّصال ومعاشرة وأُنس وتردّد وعلاقات مع الكثيرين منهم .

المقدّمة الثالثة : إنّ جميع الأنبياء والمرسلين الذين بعثهم الله ، وكافّة الأئمّة المعصومين سلام الله عليهم أجمعين وجميع المعصومين والمطهّرين من أولياء الله المقرّبين هم كسائر الناس مكلّفون ومتأدّبون بتأديب إلهيّ .

وينبغي لهم أن يجسّدوا عمليّاً كافّة الاستعدادات والقوى الفطريّة المودعة فيهم الواحدة بعد الأُخرى بقدم المجاهدة والاستقامة على الطريق ، وتقديم رضا الله على رضا النفس ، والصبر وتحمّل الأذى في طريق الوصول إلى المطلوب سبحانه تعالى . وبهمّة عالية وعزم وطيد وإرادة صلبة لا تلين . وأن يقطعوا المنازل والمراحل المقرّرة في طريق القرب ، ولقاء الذات الأحديّة ، والفناء في ذاته المقدّسة ، والبقاء بالله بعد حصول مقام الفناء ، ويطووا هذا الطريق باختيارهم وإرادتهم .

إنّ الاختيار الربّانيّ ، والارتضاء والاصطفاء والاجتباء في عوالم الغيب وعالم الذرّ والمثال وفي العوالم النوريّة والمجرّدة والبسيطة في بدء الخليقة لا يؤدّي إلى سلب اختيارهم وإرادتهم ، بل يؤيّد ويسدّد ويدعم الاختيار والإرادة .

ذلك لأنّ الله شاء أن يبعث هؤلاء الأشخاص المطهّرين والمصطفين لتبليغ رسالته وهداية عباده ، وهم يقطعون هذا الطريق ويسيرون في هذا الاتّجاه باختيارهم وقبولهم عبر حبّهم لمعبودهم . فكيف يمكن . والحال هذه . أن نتصوّر أنّهم يؤدّون ما عليهم من تكليف مكرهين بعصمة اضطراريّة وجبريّة بإرادة الله ، وليس ذلك إلّا خُلفاً ، والخُلف يستلزم تغيير الإرادة الإلهيّة ، وهو محال .

ولقد شاء الله أن يقوموا بالأعمال الصالحة الطاهرة من وحي اختيارهم ، ويجتنبوا المعاصي والمحرّمات من وحي اختيارهم أيضاً . فلو كانت إرادة الله سبباً في سلب اختيارهم ، وكانت طهارتهم وعصمتهم بشكل إجباريّ وقسريّ ، فإنّ ذلك يستدعي تخلّف الإرادة عن المراد ، وهو محال .

فالأنبياء والمرسلون . إذاً . مختارون كسائر الناس ، وينتهجون طريقهم بإرادتهم واختيارهم . ويقومون بطائفة من الأعمال ، ويتركون طائفة أُخرى .

لذلك ما برحوا يبلغون بقواهم واستعداداتهم تدريجيّاً إلى مقام الفعليّة ؛ ثمّ يبلغون بتلك الفعليّة (التي هي القوّة والاستعداد بالقياس إلى الدرجة العليا) ، إثر الإرادة والاختيار وقبول أمر الله إلى فعليّة أعلى ودرجة أسمس وهكذا يواصلون طريقهم باستمرار وتدريجيّاً فيبلغون بكلّ قوّة من القوى المودعة فيهم إلى الكمال النسبيّ ، ثمّ إلى الكمال المطلق ، حتّى يصل وجودهم إلى الكمال المطلق ، فيظفروا بمقام الإنسان الكامل .

وهذه المناصب والدرجات جاءت من الطريق الذي انتهجوه باختيارهم ، ومن المقام الذي بلغوه بطوعهم ورغبتهم وإرادتهم ورضاهم .

وبلغ إبراهيم الخليل عليه السلام مقام الإمامة الذي منّ الله به عليه ، وذلك بعد حيازة مقام النبوّة ، وتحطيم الأصنام في معبد الأصنام ببابل ، وإلقائه في النار ، ومعارضته للنمرود والنمروديّين ، وإبعاده من بابل إلى فلسطين ، واضطلاعه بأعباء النبوّة في تلك الربوع ، وبعد أن تعرّض إلى امتحانات وابتلاءات عديدة وبسبب صبره وتحمّله مع زوجته سارة بلا ولد يؤنسهما ، ثمّ منّ الله عليه بالولد ، وبعد بناء الكعبة مع نجله البارّ إسماعيل ، وتَرك زوجته هاجر وولده إسماعيل وحيدين في أرض مكّة الحارّة الكأداء القفر غير ذات زرع ، وبعد البلاء الذي مرّ به متمثّلاً بأمره بذبح ولده الرشيد إسماعيل مَعْلَم التوحيد ، وإقامة إسماعيل في منحر المحبوب . وصفوة القول بعد أربعة وعشرين اختباراً نجح في اجتيازها . وكان صلوات الله عليه في سنّ الشيخوخة والهرم إذ كان شعره الأبيض يتدلّى من رأسه ووجهه . قال عزّ من قائل :

وَإِذِ ابْتَلَى إبر هِيمَ رَبّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمّهُنّ قَالَ إِنّى جَاعِلُكَ لِلنّاسِ إِمَامًا . (56)

وبلغ موسى عليه السلام مقام الكمال ، وأصبح من أنبياء أُولي العزم ، ومن أصحاب الشريعة والكتاب بعد اختبارات عسيرة شاقّة في الدعوة مع الأسباط في مقابل الأقباط ، ومواجهة فرعون مصر ، والنزوح إلى فلسطين ، وقضاء الأسباط أربعين سنة في التيه ، والذهاب إلى جبل الطور جائعاً ظامئاً أربعين ليلة لمناجاة الله ، وتحمّل آثار العظمة والجلال الإلهيّ .

وكان الرسول الأكرم محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وحيداً غريباً في مكّة أربعين سنة بحيث إنّه كان مرغماً على ترك بيت الله الحرام . مع أنّه كان من أهل مكّة مجاوراً لبيت الله . للاختلاء مع الله في جبل النور في غَارِ حرَاء . ذلك الغار الذي كان على سفح الجبل . وكان الذهاب إلى ذلك المكان شاقّاً وخطيراً جدّاً . وكان يقيم في ذلك الغار وحده أيّاماً أو أُسبوعاً أو أُسبوعين أو أكثر .

ولا يخامرنا الشكّ . طبعاً . أنّ جوهرة وجود أُولئك الرجال العظام تتفوّق وتمتاز عن الآخرين ، كما أنّ الناس العاديّين يتباينون في الخلق من حيث الصفات والغرائز والملكات . وكذلك يتباينون من حيث الجهات الطبيعيّة كالطول والحجم واللون والشمائل المتنوّعة . إلّا أنّ هذا التباين لا يجعلهم في صفّ مستقلّ متميّز من حيث التكليف والعصمة الاختياريّة . فالجميع ينبغي أن يكدحوا إلى الكمال ، ويبلغوا غايتهم المنشودة ، وذلك بطاعة أمر الله ، وقبول التوحيد ، وبالمجاهدة والكدّ والسعي في طيّ الطريق إلى الله .

النّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الذّهَبِ وَالفِضّةِ . (57)

فالناس كالمعادن مختلفون في الغرائز والصفات ، والتألّق واللمعان ، واختلاف الدرجات والاستعدادات . وكما أنّ المعادن فيها النحاس ، والحديد ، والذهب ، والفضّة ، والألماس ، وهي تختلف فيما بينها ، فكذلك أصناف الناس تختلف فيما بينها في الصفات والغرائز والملكات . إلّا أنّ النكتة هنا هي كما أنّ كلّ معدن ينبغي

أن يستخرج ، ويؤخذ إلى الفرن ، ويتحمّل النار ، ويذوب ، ويفصل الغشّ من الخالص . وكما أنّ الألماس ينبغي أن يبري أيضاً على يد الخرّاط ليستفاد منه بما فيه من قابليّة ، فكذلك طبقات الناس وأصنافهم ينبغي لها المجاهدة والتسليم لأمر الله لتتحرّر من العُجب وهوى النفس ، وتظفر برؤية الله ولقائه .

وكلّ فرد من الناس مكلّف بإكمال القابليّة التي عنده والاستعداد المودع فيه ، والبلوغ بهما إلى مقام الفعل لا أن يصيّر نفسه كالآخرين . والأنبياء مكلّفون أن يطهّروا جوهرتهم الذاتيّة ؛ والأئمّة مكلّفون أن يبلغوا مقام الولاية المطلقة في التعاليم الإلهيّة في مقام الخلوص والإخلاص ؛ وأولياء الله مكلّفون أن ينيروا سريرتهم الذاتيّة ، ويجتازوا الحجب النورانيّة ؛ والناس العاديّون مكلّفون أيضاً أن يطهّروا سريرتهم الذاتيّة مهما كان الأمر ، ويبعدوا عنها كلّ غشّ وغلّ ، ويخرجوا من هوى النفس ، ويظفروا بمقام رضا المحبوب ، وهو الربّ المعبود . ولم يكلّف أحد أن يصير كالآخرين . وفي يوم القيامة لا يسألون الشمر : لماذا لم تكن كسيّد الشّهداء ؟! لماذا لم تكن إماماً ؟! بل يؤاخذونه قائلين : لماذا ذبحتَ الإمام طواعية ؟!

ولا يسألون سلمان الفارسيّ : لماذا لم تكن كأمير المؤمنين ؟! بل يسألونه : هل استخدمت جميع القابليّات والقوى التي أودعها الله فيك على طريق رضا الله أو لا !

ولا يسألون أبا ذرّ الغفاريّ : لماذا لم تكن كسلمان الفارسيّ ؟! بل يسألونه : هل اكتملتَ يا أباذر أو لا ؟!

فعلى هذا نرى أنّ العصمة والطهارة الموجودتين في الأنبياء ، المودعتين فيهم بإرادة الله ، لا تستلزمان العصمة القهريّة والطهارة القسريّة ، بل هما منافيتان لذلك ، ويمكن أن نعتبر العصمة والطهارة الاختياريّتين معلولتين للنفس الشريفة التي يحملها المطيع ، ومُسبّبتين عن الملكات الحميدة التي يتّصف بها أُولئك العظماء بواسطة السجايا المباركة الناتجة عن أعمالهم الصالحة .

والروايات المأثورة التي تنبئنا أنّ الله خلقهم قبل آدم أو قبل خلق العوالم الأُخرى بألفي سنة ، أو سبعة آلاف سنة ، أو سبعين ألف سنة لا تعني السبق الزمنيّ ، بل تعني السبق الرّتبي والعِلّيّ في العوالم المجرّدة ؛ والقصد من طول المدّة سعة العوالم النوريّة والمجرّدة بالنسبة إلى عوالم الطبع والطبيعة .

ونفهم من هذا العرض أنّ الأنبياء كغيرهم من الناس لهم غرائز وصفات واختيار وشؤون معنويّة وحسّيّة ومادّيّة أُخرى ، وهم بشر بكلّ ما للكلمة من معنى . ويتمتّعون بغريزة العفّة والحياء ، ويتّصفون بالهيبة والخشية ، ويفرحون ويحزنون ، ويضحكون ويبكون ولهم جسم مادّيّ ، فهم يأكلون ، ويجوعون ، ويعطشون ، ويرتوون ويشبعون ، وفيهم غريزة النكاح وحبّ الجنس .

كما أنّهم يشعرون بالألم ، وبالفراق والهجران . وكذلك يشعرون بالسرور . غاية الأمر أنّهم اختدموا هذه الأعمال كلّها ، وهذه الصفات والغرائز ، وهذه المشاعر في طريق رضا الله معبودهم الحقّ ، وما رسوها ابْتِغَآءَ لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ .

ولم يُستثنَ رسول الله نبيّنا الكريم : خاتم الأنبياء والمرسلين من هذه القاعدة ، بل كان كغيره من الأنبياء ذا صفات بشريّة . وكان حريصاً على تبليغ الأحكام . وكان يرهق نفسه ويتعبها في السعي لتبليغ القرآن الكريم وإرشاد الناس وهدايتهم . وكانت نفسه تذهب حسرات على فتور الكفّار وإعراضهم وصدّهم وعدم اهتمامهم . ولقد بالغ في الجهد لبيان الآيات الإلهيّة واهتمّ اهتماماً مركّزاً لإيصال نداء القرآن الكريم . وكم كان يغضبه ما يواجهه من انتهاكات كانت تصدر في بعض الأحيان إلى الحدّ الذي كان وجهه المبارك يحمرّ وأوداجه تنتفخ . وكان يستحيي أشدّ الاستحياء في مواضع الحياء والخجل حتّى سمّوه : الحَيّي . وجاء في القرآن الكريم أنّه كان يشقّ على نفسه كثيراً في إيصال الأحكام . قال جلّ من قائل : طَهَ * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَى . (58) وقال :

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ انفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنينَ رؤُوفٌ رَحِيمٌ . (59) وقال :

فَلَعَلّكَ بَاخِعٌ نَفسَكَ عَلَى ءَاثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفَاً . (60)

وورد عن حيائه صلّى الله عليه وآله وسلّم : إِنّ ذَ لِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النّبِىّ فَيَسْتَحْيِى مِنكُمْ . (61)

وجاء حول تصديقه كلام الناس إذ كلّما كانوا يطرحونه من كلام لا يردّه إلى أن قالوا : محمّد أُذُن فقط ، يصدّق كلّ ما يقولون ؛ يسمع كلاماً متناقضاً فلا يردّه ولا يجادل ولا يناقش ولا يعترض : ومِنْهُمُ الّذِينَ يُؤْذُونَ النّبِىّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ . (62)

وحول زواج زينب ابنة عمّته التي طلّقها ابنه بالتبنّيّ : زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ وكان هذا العمل مستقبحاً عند العرب إلى درجة أنّهم كانوا يعتبرونه في حكم الزواج من زوجة الولد الحقيقيّ ، فقد كُلّف النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بتحطيم هذه السنّة الجاهليّة ، وهو أوّل من قام بهذا العمل مع أنّه كان يخشى ذلك حتّى نزل قوله تعالى:

وَتَخْشَى النّاسَ وَاللهُ أَحَقّ أَنْ تَخْشَاهُ . (63)

(63)

وورد بشأن لزوم رسالات الله وعدم تغييرها قوله:

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * وَمَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ . (64)

وبعد أن استبانت لنا هذه المقدّمات ، نقول حول الإعلان العامّ عن ولاية مولى الموحّدين وأمير المؤمنين عليه السلام أنّ النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم كان حذراً خائفاً ، وذلك لما عرفناه من الحالة العامّة للصحابة والمعارضين إجمالاً . كان رسول الله خائفاً من عواقب إعلانه عن ولاية الإمام عليه السلام ؟

ولم يخف نبيّنا الأكرم على نفسه من القتل ، أو الرمي من شاهق ، أو سقيه السمّ ؛ ذلك لأنّه كان لا يرى لنفسه أيّ قيمة أمام أمر الله ، إذ سلّم أمره لله كاملاً ونذر نفسه الشريفة لله كأسهل ما يكون بكلّ إخلاص ، بل كان خائفاً من تمرّد الناس ؛ من أن يعمد المعارضون الذين كانوا من الشخصيّات الاجتماعيّة المتنفّذة لهم مكانتهم المرموقة بين الناس ويعرفون كيف يحرّكونهم وقد ملكوا قلوبهم ودخلوا في نفوسهم إلى إنكار النبوّة دفعةً واحدة وإلى الارتداد عن الإسلام ، ويعلنون للناس أنّ هذه الخطوة التي أقدم عليها النبيّ العظيم تترجم حبّه للجاه والرئاسة . وأنّ النبوّة حكومة مادّيّة ورئاسة ظاهريّة ، ويقولون للناس : ها هو يودّع الحياة جاعلاً الرئاسة والإمامة لصهره وابن عمّه . إذ ليس للنبيّ ولد يرثه ، والصهر عند انتفاء الولد في حكم الولد والوارث . وها هو قد فوّض الرئاسة التي هي في حكم التاج والعرش إلى زوج ابنته .

ولو كانوا قد فعلوا ذلك ، وعارضوا في ذلك المجلس العلنيّ ، وتجاوزوا حدودهم بالامتهان والتمرّد وإثارة الفتن ، فما الذي كان سيحدث ؟ إنّ النبوّة والجهود الشاقّة التي بذلها النبيّ خلال ثلاث وعشرين سنة كانت ستذهب سدىً وتضيع ولا يبقى منها شيء وسيشعر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بالخجل والمسؤوليّة في مقابل العهد الذي قطعه لربّه أن يضطلع بعبء النبوّة مع جميع ما يكتنفها من مشاكل ومصاعب ، لذلك كان النبيّ ينتظر الفرصة المناسبة والوقت الملائم ، ويقوّي الأرضيّة ويمهّد الأجواء أكثر فأكثر . وعلى الرغم من أنّ جبريل الأمين قد هبط وأمره بتبليغ ولاية ابن عمّه للناس ، غير أنّه لم يحدّد وقتاً للتبليغ . ومع كافّة تلك الخصوصيّات والكيفيّات والسفر العظيم المتمثّل بحجّة الوداع التي كان أساسها لتعليم مناسك الحجّ ، وبالأخص للإعلان عن الولاية العامّة ، كان النبيّ يعمل دائباً وباستمرار لإعداد الأرضيّة المناسبة ويخطّط لها .

فكتب إلى أمير المومنين عليه السلام وكان قد أرسله إلى اليمن أن يرجع إلى مكّة ومعه جزية أهل نجران . والتقيا في مكّة ؛ وأصبحا شريكين في الحجّ ، ونحرا مائة من البُدن في منى . وكان الفخر في المشاركة في الحجّ من نصيب مولى الموالي فحسب . وقد ثقل ذلك على البعض ؛ بخاصّة أُولئك الذين رفعوا عقيرتهم بالاعتراض في العمرة وحجّ التمتّع . فأرهقوا النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وأغضبوه وأزعجوه كثيراً .

وخطب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في مكّة وعرفات ومنى خمس خطب . وكلّما أراد أن يعلن للملأ بصراحة عن ولاية أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عملاً بتعليمات جبرئيل في هذا الصدد . وشعوراً بالمسؤوليّة حيال عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، لم يجد الفرصة مؤاتية لذلك . فلهذا كان يوصي بعترته وأهل بيته في تلك الخطب .

فهذه درجة متقدّمة ، إذ تمهّد الأرضيّة للإعلان والتعريف الشخصيّ ؛ وحتّى أنّنا نجد النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في آخر خطبة خطبها بمنى يوصى بكتاب الله وعدم افتراقه عن العترة الطاهرة من أهل بيت النبوّة . وأنّهما متلازمان متلاصقان لا يفترقان ؛ وأنّهما مترافقان إلى قيام الساعة حتّى يردان على رسول الله الحوض في تلك العرصات . وأنّهما معاً يضمنان سعادة الإنسان دوماً وأبداً .

ثمّ خرج النبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم من مكّة يوم الأربعاء الرابع عشر من ذي الحجّة . وتوجّه إلى المدينة مع تلك المواكب والمحامل ، وفي غد ذلك اليوم وقبل يوم الغدير بثلاثة أيّام نزل جبرئيل بقوله عزّ من قائل : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبّكَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رَسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ إِنّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَفِرِينَ . (65)

نزلت الآية المذكورة بهذه الشدّة والتهديد بأنّه لا يوجد وقت للتفكير بالمصلحة وإعداد الأرضيّة ؛ إذ ينقضي الوقت وتمرّ الفرصة مرّ السحاب ؛ والله جلّ شأنه هو المتكفّل لحفظ الإسلام وصيانته من تلاعب الكفّار ، وهو الذي يحول بينهم وبين مآربهم .

إنّ الولاية على درجة من الأهميّة بحيث جعلت مكافئة للنبوّة وفي منزلتها وإذا ما فرّطتَ في الإعلان عنها ، فإنّك لم تضطلع بأعباء الرسالة .

ولابدّ أن يُقَدّمَ عَلِيّ عليه السلام إلى الملأ ، ويُعَرّف لهم في مجلس واحد يشهده الجميع ، فهو حافظ دينك ورسالتك بعدك ! وهو الذي نُصِبَ خَليفة ووارثاً ووليّاً بعدك منذ اليوم الأوّل الذي تألّق فيه فجر الدعوة ، وذلك في مجلس العشيرة ، ووفقاً لآية الإنذار وحديث العشيرة ! وهو الذي رافقك خطوة خطوة في كلّ سنة وشهر ويوم وساعة ، وواساك في السرّاء والضرّاء ، وكشف الكرب والغمّ والحزن عن وجهك المنير في الغزوات والسرايا بسيفه البتّار ! وهو بحر العلم ويمّ المعرفة الخضمّ الموّاج ، العلم الذي ارتشفه منك متّبعاً أثرك متتلمذاً على يديك ، وقد تعلّم في كلّ يوم باباً من العلم كان يفتح منه ألف باب ! وهو الذي بات في فراشك ليلة الهجرة ، وعرّض نفسه للبلاء مضحيّاً بها في سبيلك ، وجلس جبريل وميكال عنده حتّى الصباح ، وباهى الله به ذينك المَلَكين المقرّبين !

تحرّك النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم حتّى إذا قارب الجُحْفَة . حيث ينفصل طريق المدينة عن الشام والعراق ، وحيث النقطة الأخيرة التي تتلاقى فيها قوافل الحجّ ، ومنها يفترقون . حطّ رحاله في وادي غدير خُمّ . وأمر جميع الحجّاج أن يجتمعوا ، فهذا هو المكان الذي ينصّب فيه أمير المؤمنين عليه السلام .

وجاء في بعض الروايات والتفاسير أنّ قوله : بَلّغْ ... نزل في هذا المكان ؛ وعندئذٍ نزل النبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم وأصدر أوامره المباركة باجتماع الحجيج .

وللمرحوم آية الله الشيخ محمّد حسين الإصفهانيّ رضوان الله عليه قصيدة مخمّسة في هذا المجال ، نذكر عدة فقرات منها فيما يلي :

صبا به شهريار من بشيروار مىرسد
چه بلبلان خوشنواز لالهزار مىرسد
بيا تو اى صبا كه از تو بوى يار مىرسد
نويد وصل يار من زِهَر كنار مىرسد
خوش آن دمى كه بينمش نشسته در كنار من (66)

صبا درود بيكران بحيث يَمْلَأُ الْفَضَا
بكن نثار آستانه عليّ مرتضى
وليّ كارخانه قدر مُهَيمِن قضا
محيط معرفت ، مدار حلم ومركز رضا
كه كعبه درش بود مَطاف ومُستجار من (67)

به مشهد شهود او تجلّيات ذات بين
ز بود حقّ نمود او حقائق صفات بين
زنسخه وجود او حروف عاليات بين
مُفَصّل از حدود او تمام مجملات بين
مُنَزّه است از حدود اگر چه آن نگار من (68)
مؤسّس مبانى ومؤصّل أُصول شد
مصوّر معانى ومفصّل فصول شد
حقيقة المثانى ومكمّل عقول شد
به رتبه حقّ ثانى وخليفه رسول شد
خلافت از نخست شد به نام شهريار من (69)
بود غدير قطرهاى ز قُلزُم مناقبش
فروغ مهر ذرهاى ز نور نجم ثاقبش
نعيم خُلد بهرهاى ز سفره مواهبش
اگر مرا به نظرهاى كشد دَمى به جانبش
به فرق فَرْقَدان رسد كلاه افتخار من (70)
چه نسبت است با هُما بهائهم ووحوش را
به بيخرد مكن قرين خداى عقل وهوش را
به دُرد نوش خود فروش پير مىفروش را
اگر موحّدى بشو ز لوح دل نقوش را
كه مُلك دل نمىسزد مگر به راز دار من (71)
ولايتش كه در غدير شد فريضه أَمَم
حديثى از قديم بود ثبت دفتر قِدَم
كه زد قلم به لوح قلب سيّد أُمَم رَقَم
مكمّل شريعت آمد ومُتمّم نِعَم
شد اختيار دين به دست صاحب اختيار من (72)
به أمر حقّ أمير عشق ، شد وزير عقل كل
أبوالفتوح گشت جانشين خاتم رسل
رسيد راية الهُدى به دست هادى سبل
كه لطف طاعتش بود نعيم دائم الأُكُل
جَحيمْ شعلهاى ز قهر آن بزرگوار من (73)
به مَحفلى كه شَمْع جمع بود شاهد ازل
گرفت دست ساقى شراب عشق لم يزل
مُعَرّف وَلايتش شد ومُعيّن مَحلّ
كه اوست جانشين من وليّ أمر عقد وحل

به دست او بود زمام شرع پايدار من (74)

رقيب او كه از نخست داد دست بندگى

در آخر از غدير او نخورد آب زندگى

كسيكه خوى او بود چه خوك وسگ درندگى

چه مار وكژدم گزنده طبع وى زنندگى

همان كند كه كرد با امير شه شكار من (75) و (76)

وينبغي أن نعلم أنّ التنصيب في مقام الإمامة والخلافة ليس شأناً من الشؤون الظاهريّة للإمام بحيث يبعث على الراحة والسعة والتمتّع بمقام يبتهج به ، ويحتفي به فرحاً مسروراً . بل هو يستلزم الاضطلاع بالمسؤوليّة والالتزام حيال القيام بما يلزم ، وأداء المهمّة على أحسن وجه . فما أصعب هذا الأمر وأبهظه وأشقّه ! وأيّ ! مضاعفات ستعقبه ! ولابدّ من اجتيازها كلّها بصبر واتّئاد وسكينة ومن جملتها السكوت وعدم القيام بالسيف عملاً بوصيّة الرسول الأعظم عند مبادرتهم لغصب الحقّ ، وفقدان الناصر والمعين .

إنّ النصب في مقام الولاية يمثّل في الحقيقة نصباً في مقام الحلم والتحمّل والرزانة في جميع تلك الوقائع والأحداث . ونصباً في مقام الصبر والحلم والأناة حيال كافّة الأحداث التي ستتوالى على صاحب الولاية ومقام الولاية حتّى يوم القيامة . ويجسّد ذلك النصب إعلاناً عن الصمود والاستقامة أمام الأحداث التي سيفتعلها الشيطان والنفس الأمّارة التي يحملها ذوو التوجّهات المريضة من الجهلة الذين لا علم لهم ، ويضعها أُولئك حجر عثرة في طريق الولاية كلّ يوم وزمان ، وعقبة تحول دون الوصول إلى ساحة الحضور .

فما أصعب يوم الغدير على أمير المومنين ! وما أشقّه من ميعاد ! وما أثقله من لقاء مضنٍ مرهق ! وما أعظمه من يوم زاخر بالهيبة والجلال !

ولا يتصوّر أحد أنّه يوم السرور والاغتباط من منظور الشؤون الدنيويّة ، بل الأمر على عكس ذلك .

كما أنّ يوم المبعث النبويّ في غار حَراءْ كان أوّل يوم للنزول في عالم الاثرة ، والاضطلاع بعمل من شأنه الاصطدام بشخصيّات متحجّرة من أمثال أبي جهل ، وأبي لهب ، وأبي سفيان . وهو يوم تحمّل المصائب والشدائد لتبليغ رسالات الله ، والامتثال للأمر السماويّ القاضي بتحطيم أصنام الجاهليّة ، وتهذيب النفوس وتزكيتها ؛ ومداراة ومسايرة عالم من أفكار الجهلة الذي يختلقون أعظم المصائب من وحي جهلهم ، ويفرضونها على رسول الله .

فلهذا أخذت رسول الله الرجفة ؛ ولمّا جاء إلى بيته ، سقط على الأرض من شدّة الهيبة وعظمة هذا الأمر ، وادّثّر في زاوية من الغرفة فنزل عليه جبريل وهو يتلو عليه قوله تعالى : قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ بعد قوله : يَأَيُّهَا الْمُدّثِّرْ ؛ وقوله : قُمِ الّيلَ إِلّا قَلِيلًا بعد قوله : يَأَيّهَا الْمُزّمّلْ .

وكان النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم يعلم ماذا ستجرّه ولاية الأمر هذه من ويلات على أمير المؤمنين . من ضربٍ وشتمٍ وقتلٍ وأسرٍ لأبنائه الطاهرين . وكان يرى ذلك أمامه كالمرآة ويوطّن نفسه الشريفة على جميع البلاءات لمرضاة الودود جلّ وعزّ ، ويتلقّى الأمر بالعمل بقوله تعالى : بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ بالطاعة والتسليم متفاعلاً معه بروحه وقلبه . ويقبل ذلك الإمام عليّ أيضاً بروحه وقلبه ، ويرحّب به بنفس منشرحة وصدر رحب ؛ ويلبّي دعوة الحقّ ؛ ويذوب فيه طاعة وتسليماً بكل وجوده .

روى الحافظ أبو نُعَيم الإصفهانيّ ! بسنده المتّصل عن أبي بَرزة قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : إنّ اللهَ تَعَالَى : عَهِدَ إِلَيّ عَهْدَاً فِي عَلِيّ ، فَقُلْتُ : يَا رَبّ بَيّنْهُ لِي !

فَقَالَ : اسْمَعْ ! فَقُلْتُ : سَمِعْتُ !

فَقَالَ : إنّ عَلِيّاً رَأْيَةُ الهُدَى ؛ وَإِمَامُ أَوْلِيَائِي ؛ وَنُورُ مَنْ أَطَاعَنِي ؛ وَهُوَ الكَلِمَةُ الّتِي أَلْزَمْتُهَا المُتّقِينَ ؛ مَنْ أَحَبّهُ أَحَبّنِي ؛ وَمَنْ أَبْغَضَهُ أَبْغَضَنِي ؛ فَبَشّرْهُ بِذَلِكَ ! فَجَاءَ عَلِيّ فَبَشّرْتُهُ .

فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ! أَنَا عَبْدُ اللهِ ؛ وَفِي قَبْضَتِهِ فَإِنْ يُعَذّبْنِي فَبِذَنْبِي ؛ وَإِنْ يُتَمّ لِي الّذي بَشّرْتَنِي بِهِ ؛ فَاللهُ أَوْلَى بِي !

قَالَ : قُلْتُ : اللّهُمّ اجْلُ قَلْبَهُ ! وَاجْعَلْ رَبِيعَهُ الإِيمَانَ !

فَقَالَ اللهُ : قَدْ فَعَلْتُ بِهِ ذَلِكَ ! ثُمّ إِنّهُ رَفَعَ إِلَيّ أَنّهُ سَيَخُصّهُ مِنَ البَلَاءِ بِشَيءٍ لَمْ يَخُصّ بِهِ أَحَداً مِنْ أَصْحَابِي .

فَقُلْتُ : يَا رَبّ أَخِي وَصَاحِبِي !

فَقَالَ : إِنّ هَذَا شَيْءٌ قَدْ سَبَقَ ؛ إِنّهُ مُبْتَلَىً وَمُبْتَلَىً بِهِ . (77)

وذكر إبراهيم بن محمّد بن مؤيّد الحمّوئيّ بسنده المتّصل عن عليّ بن أبي طالب قال : كنت أمشي مع النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم في بعض طرق المدينة ، فأتينا على حديقة !

فقلتُ : يا رسول الله ! ما أحسن هذه الحديقة !

فقال : [رسول الله] : ما أحسنها ؟! ولك يا عليّ في الجنّة أحسن منها !

ثمّ أتينا على حديقة أُخرى ، فقلتُ : يا رسول الله ! ما أحسن هذه الحديقة !

فقال [رسول الله] : ما أحسنها ! ولك يا عليّ في الجنّة أحسن منها ! ثمّ أتينا على حديقة أُخرى ، فقلت : يا رسول الله ، ما أحسنها من حديقة !

فقال رسول الله : لك في الجنّة أحسن منها !

قال : فمشينا حتّى أتينا على سبع حدائق ، وكلّما مررنا بحديقة منها ، كنت أقول : يا رسول الله ! ما أحسنها ! فيقول : لك في الجنّة أحسن منها !

فَلَمّا خَلَا لَهُ الطّرِيقُ اعْتَنَقَنِي وَأَجْهَشَ بَاكِياً ! فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ! مَا يُبْكِيكَ ؟

قَالَ : ضَغَائِنُ فِي صُدُورِ أَقْوَامٍ لَايُبْدُنَهَا لَكَ إِلّا بَعْدِي !

فَقُلْتُ : فِي سَلَامَةٍ مِنْ دِينِي ؟! قَالَ : فِي سَلَامَةٍ مِنْ دِينِكَ . (78)

وروى موفّق بن أحمد أيضاً عن أبي سعيد الخدريّ قال : أخبر رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم عليّاً بما يلقى إليه من أعدائه من المقاتلة : فَبَكَى عَلِيّ وَقَالَ : أَسْأَلُكَ يَا رَسُولَ اللهِ بِحَقّ قَرَابَتِي وَبِحَقّ صُحْبَتِي أَنْ تَدْعُو اللهَ أَنْ يَقْبِضَنِي إِلَيْهِ ! فَقَالَ : يَا عَلِيّ ! أَنَا أَدْعُو اللهَ لَكَ لِأَجَلٍ مُؤَجّلٍ ! فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ! عَلَى مَا أُقَاتِلُ الْقَوْمَ ؟ ! قَالَ عَلَى الإِحْدَاثِ فِي الدّينِ . (79)

وأخرج موفّق بن أحمد الخوارزميّ بسنده عن أبي ليلى ، عن أبيه ، قال : أعطى النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم الراية يوم خيبر إلى عليّ ، ففتح الله عليه ؛ وفي يوم غدير خُمّ أعلم الناس أنّه مولى كلّ مؤمن ومؤمنة ، وقال له : أنت منّي وأنا منك ؛ وأنت تقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله ! وقال له : أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي . وقال له : أنا سلم لمن سالمك ، وحرب لمن حاربك ؛ وأنت العروة الوثقى ! وأنت تبيّن ما اشتبه عليهم من بعدي ! وأنت وليّ كلّ مؤمن ومؤمنة بعدي ! وأنت الذي أنزل الله فيك :

وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النّاسِ يَوْمَ الْحَجّ الْأَكْبَرِ . (80)

وأنت الآخذ بسنّتي ! والذابّ عن ملّتي ! وأنا وأنت أوّل من تنشقّ الأرض عنه ؛ وأنت معي تدخل الجنّة ؛ والحسن والحسين وفاطمة معنا ، إنّ الله أوحى إلَيّ أن أُبيّن فضلك ؛ فقلت للناس وبلّغتهم ما أمرني الله تبارك وتعالى بتبليغه !

ثمّ قال : اتّقِ الضّغائِنَ الّتِي كَانَتْ فِي صُدُورِ قَوْمٍ لا تُظْهِرُهَا إلّا بَعْدَ مَوْتِي ؛ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللّاعِنُونَ وَبَكَى .

ثُمّ قَالَ : أَخْبَرَنِي جَبْرَائِيلُ أَنّهُمْ يَظْلِمُونَكَ بَعْدِي ، وَأَنّ ذَلِكَ الظّلْمَ لا يَزُولُ بِالكُلّيّةِ عَنْ عِتْرَتِنَا حَتّى إذَا قَامَ قَائِمُهُمْ ، وَعَلَتْ كَلِمَتُهُمْ ، وَاجْتَمَعَتِ الأُمّةُ عَلَى مَوَدّتِهِمْ ، وَالشّانِي لَهُمْ قَلِيلاً ، وَالكَارِهُ لَهُمْ ذَلِيلاً ، وَالمَادِحُ لَهُمْ كَثِيراً .

وذلك حين تغيّر البلاد ؛ وضعف العباد ، حين اليأس من الفرج ، فعند ذلك يظهر القائم مع أصحابه ؛ فبهم يظهر الله الحقّ ؛ ويخمد الباطل بأسيافهم ؛ ويتبعهم الناس راغباً إليهم وخائفاً منهم ! أبشروا بالفرج فإنّ وعد الله حقّ لا يخلف ؛ وقضاءه لا يردّ ؛ وهو الحكيم الخبير ؛ وانّ فتح الله قريب .

اللَهُمّ إنّهُمْ أَهْلِي فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرّجْسَ وَطَهّرْهُمْ تَطْهِيراً ؛ اللّهُمّ اكْلأْهُمْ وَارْعَهُمْ وَكُنْ لَهُمْ وَانْصُرْهُمْ وَأَعِزّهُمْ وَلا تُذِلّهُمْ ، واخْلُفْنِي فِيهِمْ إنّكَ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ . (81)

وقال عليّ بن أبي طالب [عليه السلام] :

كُلّ حِقْدٍ حَقَدَتْهُ قُرَيْشٌ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ أَظْهَرَتْهُ فِيّ ، وَسَتُظْهِرُهُ فِي وُلْدِي مِنْ بَعْدِي ، مَا لِي وَلِقُرَيْشٍ ! إنّمَا وَتَرْتُهُمْ بِأَمْرِ اللهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ ، أَفَهَذَا جَزَاءُ مَنْ أَطَاعَ اللهَ وَرَسُولَهُ إنْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ؟! (82)

«وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إلّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» . (83)

اللَهُمّ اجْعَلْنَا مِنَ المُتَمَسّكِينَ بِوِلَايَةِ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلَيهِ السّلَامِ .

تعليقات:

1) الآية 67 ، من السورة 5 : المائدة .

2) سَمَقَ البناتُ : إذا طال فهو سامق وسميق . (م)

3) العَيوق : كوكب أحمر مضيء بحيال الثريّا في ناحية الشمال . (م)

4) الغدير» ج 4 ، ص 150 ، الطبعة الثالثة ، مطبعة الحيدري بطهران . من أشعار ابن حمّاد العبدي ، محبّ أهل البيت عليهم السلام وشاعرهم في القرن الرابع ، عليه التحيّة والرضوان .

5) حلية الأوليا» ج 1 ، ص . 86 طبعة مطبعة السعادة . مصر .

6) جَاءَتْ سُلَيْمَانَ يَوْمَ العَرْضِ قُبّرَةٌ

بِضِلْعِ جَرَادٍ كَانَ فِي فِيهَا

نَاجَتْ خَفِيّ الصّوْبَ وَاعْتَذَرَتْ

إنّ الهَدَايَا عَلَى مِقْدَارِ مُهْدِيهَا

7) الآية 214 ، من السورة 26 : الشعراء .

8) قسم من الآية 3 ، من السورة 5 : المائدة .

9) مقطع من الآية 43 ، من السورة 16 : النحل .

10) صدر الآية 103 ، من السورة 3 : آل عمران .

11) الآية 8 ، من السورة 102 : التكاثر .

12) الآية 24 ، من السورة 37 : الصافّات .

13) صدر الآية 59 ، من السورة 4 : النساء .

14) قسم من الآية 33 ، من السورة 33 : الأحزاب .

15) الآية 61 ، من السورة 3 : آل عمران .

16) قسم من الآية 36 ، من السورة 24 : النور .

17) قسم من الآية 23 ، من السورة 42 : الشورى .

18) الآية 6 ، من السورة 98 : البيّنة .

19) الآيتان 1 و 2 ، من السورة 78 ، النبأ .

20) الآية 207 ، من السورة 2 : البقرة .

21) الآية 12 ، من السورة 58 :المجادلة .

22) الآية 43 ، من السورة 13 : الرعد .

23) قسم من الآية 4 ، من السورة 66 : التحريم .

24) قسم من الآية 3 ، من السورة 9 : التوبة .

25) قسم من الآية 12 ، من السورة 69 : الحاقّة .

26) الآية 130 ، من السورة 37 : الصافّات .

27) قسم من الآية 22 ، من السورة 39 : الزمر .

28) قسم من الآية 153 ، من السورة 6 : الأنعام .

29) قسم من الآية 22 ، من السورة 67 : الملك .

30) تاريخ بغداد» للحافظ الخطيب ، ج 4 ، ص . 410 طبعة مطبعة السعادة . مصر .

31) حلية الأولياء» للحافظ أبي نعيم الإصفهانيّ ، ج 1 ، ص 63 و 64 ، طبعة مطبعة السعادة . مصر .

32) الآية 55 ، من السورة 5 : المائدة .

33) الخَوخَةَ أو الكوّة ، نافذة صغيرة تترك مفتوحة في الغرفة ليؤدي الضوء إلى البيت .

36.35.34) الآيتان 32 و 33 ، من السورة 35 : فاطر .

37) غاية المرام» ، تحت الحديث رقم 9 ، من ص 219 إلى . 222

38) ملخّص ما جاء في «سيرة ابن هشام» ج 3 ، ص 781 إلى 784 ؛ وفي تفسير «مجمع البيان» ج 5 ، ص 116 إلى 119 ، طبعة صيدا ؛ وفي «بحار الأنوار» طبعة الكمباني ج 6 ، ص 562 ؛ نقلاً عن «تفسير عليّ بن إبراهيم» .

39) إعلام الورى» ص 138 ؛ و «علل الشرائع» ص 413 ، طبعة دار إحياء التراث العربيّ ؛ و «فروع الكافي» ج 4 ، ص 249 و 246 طبعة الآخونديّ .

40) الوفاء بأحوال المصطفى» ج 2 ، ص 210 ؛ وكتاب «حياة محمّد» لمؤلّفة هيكل ، ص . 461

41) حياة محمّد» لهيكل ، ص 460 و 461 ، طبعة مطبعة مصر .

42) تفسير الميزان» ج 2 ، ص 90 ؛ عن «مسند» أحمد بن حنبل . طبعة الآخونديّ .

43) الطبقات الكبرى» لابن سعد ، ج 2 ، ص . 244 طبعة دار صادر ، بيروت .
44) حياة محمّد» لمحمّد حسنين هيكل ، ص 474 و . 475
45) حياةمحمّد» ص . 475
46) تاريخ دمشق» لابن عساكر ، ج 2 ، ص 307 إلى 311 ، طبعة دار التعارف ، بيروت .
47) شرح نهج البلاغة» ج 12 ، ص 78 و . 79
48) الآية 9 ، من السورة 47 : محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم .
49) قسم من الآية 68 ، من السورة 28 : القصص .
50) الإمام عليّ بن أبي طالب» لعبد الفتّاح عبد المقصود ، ج 1 ، ص 220 ، طبعة منشورات مكتبة الوفاق ، بيروت .
51) الكامل في التاريخ» ج 7 ، ص 101 ، من الطبعة الثانية ؛ و «تاريخ الطبريّ» طبعة السعادة ، 1358 هـ ، ج 7 ، ص . 397 ونقل ذلك في «أعيان الشيعة» ج 15 ، ص 291 ، عن الطبعة الثانية في ترجمة جعفر بن الحسين ، نقله عن القاضي أبي المكارم محمّد بن عبد الملك بن أحمد بن هبة الله بن جرادة الحلبيّ في شرح قصيدة أبي فراس الميميّة المعروفة ب الشافية ، فإنّه حكى فيه عن مروان بن أبي حفصة ، أنّه قال : «أنشدت المتوكّل شعراً ذكرت فيه الرافضة . فعقد لي [المتوكّل] على البحرين واليمامة ، وخلع عَلَيّ أربع خلع . ثمّ ذكر صاحب «الأعيان» شعراً عن جعفر بن الحسين في ردّ مروان بن أبي حفصة ومطلعه :

قُلْ لِلّذِي بِفُجُورِهِ
فِي شِعْرِهِ ظَهَرَتْ عَلَامَه

ونقل في كتاب «الغدير» ج 4 ، ص 175 ، 176 شعر مروان بن أبي حفصة ، وشعر جعفر بن الحسين في ردّه ؛ وذلك في شعراء الغدير في القرن الرابع نقلاً عن «أعيان الشيعة» .
52) الكامل في التاريخ» ج 7 ، ص . 101
53) نهج البلاغة» الخطبة 216 ، عبده .
54) أيّ من أبي بكر وعمر .
55) كتاب «الفردوس الأعلى» للشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء ، وتعليقة السيّد محمّد علي القاضي الطباطبائي ، ص 20 و . 21
56) الآية 124 ، من السورة 2 : البقرة .
57) جاء في «إحياء العلوم» ج 1 ، ص 6 : أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : النّاسُ مَعَادِنُ كَمَعادِنِ الذّهَبِ وَالفِضّةِ ، فَخِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإسْلَامِ إذَا فَقِهُوا . وكذلك جاءت هذه العبارة نفسها عن رسول الله في «جامع السعادات» طبعة النجف ، ج 1 ، ص 24 بدون قيد «إذَا فَقِهُوا» .
58) الآية 1 و2 ، من السورة 20 : طه .
59) الآية 128 ، من السورة 9 : التوبة .
60) الآية 6 ، من السورة 18 : الكهف .
61) الآية 53 ، من السورة 33 : الأحزاب .
62) الآية 61 ، من السورة 9 : التوبة .
63) الآية 37 ، من السورة 33 : الأحزاب .

64) الآية 45 إلى 47 ، من السورة 69 : الحاقّة .

65) الآية 67 ، من السورة 5 : المائدة .

66) يقول : «هبّت ريح الصبا على أميري مبشّرةً كالبلابل الغرّيدة القادمة من حديقة شقائق النعمان .
هيّا يا صبا فإنّ فيك عطر الحبيب ، وتأتي البشائر من كلّ مكان مبشّرة بلقاء الحبيب .
وما أجمل تلك اللحظة التي أرى فيها الحبيب جالساً إلى جانبي» .

67) يقول : «انثري يا صبا تحيّتيالتي لا حدّ لها بحيث تملأ الفضاء لأعتاب عليّ المرتضى .
فهو وليّ القَدَر والمهيمن على القضاء ، وهو محيط المعرفة الحلم ومركز الرضا .
وكعبة بابه مطافي وملاذي الذي ألوذ به» .

68) يقول : «انظُر إلى تجلّيات الذات في مشهد شهوده . وانظر إلى حقائق صفات الحقّ من تجلّيات وجوده .
وانظر إلى الحروف العالية في نسخة وجوده . وانظر إلى تمام المجملات فيه فإنّه مفصل عن الحدود .
وإن تنزّه حبيبي عن الحدود (لاقترانه بالله تعالى) » .

69) يقول : «صار واضعاً للأُسس ومشيّداً للأُصول . ومصوّراً للمعاني ومفصّلاً للفصول .
وأصبح حقيقة المثاني ومكمّلاً للعقول . وصار في الدرجة الثانية للحقّ وخليفة الرسول .
وكانت الخلافة باسم أميري منذ بداية العصور» .

70) يقول : «لقد كان الغدير قطرة من بحر مناقبه . وكان شعاع الشمس بصيصاً من نور نجمه الثاقب .
وكان نعيم الخلد نصيباً من مائدة مواهبه . ويا ليته ينعم عَلَيّبنظرة تجتذبني إلى جانبه .
فأتباهى مفتخراً حتّى تبلغ قبّعة فخري فرق الفرقدين» .

71) يقول : «شتّان بين طائر السعد وبين الوحوش والبهائم . ولا تقارن بين العاقل وبين الأبله الذي لا عقل له .
فلا تقرن من يشرب ثمالة الكأس بمن أهرم نفسه وشيّب عمره في بيع الخمر . ولو كنتَ موحّداً فاغسل عن لوح قلبك النقوش .
ولا يليق اجتذاب القلب والهيمنة عليه إلّا بصاحبي الذي يكتم الأسرار» .

72) يقول : «ولايته في الغدير التي أصبحت فرضاً على الأُمم . كانت حديثاً منذ القديم مثبّتاً في دفتر القِدَم .
فقد خطّ القلم على لوح قلب سيّد الأُمم ، بأن قد جاء مكمّل الشريعة ومتمّم النعم .
وصار زمام الدين صاحبي ذي الاختيار» .

73) يقول : «أصبح أمير العشق وزيراً للعقل الكلّيّ بأمر الحقّ . وأصبح أبو الفتوح (أمير المؤمنين) خليفةً لخاتم الرسل .
ووصلت راية الهدى بِيَدِ هادي السبل ، فلطف طاعته نعيمٌ دائم الأُكُل .
وما الجحيم إلّا شعلة من غضب ذلك الرجل العظيم» .

74) يقول : «وفي وسط كان المعشوق الأزليّ ضياءه المتأ لّق ، أخذ الساقي بِيَدِ العشق الدائم (إشارة إلى أخذ النبيّ يدَ عليّ أمير المؤمنين يوم غدير خمّ .

فعرّف ولايته وأبان مقامه ، إذ هو خليفتي وهو وليّ الأمر في الحلّ والعقد بعدي وبِيَدِه زمان شرعي الراسخ الوطيد» .

75) يقول : «ومنافسه الذي مدّ له يد الطاعة والعبوديّة في بادئ الأمر ، لم يرتشف إكسير حياته من غديره الفيّاض في آخر المطاف .

ومن كان طبعه الضراوة والافتراس كالخنزير والكلب ، أو كان طبعه اللدغ كالأفعى والعقرب .

فإنّه يفعل كما فعل مع أميري الذي صيده الملوك والأُمراء» .

76) ديوان آية الله الكمبانيّ» ص 28 إلى . 30

77) حلية الأولياء» ج 1 ، ص 66 و 67 ؛ طبعة مطبعة السعادة . مصر ؛ و «ينابيع المودّة» باب 45 ، من طبعة إسلامبول سنة 1301 هـ ص 134 ؛ و «فرائد السمطين» باب 30 ، ج 1 ، ص . 151

78) فرائد السمطين» باب 30 ، ج 1 ، ص 152 و . 153 الطبعة الأُولى ، طبعة مؤسّسة المحموديّ . بيروت ؛ و «مناقب الخوارزميّ» طبعة النجف ، ص 26 ؛ و «ينابيع المودّة» باب 45 ، ص . 134

79) مناقب الخوارزميّ» ص 109 ؛ و «ينابيع المودّة» باب 45 ، ص . 134 طبعة إسلامبول .

80) قسم من الآية 3 ، من السورة 9 : التوبة .

81) مناقب الخوارزميّ» الفصل 5 ، ص 23 إلى 25 ؛ و«ينابيع المودّة» الباب 45 ، ص 134 و . 135

82) ينابيع المودّة» الباب 45 ، ص . 135

83) الآية 8 ، من السورة 86 : البروج .

83) الآية 8 ، من السورة 86 : البروج .

الدرس الرابع والتسعون إلى السابع والتسعين: خطبة رسول الله صلّى الله عليه وآله في غدير خمّ

بِسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

وصلّى اللهُ على محمّد وآله الطّاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رَسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَفِرِينَ . (1)

نقل موفّق بن أحمد خطيب خوارزم الأبيات التالية عن الصاحب بن عبّاد :

حُبّ النّبِيّ وَأَهْلِ البَيْتِ مُعْتَمَدِي
إذَا الخُطُوبُ أَسَاءَتْ رَأْيَها فِينَا
أَيَا بْنَ عَمّ رَسُولِ اللهِ أَفْضَلَ مَنْ
سَادَ الأَنَامَ وَسَاسَ الهَاشِمِيّينَا
يَا قُدْوَةَ الدّينِ يَا فَرْدَ الزّمَانِ أَصِخْ
لِمَدْحِ مَوْلىً يَرَى تَفْضِيلَكُمْ دِينَا
هَلْ مِثْلُ سَبْقِكَ في الإِسْلاَمِ لَوْ عَرَفُوا
وَهذِهِ الخَصْلَةُ الغَرّاءُ تُلْفِينَا
هَلْ مِثْلُ عِلْمِكَ إنْ زَلّوا وإن وَهَنُوا
وَقَدْ هَدَيْتَ كَمَا أَصْبَحْتَ تَهْدِينَا
هَلْ مِثْلُ جَمْعِكَ لِلقُرْآنِ تَعْرِفُهُ
لَفْظاً وَمَعْنىً وَتَأْوِيلاً وَتَبْيِينَا
هَلْ مِثْلُ حَالِكَ عِنْدَ الطّيْرِ تُحْضِرُهُ
بِدَعْوَةٍ نِلْتَهَا دونَ المُصَلّينَا
هَلْ مِثْلُ بِذَلِكَ لِلْعَانِي الأَسِيرَ وَلل
طّفْلِ الصّغِيرِ وَقَدْ أَعْطَيْتَ مِسْكِينَا
هَلْ مِثْلُ صَبْرِكَ إذخَانُوا وَإِذْ خَتَرُوا (*)
حَتّى جَرَى مَا جَرَى فِي يَوْمِ صِفّينَا
هَلْ مِثْلُ فَتْوَاكَ إذْ قَالُوا مُجَاهَرَةً
لَوْلَا عَلِيّ هَلَكْنَا فِي فَتَاوِينَا
يَا رَبّ سَهّلْ زِيَارَاتِي مَشَاهِدَهُمْ
فَإِنّ رُوحِيَ تَهْوَى ذَلِكَ الطّينَا
يَا رَبّ صَيّرْ حَيَاتِي فِي مَحَبّتِهِمْ
وَمَحْشَرِي مَعَهُمْ آمِينَ آمِينَا (2)

خرج النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله من مكّة ومعه جميع حجّاج بيت الله الحرام ، وذلك في اليوم الرابع عشر ، متوجّهاً إلى المدينة . وذكر المؤرّخون أنّ حجّاج المدينة الذين كانوا معه ، مائة وعشرون ألفاً ، أو مائة وأربعة وعشرون ألفاً ؛ ذلك لأنّ هذا الحجّ جاء بعد إعلان مسبق عنه ، حتّى أنّ النبيّ أخبر أهل القرى والأطراف أنّه عازم على الحجّ ، فمن تمكّن فليلتحق به . فلهذا حجّ أهل المدينة كلّهم بما فيهم نساؤهم ، ولم يتخلّف إلّا

العجزة والمرضى ، وخلت المدينة من أهلها .

وخطب النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم عدّة مرّات موصياً بأهل البيت ولزوم الرجوع إلى الكتاب والعترة . وبذل قصارى جهده لتمهيد الأرضيّة للإعلان العامّ عن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام . وما إن حلّت قافلته غدير خُمّ قرب الجُحفة (3) ، حيث مفترق الطريق التي تؤدّي إلى المدينة ومصر والشام ، هبط عليه الأمين جبرئيل مرّة أُخرى بهذه الآية : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رَسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَفِرِينَ . (4)

وأجمع المؤرّخون أنّ هذه الآية نزلت في غدير خمّ في اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة ، مع أنّهم اختلفوا في اليوم هل كان الأحد أو الخميس . وفي ضوء ما ذكرناه في المباحث المتقدّمة ، فإنّ اليوم لابدّ من أن يكون يوم الأحد . (5)

وهنا يأمر جبرئيل رسول الله أن يتوقّف ، ويعرّف عليّاً سيّداً ومولىً وإماماً للخلق . ويبلّغ الناس ما بلّغه الله به عن ولاية عليّ عليه السلام . وأنّ عليّاً هو الوليّ والمولى لجميع الناس ، وطاعته واجبة عليهم جميعاً .

وفي تلك اللحظات حيث وصل المتقدّمون في القافلة منطقة الجُحفة ، والمتأخّرون لم يلحقوا برسول الله ، توقّف النبيّ صلّى الله عليه وآله في الغدير ، وأمر أن يرجع المتقدّمون الذين كانوا قد وصلوا إلى الجحفة ، وانتظر المتأخّرين ريثما يلتحقون . وهكذا وقف الجميع . وكانت هناك خمس شجرات كبيرة متّصلة بعضها مع بعض وهي من جنس السَمُر ، (6) فأمر بكنس ما تحتها وتنظيفه . وكذلك أمر أن لاينزل ويجلس تحتها أحد .

ولمّا التحق جميع الحجّاج بنبيّهم واجتمعوا معه . وتمّ تنظيف ذلك المكان . جاء النبيّ الأعظم فاستظلّ بالأشجار وكانت صلاة الظهر قد حان وقتها . وأمر فجاء الناس كلّهم وصلّوا معه صلاة الظهر ، وكان ذلك اليوم حارّاً جدّاً بحيث يضع الإنسان بعض ردائه على رأسه وبعضه تحت قدميه من شدّة الرمضاء .

وظُلّل لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بثوب على شجرة سمرة من الشمس ، وصُنع له منبر من أقتاب الإبل .

فلمّا انصرف صلّى الله عليه وآله وسلّم من صلاته ، قام على ذلك المنبر خطيباً وسط القوم ، ورفع صوته بحيث يسمه جميع الناس ، فقال :

اَلحَمْدُ لِلهِ ، وَنَسْتَعِينُهُ ، وَنُؤْمِنُ بِهِ ، وَنَتَوَكّلُ عَلَيهِ ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا ، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، الّذِي لَا هَادِيَ لِمَنْ ضَلّ ، وَلَا مُضِلّ لِمَنْ هَدَى . وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ ؛ وَأَنّ مُحَمّدَاً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

أَمّا بَعْدُ : أَيّهَا النّاسُ ! قَدْ نَبّأَنِي اللّطِيفُ الخَبِيرُ أَنّهُ لَمْ يَعْمُرْ نَبِيّ إِلّا مِثْلَ نِصْفُ عُمْرِ الّذِي قَبْلَهُ ! (7) وَإِنّي أُوشِكُ أَنْ أُدْعَى فَأَجَبْتُ ! وَإِنّي مَسْؤُولٌ ، وَأَنْتُمْ مَسْؤُولُونَ : فَمَاذَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟!

قَالُوا : نَشْهَدُ أَنّكَ قَدْ بَلّغْتَ وَنَصَحْتَ وَجَهَدْتَ ! فَجَزاكَ اللهُ خَيْرَاً !

قَالَ : أَلَسْتُمْ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ ؛ وَأَنّ مُحَمّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ؛ وَأَنّ جَنّتَهُ حَقّ ؛ وَنَارَهُ حَقّ ؛ وَأنّ الْمَوْتَ حَقّ ، وَأَنّ السّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ؛ وَأَنّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ ؟ !

قَالُوا : بَلَى ! نَشْهَدُ بِذَلِكَ ! قَالَ : اللَهُمّ اشْهَدْ !

ثُمّ قَالَ : أَيّهَا النّاسُ ! أَلَا تَسْمَعُونَ ؟!

قَالُوا : نَعَمْ !

قَالَ : فَإنّي فَرَطٌ عَلَى الحَوْضِ ؛ وَأَنْتُمْ وَارِدُونَ عَلَيّ الحَوْضَ ! وَإنّ عَرْضَهُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَبُصْرَى ؛ فِيهِ أَقْدَاحٌ عَدَدَ النّجُومِ مِنْ فِضّةٍ . فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخلُفُونِي فِي الثّقَلَيْنِ ؟!

فَنَادَى مُنَادٍ : وَمَا الثّقَلَانِ يَا رَسُولَ اللهِ ؟!

قَالَ : الثّقَلُ الأَكْبَرُ كِتَابُ اللهِ ؛ طَرَفٌ بِيَدِ اللهِ عَزّ وَجَلّ ؛ وَطَرَفٌ بِأَيْدِيكُمْ ؛ فَتَمَسّكُوا بِهِ لَا تَضِلّوا ! وَالآخَرُ الأصْغَرُ عِتْرَتِي ؛ وَإنّ اللّطِيفَ الخَبِيرَ نَبّأَنِي أَنّهُمَا لَنْ يَتَفَرّقَا حَتّى يَرِدَا عَلَيّ الحَوْضَ ! فَسَأَلْتُ ذَلِكَ لَهُمَا رَبّي ، فَلَا تَقَدّمُوهُمَا فَتَهْلِكُوا ؛ وَلَا تَقْصُرُوا عَنْهُمَا فَتَهْلِكُوا !

ثُمّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيّ فَرَفَعَهَا حَتّى رُئِيَ بَيَاضُ آبَاطِهِمَا وَعَرَفَهُ القَوْمُ أَجْمَعُونَ .

فَقَالَ : أَيّهَا النّاسُ ! مَنْ أَوْلَى النّاسِ بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ؟!

قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ !

قَالَ : إنّ اللهَ مَوْلَايَ ؛ وَأَنَا مَوْلَى المُؤمِنِينَ ؛ وَأَنَا أَوْلَى بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ! فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ . يَقُولُهَا ثَلَاثَ مَرّاتٍ ؛ وَفِي لَفْظِ أَحْمَدَ إمَامِ الحَنَابِلَةِ : أَرْبَعَ مَرّاتٍ . (8)

ثُمّ قَالَ : اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ! وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ! وَأَحِبّ مَنْ أَحَبّهُ ! وَأَبْغِضْ مَنْ أَبْغَضَهُ ! وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ! وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ ! وَأَدِرِ الْحَقّ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ ! أَلَا فَلْيُبَلّغِ الشّاهِدُ الغَائِبَ !

ثُمّ لَمْ يَتَفَرّقُوا حَتّى نَزَلَ أَمِينُ وَحْيِ اللهِ بِقَوْلِهِ :

«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» . (9)

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : اللهُ أَكْبَرُ عَلَى إكْمَالِ الدّينِ وَإتْمَامِ النّعْمَةِ وَرِضَا الرّبّ بِرِسَالَتِي وَالْوَلَايَةِ لِعَليّ مِنْ بَعْدِي .

ثُمّ طَفِقَ القَوْمُ يُهَنّئُونَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ صَلَواتُ اللهِ عَلَيهِ . وَمِمّنْ هَنّأَهُ فِي مُقَدّمِ الصّحَابَةِ : الشّيْخَانِ : أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ؛ كُلّ يَقُولُ : بَخٍ بَخٍ لَكَ يَابْنَ أَبِي طَالِبٍ أَصْبَحْتَ وَأَمْسَيْتَ مَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ !

وَقَالَ ابْنُ عَبّاسٍ : وَجَبَتْ فِي أَعْنَاقِ الْقَوْمِ . فَقَالَ حَسّانٌ : إئْذَنْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ أَقُولَ فِي عَلِيّ أَبْيَاتاً تَسْمَعُهُنّ ! فَقَالَ : قُلْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ !

فَقَامَ حَسّانٌ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ مَشِيخَةِ قُرَيْشٍ أَتْبَعُهَا قَوْلِي بِشَهَادَةٍ مِنْ رَسُولِ اللهِ فِي الوَلَايَةِ مَاضِيَةٍ . ثُمّ قَالَ :

يُنَادِيهِمُ يَوْمَ الْغَدِيرِ نَبِيّهُمْ

بِخُمّ فَأَسْمِعْ بِالرّسُولِ مُنَادِيَا (10)

وَقَدْ جَاءَهُ جِبْرِيلُ عَنْ أَمْرِ رَبّهِ

بِأَنّكَ مَعْصُومٌ فَلَا تَكُ وَانِيَا

وبَلّغْهُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ رَبّهُمْ إلَيْكَ

وَلَا تَخْشَ هُنَاكَ الْأَعَادِيَا

فَقَامَ بِهِ إذْ ذَاكَ رَافِعُ كَفّهِ

بِكَفّ عَلِيّ مُعْلِنَ الصّوْتِ عَالِيَا

فَقَالَ : فَمَنْ مَوْلَاكُم وَوَلِيّكُمْ

فَقَالُوا وَلَمْ يُبْدُوا هُنَاكَ تَعَامِيَا

إلَهُكَ مَوْلَانَا وَأَنْتَ وَلِيّنَا

وَلَنْ تَجِدَنْ فِينَا لَكَ الْيَومَ عَاصِيَا

فَقَالَ لَهُ : قُمْ يَا عَلِيّ فَإِنّنِي

رَضِيتُكَ مِنْ بَعْدِي إمَاماً وَهَادِيَا

فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا وَلِيّهُ

فَكُونُوا لَهُ أنْصَارَ صِدْقٍ مَوَالِيَا

هُنَاكَ دَعَا اللَهُمّ وَالِ وَلِيّهُ

وَكُنْ لِلّذِي عَادَى عَلِيّاً مُعَادِيَا

فَيَا رَبّ انْصُرْ نَاصِرِيهِ لِنَصْرِهِمْ

إمَامَ هُدَىً كَالبَدْرِ يَجْلُو الدّيَاجِيَا (11)

ولمّا أنشد حسّان هذه الأبيات ، قال له رسول الله صلّى الله عليه وآله : يَا حَسّانُ لَا تَزَالُ مُؤَيّداً بِرُوحِ القُدُسِ مَا نَصَرْتَنَا بِلِسَانِكَ . (12)

يقول الكاتب العبّاسيّ أحمد بن أبي يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبيّ : توجّه رسول الله صلّى الله عليه وآله من مكّة إلى المدينة ليلاً ، ووصل مكاناً قرب الجُحفة يقال له : غدير خُمّ لثماني عشرة ليلة خلت من شهر ذي الحجّة : وَقَامَ خَطِيباً وَأَخَذَ بِيَدِ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ : أَلَسْتُ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ . قَالَ : فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ، اللَهُمّ وَآلِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ . ثُمّ قَالَ : أَيّهَا النّاسُ ! إنّي فَرْطُكُمْ وَأَنْتُمْ وَارِدِيّ عَلَى الحَوْضِ ؛ وَإنّي سَائِلُكُمْ حِينَ تَرِدُونَ عَلَيّ عَنِ الثّقَلَيْنِ ، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا . وَقَالُوا : وَمَا الثّقَلَانِ يَا رَسُولَ اللهِ ؟! قَالَ : الثّقَلُ الأَكْبَرُ كِتَابُ اللهِ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ وَطَرَف بِأَيْدِيكُمْ ، فَاسْتَمْسِكُوا بِهِ وَلَا تُضِلّوا وَلَا تُبَدّلُوا ؛ وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي . (13)

ونقل الطبريّ في كتاب «الولاية» عن زيد بن أرقم أنّ النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم قال في آخر الخطبة : معاشر الناس ! قولوا : أعطيناك على ذلك [أي على ولاية عليّ بن أبي طالب] عهداً عن أنفسنا ؛ وميثاقاً بألسنتنا ؛ وصفقة بأيدينا ؛ نؤدّيه إلى أولادنا وأهالينا ؛ لا نبغي بذلك بدلاً ؛ وأنت شهيدٌ علينا ! وكفى بالله شهيداً .

[أيّها الناس] قولوا ما قلت لكم ؛ وسلّموا على عليّ بإمْرَةِ المُؤمِنِينَ ! وقولوا : الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ . (14) فإنّ الله يعلم كلّ صوت وخائنة كلّ نفس ؛

فَمَنْ نَكَثَ فَإِنّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . (15) قولوا ما يرضي الله عنكم فـَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنّ اللهَ غَنِىّ عَنْكُمْ . (16)

قال زيد بن أرقم : فعند ذلك بادر الناس بقولهم : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا عَلَى أَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ بِقُلُوبِنَا . (17)

ثمّ جلس رسول الله في خيمة تخصّه ؛ وأمر أمير المؤمنين أن يجلس في خيمة أُخرى ؛ وأمر طبقات الناس أن يذهبوا إلى خيمته ويهنّئوه .

ولمّا فرغ الناس من تهنئة أمير المؤمنين ، أمر رسول الله أُمّهات المؤمنين بأن يسرن إليه ويهنّئنّه ففعلن .

وممّن هنّأه من الصحابة عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ ، فقال : هَنِيئاً لَكَ يَابْنَ أَبِي طَالِبٍ ! أَصْبَحْتَ مَوْلايَ وَمَوْلَى جَمِيعِ المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ . (18)

وتقدّم الناس إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام وبايعوه أميراً للمؤمنين ، وهنّأوه بقولهم : السّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ؛ ومدّوا أيديهم بحيث كانت أيمانهم تصافق يمينه .

وجاء في كتاب «مناقب عليّ بن أبي طالب» للخليليّ الطبريّ : وكان أوّل من بايع وصافق : أبو بكر ، وعمر ، وطلحة ، والزبير ؛ ثمّ باقي المهاجرين والناس على طبقاتهم ومقدار منازلهم إلى أن صُلّيت الظهر والعصر في وقت واحد . والمغرب والعشاء في وقت واحد . ولم يزالوا يتواصلون البيعة والمصافقة ثلاثاً .

ورسول الله كلّما بايعه فوج بعد فوج يقول : الحَمْدُ لِلّهِ الّذِي فَضّلَنَا عَلَى جَمِيعِ العَالَمِينَ . و [من هنا] صارت المصافقة والمصافحة سنّة ورسماً ؛ واستعملها من ليس له حقّ فيها . (19)

يقول أبو سعيد الخُدريّ : والله لم نترك الغدير بعد حتّى نزلت الآية : الْيَوْمَ يَئِسَ الّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشُونِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا . (20)

وذكر المجلسيّ رضوان الله عليه في الفصل الخاصّ بالروايات المأثورة في الغدير عن مناوئي الشيعة من الموثوقين الذين يعوّل عليهم مواضيع ملحقة بخطبة الغدير عن كتاب «النّشر والطّيّ» وقال : صاحب هذا الكتاب جعل كتابه حجّة ظاهرة على ولاية عليّ باتّفاق العدوّ والوليّ . وحمل به نسخة إلى الملك شاه مازندران رستم بن علي لمّا حضر بالري هديّة له .

وروى في ذلك الكتاب بسنده المتّصل عن عطيّة السعديّ قال : سألت حُذَيفة بن اليَمان عن الغدير ؛ فقال : إنّ الله أنزل على نبيّه (في المدينة) أوّلاً قوله :

النّبِيّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمّهَتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَبِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ . (21)

فقالوا : يا رسول الله ، ما هذه الولاية التي أنتم بها أحقّ منّا بأنفسنا ؟!

فقال رسول الله : اَلسّمْعُ وَالطّاعَةُ فِيمَا أَحْبَبْتُمْ وَكَرِهْتُمْ .

فقالوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ؛ فَأنزل الله هذه الآية : وَاذْكُروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الّذِى وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتّقُوا اللهَ إِنّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصّدُورِ . (22)

يقول حذيفة : فخرجنا من المدينة مع رسول الله في حجّة الوداع . وعندما وصلنا إلى مكّة ، نزل جبرئيل وقال : يا محمّد ! إنّ ربّك يقرءك السلام ؛ ويقول : إنصب عليّاً علماً للناس ! فبكى النبيّ ، حتّى اخضلّت لحيته ؛ وقال : يا جبرئيل ! إنّ قومي حديثو عهد بالجاهليّة . ضربتهم على الدين طوعاً وكرهاً حتّى انقادوا لي ؛ فكيف إذا حملت على رقابهم غيري ؟ فصعد جبرئيل .

ونقل صاحب كتاب «النّشر والطّيّ» هنا قصّة مجيء أمير المؤمنين من اليمن إلى مكّة ؛ وقصّة التصدّق بالخاتم ونزول الآية : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللهُ ... بنحو مفصّل إلى أن بلغ قول رسول الله في منى ، وقد نقله عن شخص آخر غير حُذَيفة ، وفيه أنّ رسول الله قال في حجّة الوداع بمنى :

يَا أَيّهَا النّاسُ ! إنّي تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ إن أَخَذْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلّوا : كِتَابَ اللهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي ؛ وَإِنّهُ قَدْ نَبّأَنِي اللّطِيفُ الخَبِيرُ أَنّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتّى يَرِدَا عَلَيّ الحَوْضَ كَأُصْبَعَيّ هَاتَيْنِ . وَجَمَعَ بَيْنَ سَبّابَتَيْهِ . أَلَا فَمَنِ اعْتَصَمَ بِهِمَا فَقَدْ نَجَا ؛ وَمَن خَالَفَهُمَا فَقَدْ هَلَكَ . أَلَا هَلْ بَلّغْتُ أَيّهَا النّاسُ ؟ قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : اللّهُمّ اشْهَدْ !

ثمّ قال صاحب كتاب «النّشر والطّيّ» : فلمّا كان في آخر يوم من أيّام التشريق (اليوم الثالث عشر من ذي الحجّة) أنزل الله عليه : إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ . فقال رسول الله : :نُعِيَتْ إِلَيّ نفسي . فجاء إلى مسجد الخيف فدخله ونادى : الصّلاَةَ جَامِعَةً . فاجتمع الناس ؛ فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر خطبته ؛ ثمّ قال فيها :

أَيّهَا النّاسُ ! إنّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثّقَلَيْنِ : اَلثّقَلُ الأَكْبَرُ كِتَابُ اللهِ عَزّ وَجَلّ طَرَفٌ بِيَدِ اللهِ ؛ وَطَرَفٌ بِأَيدِيكُمْ فَتَمَسّكُوا بِهِ ؛ وَالثّقَلُ الأَصْغَرُ عِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي فَإنّهُ قَدْ نَبّأَنِي اللّطِيفُ الخَبِيرُ أَنّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتّى يَرِدَا عَلَيّ الحَوْضَ كَأَصْبَعَيّ هَاتَيْنِ . وَجَمَعَ بَيْنَ سَبّابَتَيْهِ . وَلاَ أَقُولُ كَهَاتَيْنِ . وَجَمَعَ بَينَ سَبّابَتِهِ والوُسْطَى . فَتَفْضُلَ هَذِهِ عَلَى هَذِهِ .

قال مصنّف كتاب «النّشر والطّيّ» [وبعد أن استمع جماعة إلى هذه الخطبة] : فاجتمع قومٌ وقالوا : يريد محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يجعل الإمامة في أهل بيته ، وخرج منهم أربعة [من منى] ؛ ودخلوا إلى مكّة ؛ ودخلوا الكعبة ؛ وكتبوا فيما بينهم عهداً إن مات مُحَمّد أو قتل ؛ لا يرد هذا الأمر في أهل بيته ؛ فأنزل الله :

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنّا مُبْرَمُونَ * أَمْ يَحْسَبُونَ أَنّا لاَ نَسْمَعُ سِرّهُمْ وَنَجْوَىهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ . (23)

وهنا قال المجلسيّ الكلام التالي بوصفه جملة اعتراضيّة : «انظر هذا التدريج من النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ؛ والتلطّف من الله في نصّه على مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ؛ فأوّل أمره بالمدينة ، قال سبحانه : وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ؛ فنصّ على أنّ الأقرب إلى النبيّ أولى به من المؤمنين والمهاجرين . فعزل جلّ جلاله عن هذه الولاية المؤمنين والمهاجرين ، وخصّ بها أُولي الأرحام من سيّد المرسلين .

ثمّ انظر كيف نزل جبرئيل بعد خروجه إلى مكّة بالتعيين على عليّ ؛ فلمّا راجع النبيّ وأشفق على قومه من حسدهم لعليّ عليه السلام ؛ كيف عاد الله جلّ جلاله فأنزل : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ ؛ وكشف عن عليّ بذلك الوصف !

ثمّ انظر كيف مال النبيّ إلى التوطئة بذكر أهل بيته بمنى ؛ ثمّ عاد ذكرهم في مسجد الخيف .

ثمّ ذكر صاحب كتاب «النّشر والطّيّ» توجّه رسول الله من مكّة إلى المدينة ؛ ورجع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لله سبحانه وتعالى مَرّةً بَعْدَ مَرّةٍ ؛ وتكرّر من الله [الوحي] إلى رسول الله في ولاية عليّ . قال حذيفة : وأذن النبيّ بالرحيل نحو المدينة ؛ فارتحلنا . فنزل جبرئيل بضَجْنان ؛ وأمر رسول الله بالإعلان عن ولاية عليّ ؛ وخرج رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حتّى نزل الجُحْفَة ؛ فلمّا نزل القوم وأخذوا منازلهم [بأمر رسول الله ، ألقى تلك الخطبة الرائعة الغرّاء حول الولاية] .

ويبيّن الخطبة هنا مفصّلاً ؛ ويذكر في ذيلها عهد الناس وبيعتهم . (24)

ويروي الشيخ الأجلّ أبُو مَنْصُور أحْمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسيّ (25) فى كتاب «الاحتجاج» بسنده المتّصل عن عَلْقَمَة بن محمّد الحُضْرَميّ عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام : أنّ الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم حجّ من المدينة ؛ وقد بلّغ جميع الشرائع قومه غير الحجّ والولاية . فأتاه جبرئيل فقال له : يا مُحَمّد ، إنّ الله جَلّ اسْمُه يُقرؤك السلام ؛ ويقول لك : إنّي لم أقبض نبيّاً من أنبيائي إلّا بعد إكمال ديني وتأكيد حجّتي .

وقد بقي عليك من ذاك فريضتان ممّا تحتاج أن تبلّغهما قومك : فريضة الحجّ ، وفريضة الولاية والخلافة من بعدك . فإنّي لم أُخل أرضي من حجّة ولن أُخليها أبداً .

فإنّ الله جَلّ ثَناؤُه يأمرك أن تبلّغ قومك الحجّ ؛ وتحجّ . ويحجّ معك من استطاع إليه سبيلاً من أهل الحضر ، والأطراف ، والأعراب . وتعلّمهم من معالم حجّهم ؛ مثل ما علّمتهم من صلاتهم وزكاتهم وصيامهم ! وتوقفهم من ذلك على مثال الذي أوقفتهم عليه من جميع ما بلّغتهم من الشرائع !

فخرج رسول الله من المدينة لأداء مناسك الحجّ ؛ وخرج معه أهل المدينة . وبلغ من حجّ مع رسول الله سبعين ألف إنسان أو يزيدون على نحو عدد أصحاب موسى السبعين ألف الذين أخذ عليهم بيعة هارون فنكثوا واتّبعوا العجل والسامريّ .

وكذلك أخذ رسول الله صلّى الله عليه وآله البيعة لعليّ بالولاية والخلافة على عدد أصحاب موسى ، فنكثوا واتّبعوا العِجْلَ والسّامِرِيّ سُنّةً بِسُنّةٍ وَمِثْلاً بِمِثْلٍ . واتّصلت تلبية أهل المدينة الذين وفدوا إلى الحجّ ما بين مكّة والمدينة .

ونادى منادي رسول الله في المدينة أن يا أيّهَا النّاس ! إنّ رسول الله يريد الحجّ ، ويريد في سفره هذا أن يطلعكم على ما لم يطلعكم عليه من قبل ! ويعلّمكم شرائع الحجّ ويوقفكم عليها في ضوء النهج الذي علّمكم سائر شرائع الدين من خلاله !

ولمّا وقف رسول الله في الموقف ؛ أتاه جبرئيل عن الله عزّ وجلّ فقال : يا محمّد ! إنّ الله يقرؤك السلام ؛ ويقول لك : إنّه قد دنا أجلك ومدّتك ؛ وأنا مستقدمك على ما لابدّ منه ، ولا عنه محيص !

فاعهد عهدك ! وقدّم وصيّتك ؛ واعمد إلى ما عندك من العلم وميراث علوم الأنبياء من قبلك والسلاح والتابوت (صندوق العهد) ، وجميع ما عندك من آيات الأنبياء فسلّمه إلى وصيّك وخليفتك من بعدك ؛ حجّتي البالغة على خلقي عَلِيّ بن أبي طالبٍ عليه السلام . فأقمه للناس علماً ! وجدّد عهده وميثاقه وبيعته !

وذكّر الناس ما أخذت عليهم من بيعتي وميثاقي الذي واثقتهم ؛ وعهدي الذي عهدت إليهم : من ولاية وليّي ومولاهم ، ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة عَلِيّ بْنِ أبي طالبٍ عليه السلام .

فَإنّي لم أقبض نبيّاً من الأنبياء ، إلّا من بعد إكمال ديني ، وحجّتي ، وإتمام نعمتي باتّباع وليّي وطاعته . وذلك أنّي لا أترك أرضي بغير وليّ وقيّم ، ليكون حجّة لي على خلقي .

فَالْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً بِوَلَايَةِ وَلِيّي ؛ وَمَوْلَى كُلّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ عَلِيّ عَبْدِي ؛ وَوَصِيّ نَبِيّ ؛ وَالخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَحُجّتِيَ البَالِغَةِ عَلَى خَلْقِي ؛ مَقْرُونٌ طَاعَتُهُ بِطَاعَتِ مُحَمّدٍ نَبِيّي ، وَمَقْرُونٌ طَاعَتُهُ مَعَ طَاعَةِ مُحَمّدٍ بِطَاعَتِي ؛ مَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَنِي ؛ وَمَنْ عَصَاهُ فَقَدْ عَصَانِي ؛ جَعَلْتُهُ عَلَماً بَيْنِي وَبَيْنَ خَلْقِي ؛ مَنْ عَرَفَهُ كَانَ مُؤْمِناً ؛ وَمَنْ أَنْكَرَهُ كَانَ كَافِراً ؛ وَمَنْ أَشْرَكَ بَيْعَتَهُ كَانَ مُشْرِكاً ؛ وَمَنْ لَقِيَنِي بِوِلَايَتِهِ دَخَلَ الجَنّةَ ، وَمَنْ لَقِيَنِي بِعَدَوَاتِهِ دَخَلَ النّارَ .

فَأَقِمْ يَا مُحَمّدُ عَلِيّاً ؛ وَخُذْ عَلَيْهِمُ الْبَيْعَةَ ؛ وَجَدّدْ عَهْدِي وَمِيثَاقِي لَهُمُ الّذِي وَاثَقْهُمْ عَلَيْهِ ؛ فَإِنّي قَابِضُكَ إِلَيّ وَمُسْتَقْدِمُكَ عَلَيّ !

فخشى رسول الله صلّى الله عليه وآله من قومه وأهل النفاق والشقاق أن يتفرّقوا ؛ ويرجعوا إلى الجاهليّة ؛ لما عرف من عداوتهم ؛ ولما تنطوي عليه أنفسهم لعليّ من العداوة والبغضاء .

وسأل جبرئيل أن يسأل ربّه العصمة من الناس . وانتظر أن يأتيه جبرئيل بالعصمة من الناس عن الله جلّ اسمه .

فأخّر ذلك إلى أن بلغ مَسْجِدَ الخَيْفِ ؛ فأتاه جبرئيل فأمره بأن يعهد عهده ويقيم عليّاً علماً للناس يهتدون به ؛ ولم يأته بالعصمة من الله بالذي أراد حتّى بلغ كُرَاعَ الغَمِيمِ (26) بين مكّة والمدينة ؛ فأتاه جبرئيل وأمره بالذي

أتاه فيه من قبل الله ولم يأته بالعصمة .

فقال رسول الله : يا جبرئيل إنّي أخشى قومي أن يكذّبوني ؛ ولا يقبلوا قولي في عليّ . وقد علمنا أنّه كان قد طلب من جبرئيل نزول آية العصمة ، وأخّر جبرئيل ذلك . فرحل النبيّ ، فلمّا بلغ غدير خمّ قبل الجحفة بثلاثة أميال ؛ أتاه جبرئيل على خمس ساعات مضت من النهار بالزجر والانتهار والعصمة من الناس ، فقال : يا مُحَمّدُ ! إنّ الله عزّ وجلّ يقرؤك السلام ، ويقول لك : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رَسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ .

وكان أوائلهم قريبين من الجُحفة ؛ فأمر النبيّ بأن يُردّ من تقدّم منهم ؛ ويُحبس من تأخّر عنهم في ذلك المكان ليقيم عليّاً علماً للناس ، وقد عصمه الله من الناس .

ونادى منادٍ من قبل رسول الله : الصّلَاةَ جَامِعَةً . وتنحّى عن يمين الطريق إلى المكان الذي بنوا فيه مسجد الغدير فيما بعد . وأمر النبيّ أن يكنس ما تحت الأشجار ، وينصب له منبراً من الحجارة ؛ وصعد المنبر وبدأ بإلقاء خطبته .

هذه الخطبة مفصّلة للغاية . وبعد أن حمد الله سبحانه وتعالى وأثنى عليه ، تحدّث بنحو شافٍ ووافٍ ، فدلّ على حقيقة الدين وروح الإيمان ؛ واستشهد بآيات القرآن دليلاً على كلامه . وتكلّم بالتفصيل عن الولاية وروح الإمامة ؛ وعدم انفصالها عن القرآن الكريم . وخاطب الناس بقوله : مَعَاشِرَ النّاس في أربعة وخمسين موضعاً ، وبقوله : أيّهَا النّاسُ في موضع واحد ؛ وأخذ منهم إقرارهم واعترافهم ؛ وحاجّهم ، بحيث أقرّ له الجميع واعترفوا .

وقد أحجمنا هنا عن ذكر خصوصيّات تلك الخطبة مراعاة للإيجاز ؛ وللراغبين أن يرجعوا إلى كتاب «الاحتجاج» للطبرسيّ ، طبعة النجف ج 1 ، من ص 66 إلى 84 ؛ أو إلى «بحار الأنوار» طبعة الكمباني ج 9 ، من ص 224 إلى 228 .

يقول المجلسيّ بعد نقل هذه الخطبة : جاء في كتاب «كَشْف اليَقِين» عن أحمد بن محمّد الطبريّ من علماء المخالفين أنّه روى هذا الخبر كلّه في كتابه عن مُحَمّد بن أبي بَكْر بن عَبْد الرحمن ، عن الحسن بن عليّ بن أبي محمّد الدينوريّ ، عن محمّد بن موسى الهمدانيّ .

وروى أكثر هذه الخطبة ممّا يتعلّق بالنصّ والفضائل مؤلّف كتاب «الصّرَاط الْمُسْتَقِيم» عن محمّد بن جرير الطبريّ في كتاب «الوَلَايَة» بإسناده إلى زيد بن أرقم ؛ وروى هذه الخطبة كلّها الشّيْخ عَلِيّ بن يُوسُف بن المُطَهّر الحِلّيّ ، عن زيد بن أرقم . (27)

وذكر صاحب «الاحتجاج» أيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لمّا فرغ من هذه الخطبة ، رأى الناس رجلاً جميلاً بهيّاً طيّب الريح ، فقال : تالله ما رأيت كاليوم قطّ ، ما أشدّ ما يؤكّد لابن عمّه ، وإنّه لعقد له عقداً لا يحلّه إلّا كافر بالله العظيم وبرسوله الكريم ؛ ويلٌ طويل لمن حلّ عقده .

قال والتفت عُمَر بن الخطّاب [إلى النبيّ الأكرم] حين سمع كلامه فأعجبته هيئته ، ثمّ التفت إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وقال : أما سمعت ما قال هذا الرجل قال كذا وكذا ؟!

فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله : يا عمر ! أتدري مَن ذلك الرجل ؟! قال [عمر] : لا ! فقال النبيّ : ذلك الروح الأمين جبرئيل . فإيّاك أن تحلّ [العقد مع عليّ !] فإنّك إن فعلت ، فالله ورسوله وملائكته والمؤمنون منك براء . (28)

يقول أبو الفتوح الرازيّ في تفسيره : نقل أبو إسحاق الثّعْلَبي المُفَسّر إمام أصحاب الحديث في تفسيره الذي سمّاه «الكَشف والبيان» أنّ سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَة سُئل عن شأن نزول الآية : سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (29) فيمن

نزلت ؟!

فقال سفيان للسائل : سألتي عن مسألة ما سألني أحد عنها قبلك !

حدّثني أبي ، [30] عن أبي جعفر : محمّد بن عليّ ، عن أبائه صلوات الله عليهم أنّه لمّا بلغ رسول الله غدير خمّ ، أخبر الناس ؛ فاجتمعوا ، وأخذ بِيَدِ عليّ وقال : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ . فشاع هذا الخبر وطار في الأمصار ، ومَن بلغهم هذا الخبر : الحَارِثُ بنُ النّعْمَان الفَهْرِيّ .

فركب ناقته ، وتوجّه إلى رسول الله ، فجاء حتّى وصل إلى العسكر ؛ نزل من ناقته ثمّ عقلها ؛ ووجّه وجهه نحو خيمة رسول الله ؛ وكان رسول الله جالساً مع المهاجرين والأنصار .

فقال : يا محمّد ! جئتنا وقلت لنا : اتركوا آلهتكم الثلاثمائة والستّين ؛ وقولوا : الله واحد ! فقلنا . وقلت : قولوا : أنا رسول الله ! ونحن قلنا أيضاً . وأمرتنا أن نصلّي في اليوم والليلة خمس صلوات ! فقبلنا ذلك . وأمرتنا أن نصوم ! فقبلنا . وأمرتنا أن نزكّي أموالنا فقبلنا ! وأمرتنا أن نحجّ البيت ؛ فرضينا ؛ وأمرتنا بالجهاد ؛ فقبلنا .

ثمّ لم ترض بذلك كلّه حتّى رَفَعْتَ بِضَبْعِ [31] ابْنِ عَمّكَ فَرَفَعْتَهُ وَفَضّلْتَهُ عَلَيْنَا ، فَقُلْتَ : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ! فَهَذَا شيءٌ مِنكَ أَمْ مِنَ اللهِ ؟!

فقال رسول الله : وَاللهِ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ إِنّ هَذَا مِنَ اللهِ .

ولمّا سمع الحارث ذلك ، ولّى نحو ناقته وهو يقول : اللَهُمّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . [32]

فما إن أتمّ كلامه حتّى نزل حجر من السماء ، فوقع على رأسه ، فقتله في مكانه ، وأنزل الله تعالى هذه الآية:

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَ قِعٍ * لِلْكَفِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَ فِعٌ * مِنَ اللهِ ذِى الْمَعَارِجِ . [33]

فقد أرسل الله رحمته ، وهذا الرجل طلب العذاب ؛ فقيل له : لمّا كانت الرحمة لاتنفعك ، فليس لأحد أن يدفع عنك العذاب . مِنَ اللهِ ذِى الْمَعَارِجِ . ولقد أرسلتُ وِلَاية جعلتُ فيها كمال الدين وتمام النعمة

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ .

وذكر الشيخ الطبرسيّ هذا الحديث وشأن نزول الآية في وِلاية أمير المؤمنين عليه السلام بنفس الطريقة مع اختلاف وذلك في تفسير «مجمع البيان» بسنده المتّصل عن الحاكم أبي القاسم الحَسْكَانِيّ حتّى يصل إلى سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَة . إلّا أنّه أولاً : يسند الحديث إلى الإمام جعفر بن محمّد الصادق ؛ لا الإمام أبي جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام .

وثانياً : إن السائل عنده هو النُعْمَانُ بْنُ الحَرْثِ الفَهْرِيّ لا الحَارِث بْن النّعْمَان . غير أنّه قال في بداية حديثه : وقيل : إنّ القائل هو النّضْرُ بْنُ الحَارِثِ بْنُ كَلْدَة . [34]

وذكر المجلسيّ هذه الرواية في «البحار» عن «تفسير فرات بن إبراهيم» ؛ وكذلك عن «طرائف السيّد بن طاووس» ، عن الثعلبيّ ، وعن كتاب «كَنْز جَامِعِ الفَوَائِد» عن محمّد بن عبّاس بسنده عن سفيان بن عيينه أيضاً ؛ ثمّ قال [صاحب «الكنز» أروي هذا الحديث بسند آخر عن أبي بصير ، عن الإمام الصادق عليه السلام هكذا] :

تلا الإمام الصادق عليه السلام هذه الآية : سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَ قِعٍ لِلْكَفِرِينَ «بِوَلَايَةِ عَلِيّ» لَيْسَ لَهُ دَ فِعٌ . ثمّ قال : هكذا في مصحف فاطمة .

وروى البرقيّ عن محمّد بن سليمان ، عن أبيه ، عن أبي بصير ، عن أبي عبد الله (الصادق) أنّه قال : هَكَذَا وَاللهِ أَنْزَلَهَا جَبْرَئِيلُ عَلَى النّبِيّ ، وَهَكَذَا هُوَ مُثْبَتٌ فِي مُصْحَفِ فَاطِمَةَ . (35)

وأخرج المجلسيّ أيضاً حديثين آخرين عن «تفسير فُرَات بنِ إبراهيم» في شأن نزول الآية : سَأَلَ سَائِلٌ ، إذ نزلت في الأعرابيّ الذي طلب العذاب لِما سمعه من ولاية عليّ بن أبي طالب ؛ الأوّل : ذكر الحديث مُعَنعناً عن أبي هريرة ؛ والثاني : عن جعفر بن محمّد بن بشرويه القطّان مُعَنعناً عن الأوزاعيّ ، عن صَعْصَعَة بن صُوحان ، والأحنف بن قيس ، قالا جميعاً : سمعنا عن ابن عبّاس يقول : كنّا مع رسول الله إذ دخل علينا ذلك السائل ؛ ثمّ ذكر القضيّة كلّها . (36)

وفي كتاب «الغدير» عندما ينقل هذه الرواية عن أبي إسحاق الثّعْلَبيّ ، فإنّه ينقلها بنفس الألفاظ التي أتينا بها عن «تفسير أبي الفتوح» تقريباً ؛ مع هذا الفارق وهو أنّه أوّلاً : ينقل الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام ، وثانياً يقول : توجّه الحَرْثُ بْنُ النّعْمَان نحو رسول الله حتّى أتى الأبطح . (37) وكلمة الأبطح غير موجودة في رواية أبي الفتوح .

يضاف إلى هذه الرواية أنّه يذكر ثلاثين نصّاً في شأن نزول الآية عن تفاسير أهل السنّة وكتب تراجمهم ومناقبهم . (38) ومن ذلك يقول بأنّ السائل في رواية الحافظ أبي عُبَيْد الهَرَوِيّ في تفسير «غريب القرآن» هو جابر بن النّضْر بن الحارث بن كلدة العبدريّ .

ويقول في الهامش : لايبعد أن يكون السائل جابر بن النّضْر [بن الحارث] وإن ذكر الثعلبيّ الذي نقل عنه أكثر العلماء أنّه الحَارِثُ بن النّعْمَان الفَهْرِيّ . حيث إنّ جابراً قتل أميرُ المؤمنين عليه السلام والده النّضْر [بن الحارث] ، صَبْرَاً بأمر من رسول الله صلّى الله عليه وآله لمّا أُسر يوم بدر الكبرى . وكان الناس حديثي عهد بالكفر ، [ولم يتمكّن الإيمان من قلوبهم] ؛ ومن جرّاء ذلك كانت البغضاء محتدمةً بينهم على الأوتار الجاهليّة ، [وهي التي دفعت جابراً أن يقول ما قاله ثأراً لدم أبيه] . (39)

أقول : يؤيّد هذا الكلام أنّ الشخص في «تفسير أبي الفتوح» هو النضر بن الحارث بن كَلدة كما رأينا . ومن المؤكّد أنّه ليس النضر نفسه ، بل جابراً . ولمّا كانوا يدعون الأبناء بأسماء آبائهم غالباً ، فلهذا ذكروا على أنّه النضر .

وفيمايلي نتحدّث عن قوله تعالى : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبّكَ من حيث شأن النزول ، ومن حيث الدلالة ؛ ثمّ نعرّج على حديث غدير خُمّ : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ من حيث السند والدلالة . ذلك أنّ هذين البحثين : أعني : شأن نزول الآية بَلّغْ ، وحديث الولاية مستقلّان بعضهما عن بعض ولا ترابط بينهما .

أمّا في شأن نزول آية التبليغ ، فقد روى صاحب كتاب «غاية المرام» ثمانية أحاديث عن طريق الخاصّة ، وتسعة أحاديث عن طريق العامّة . (40)

ومن حيث الكتب الروائيّة والتفسيريّة والتأريخيّة لأصحابنا الإماميّة رضوان الله عليهم فلا خلاف بينهم في أنّ الآية نزلت في ولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو أمر متسالمٌ عليه فيما بينهم ؛ وننقل هنا عدداً من الروايات عن بعض مصادرهم الحديثيّة ؛ يتلو ذلك الروايات الواردة في كتب العامّة .

فقد روى مُحَمّدُ بْنُ يَعْقُوب الكُلَيْنِيّ عن محمّد بن يحيى ، عن أحمد بن محمّد ، ومحمّد بن الحسين جميعاً ؛ عن محمّد بن إسماعيل بن بزيع ، عن منصور بن يونس ، عن أبي الجارود ، عن أبي جعفر عليه السلام [أنّ أبا الجارود] قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول :

فرض الله عزّ وجلّ على العباد خمساً ، أخذوا أربعاً ؛ وتركوا واحداً !

قلتُ : أتسمّيهنّ لي جعلت فداك ؟!

فقال : الصلاة وكان الناس لايدرون كيف يصلّون ؛ فنزل جبرئيل عليه السلام فقال : يا محمّد أخبرهم بمواقيت صلاتهم !

ثمّ نزلت الزكاة ؛ فقال : يا محمّد ! أخبرهم من زكاتهم ! ما أخبرتهم من صلاتهم ! ثمّ نزل الصوم ، فكان رسول الله صلّى الله عليه وآله إذا كان يوم عاشوراء ، بعث إلى ما حوله من القرى ، فصاموا ذلك اليوم ، فنزل الصوم في شهر رمضان بين شعبان وشوّال .

ثمّ نزل الحجّ ؛ فنزل جبرئيل عليه السلام ، فقال : أخبرهم من حجّهم ! ما أخبرتهم من صلاتهم وزكاتهم وصومهم !

ثمّ نزلت الولاية وإنّما أتاه ذلك في يوم الجمعة بعرفة ، أنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ؛ وكان كمال الدين بولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

فقال عند ذلك رسول الله صلّى الله عليه وآله [وهو يتحدّث مع نفسه] : أُمّتي حديثو عهد بالجاهليّة . ومتى أخبرتهم بهذا في ابن عمّي [عَلِيّ] ، يقول قائل ؛ ويقول قائل آخر . فقلت في نفسي من غير أن ينطق به لساني . .

فأتتني عزيمة من الله عزّ وجلّ قبلة ، أوعدني إن لم أُبلّغ أن يعذّبني ؛ فنزلت [هذه الآية] : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رَسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَفِرِينَ . (41)

فأخذ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بِيَدِ عليّ عليه السلام ، فقال : أيّهَا النّاسُ ! إنّه لم يكن نبيّ من الأنبياء ممّن كان قبلي إلّا وقد عمّره الله ، ثمّ دعاه فأجابه ، فأُوشك أن أُدعى فأجيب ! وأنا مسؤول [أمام الله في الموقف] ؛ وأنتم مسؤولون أيضاً ! فماذا أنتم قائلون ؟! فقالوا : نشهد أنّك قد بلّغت ! ونصحتَ ، وأدّيتَ ما عليك ! فجزاك الله أفضل جزاء المرسلين .

فقال [النبيّ] : اللَهُمّ اشْهَدْ ثلاث مرّات ، ثمّ قال : يَا مَعْشَرَ المُسلِمِينَ ! هَذَا وَلِيّكُمْ بَعْدِي ، فَلْيُبَلّغِ الشّاهِدُ الغَائِبَ !

قال أبو جعفر عليه السلام : كان والله عليّ عليه السلام أمين الله على خلقه ، وغيبه ، ودينه الذي ارتضاه لنفسه .

ثمّ إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله حضره الذي حضر ؛ فدعا عليّاً ، فقال : يا عليّ ! إنّي أُريد أن أئتمنك على ما ائتمنني الله عليه من غيبه ، وعلمه ، ومن خلقه ، ومن دينه الذي ارتضاه لنفسه . فلم يشرك والله فيها يا زياد (أبو الجارود) أحداً من الخلق . (رسول الله لم يُشرك فيها أحداً) .

ثمّ إنّ عليّاً عليه السلام حضره الذي حضره ، فدعا ولده ، وكانوا اثني عشر ذكراً ؛ فقال لهم : يا بَنيّ ! إنّ الله عزوّ جلّ قد أبى إلّا أن يجعل فِيّ سنّة من يعقوب . وإنّ يعقوب دعا ولده ، وكانوا اثني عشر ذكراً ، فأخبرهم بصاحبهم . ألا وإنّي أُخبركم بصاحبكم ، [وآمرهم بطاعته وليّاً ومولىً لهم] .

ألا إنّ هذين ابنا رسول الله : الحسن ، والحسين عليهما السلام . فاسمعوا لهما وأطيعوا ؛ ووازروهما ! فإنّي قد ائتمنتهما على ما ائتمنني عليه رسول الله صلّى الله عليه وآله ممّا ائتمنه الله عليه من خلقه ، ومن غيبه ، ومن دينه الذي ارتضاه لنفسه .

فأوجب الله لهما من عليّ ما أوجب لعليّ من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ؛ فلم يكن لأحد منهما (الحسنين) فضل على صاحبه إلّا بكبره . وإنّ الحسين عليه السلام كان إذا حضر الحسن عليه السلام لم ينطق

في ذلك المجلس حتّى يقوم .

ثمّ إنّ الحسن عليه السلام حضره الذي حضره فسلّم ذلك إلى الحسين عليه السلام . ثمّ إنّ الحسين عليه السلام حضره الذي حضره ، فدعا بنته الكبرى : فَاطِمَةَ بِنْتَ الحُسَيْنِ عليه السلام ، فدفع إليها كتاباً ملفوفاً ووصيّة ظاهرة . وكان عليّ بن الحسين عند استشهاد أبيه الحسين عليه السلام مبطوناً لا يرون إلّا أنّه لما به .

فدفعت فَاطِمَةُ بِنْتُ الحُسَيْنِ الكتاب والوصيّة إلى عَلِيّ بْنِ الحُسَيْنُ ؛ ثمّ صار والله ذلك الكتاب إلينا . (42)

وروى الكلينيّ هذه الرواية بسند آخر ، عن الحسين بن محمّد ، عن معلّى بن محمّد ، عن محمّد بن جمهور ، عن محمّد بن إسماعيل بن بَزيع ، عن منصور بن يونس ، عن أبي الجارود ، عن الإمام الباقر عليه السلام مثلها . (43)

وروى الكلينيّ أيضاً عن محمّد بن يحيى ، عن محمّد بن الحسين ، وأحمد بن محمّد ، عن ابن محبوب ، عن محمّد بن فُضَيل ، عن أبي حمزة الثّماليّ ، عن أبي جعفر [الباقر] عليه السلام قال [أبو حمزة] : سمعته يقول : لمّا أن قضى محمّد نبوّته ، واستكمل أيّامه ، أوحى الله تعال إليه أن يا مُحَمّد ! قد قضيتَ نبوّتك واستكملت أيّامك .

فاجعل العلم الذي عندك ، والإيمان ، والاسم الأكبر ، وميراث العلم وآثار علم النبوّة في أهل بيتك عند عَلِيّ بنِ أَبي طَالِبٍ !

فإنّي لن أقطع العلم والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوّة من العقب من ذرّيّتك كما لم أقطعها من ذرّيّات الأنبياء . (44)

وروى الكلينيّ كذلك عن محمّد بن الحسين وغيره ، عن سهل ، عن محمّد بن عيسى ، ومحمّد بن يحيى ، ومحمّد بن الحسين جميعاً عن محمّد بن سِنان ، عن إسماعيل بن جابر ، وعبد الكريم بن عمرو ، عن عبد الحميد بن أبي الديلم ، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال :

أوصى موسى إلى يُوشَع بن نُون ، وأوصى يوشع بن نون إلى ولد هارون ؛ ولم يوص إلى ولده ولا إلى ولد موسى . إنّ الله تعالى له الخيرة ، يختار من يشاء ، ممّن يشاء ، وبشّر موسى ويوشع بالمسيح .

فلمّا أن بعث الله المسيح ، قال المسيح لهم : إنّه سوف يأتي من بعدي نبيّ اسمه أحمد من ولد إسماعيل ؛ يجيء بتصديقي (في الرسالة وصحّة الولادة) ؛ وتصديقكم (في الإيمان وحسن المتابعة) ، وعذري وعذركم .

وجرت تلك الوصيّة والسنّة والخيرة من بعده في الحواريّين من المُسْتَحْفَظين . (45) وإنّما سمّاهم الله المُسْتَحْفَظين لأنّهم استحفظوا الاسم الأكبر ، وهو الكتاب الذي يعلّم به علم كلّ شيء . قال الله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَبَ وَالْمِيزَانَ . (46)

والكتاب الاسم الأكبر ، وإنّما عرف ممّا يدّعى الكتاب : التّوْرَاة ، وَالْإِنْجِيل ، وَالْفُرْقَان ؛ فيها : كتاب نُوح ، وكتاب صَالِح ، وكتاب شُعَيب وإبراهيم ، فأخبر الله عزّ وجلّ : إِنّ هَذَا لَفِى الصّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَ هِيمَ وَمُوسَى . (47)

فأين صُحف إبراهيم ؟ إنّما صحف إبراهيم الاسم الأكبر ؛ وصحف موسى الاسم الأكبر . فلم تزل الوصيّة في عالم بعد عالم حتّى دفعوها إلى مُحَمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم .

فلمّا بعث الله عزّ وجلّ محمّداً ، أسلم له العقب من المُسْتَحْفِظين . وكذّبه بنو إسرائيل . ودعا إلى الله عزّ وجلّ ، وجاهد في سبيله .

ثمّ أنزل الله جلّ ذكره عليه أن أعلن فضل وصيّك ! فقال : ربّ ! إنّ العرب قوم جفاة ؛ فظّين في المعاشرة والمعاملة ، وليسوا من أهل الرفق والمداراة ! لم يكن فيهم كتاب ، ولم يبعث إليهم نبيّ ؛ ولا يعرفون فضل نبوّات الأنبياء عليهم السلام ، ولا شرفهم . ولا يؤمنون بي إن أنا أخبرتهم بفضل أهل بيتي ، فقال الله جَلّ ذِكْرُهُ : وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوفَ تَعْلَمُونَ . (48)

فذكر من فضل وصيّه ذكراً ، فوقع النفاق في قلوبهم . فعلم رسول الله صلّى الله عليه وآله ذلك وما يقولون ، فقال الله جَلّ ذِكْرُهُ : يَا مُحَمّدُ ! وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَإِنّهُمْ لَا يُكَذّبُونَكَ وَلَكِنّ الظّلِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ . (49)

ولكنّهم يجحدون بغير حجّة لهم . وكان رسول الله يتألّفهم ويستعين ببعضهم على بعض ، ولا يزال يخرج لهم شيئاً في فضل وصيّه حتّى نزلت سورة الانشراح : أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وهنا قال تعالى : فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبّكَ فَارْغَبْ . (50) يقول : إذا فرغت فانصب علمك ! (51) وأعلن وصيّك ، فأعلمهم فضله علانية !

فقال رسول الله : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ . اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ! وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ! ثلاث مرّات .

ثمّ قال : لَأَبْعَثَنّ رَجُلاً يُحِبّ اللهَ وَرَسُولَهُ ؛ وَيُحِبّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ ، لَيْسَ بِفَرّارٍ . يعرّض بمن رجع ، يجبّن أصحابه ويجبّنونه . (إشارة إلى فرار أبي بكر وعمر من الحرب ؛ بعد أن كلّفهما رسول الله بذلك قبل يومين من تكليف أمير المؤمنين عليه السلام بالفتح ، ففرّا) .

وقال أيضاً : عَلِيّ سَيّدُ المُؤمِنِينَ .

وقال أيضاً : عَلِيّ عَمُودُ الدّينِ .

وقال أيضاً : هَذَا الّذِي يَضْرِبُ النّاسَ بِالسّيْفِ عَلَى الحَقّ بَعْدِي .

وقال أيضاً : الحَقّ مَعَ عَلِيّ أَيْنَمَا مَالَ .

وقال أيضاً : إنّي تَارِكٌ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ ؛ إن أَخَذْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلّوا : كِتَابَ اللهِ عَزّ وَجَلّ ، وَأَهْلَ بَيْتِي عِتْرَتِي ؛ أَيّهَا النّاسُ اسْمَعُوا وَقَدْ بَلّغْتُ : إنّكُمْ سَتَرِدُونَ عَلَيّ الْحَوْضَ ! فَأَسْأَلُكُمْ عَمّا فَعَلْتُمْ فِي الثّقَلَيْنِ .

وَالثّقَلَانِ كِتَابُ اللهِ جَلّ ذِكْرُهُ وَأَهْلُ بَيْتِي ! فَلَا تَسْبِقُوهُمْ فَتَهْلِكُوا ! وَلَا تُعَلّمُوهُمْ فَإِنّهُمْ أَعْلَمُ مِنْكُمْ !

وعلى هذا وقعت الحجّة بقول النبيّ صلّى الله عليه وآله وبالكتاب الذي يقرأه الناس . فلم يزل يلقي فضل أهل بيته بالكلام ويبيّن لهم بالقرآن : إِنّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهّرَكُمْ تَطْهِيرًا . (52)

وقال عزّ ذكره : وَاعْلَمُوا أَنّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَأَنّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى . (53)

ثمّ قال : وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقّهُ . (54)

فكان عليّ عليه السلام . وكان حقّه الوصيّة التي جعلت له ، والاسم الأكبر ، وميراث العلم ، وآثار علم النبوّة .

وقال : قُلْ لَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلّا الْمَوَدّةَ فِى الْقُرْبَى . (55)

وقال : وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَىّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ . (56)

يقول : أسألكم عن المودّة التي أُنزلت عليكم فضلها : مودّة القربى بأيّ ذنب قتلتموهم ؟!

وقال جلّ ذكره أيضاً : فَسْئَلُوا أَهْلَ الذّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . (57)

قال الإمام : المراد من الذكر هو الكتاب ، أي : القرآن الكريم . وأهله آل محمّد صلّى الله عليه وآله ؛ أمر الله بسؤالهم ، ولم يؤمروا بسؤال الجهّال .

وسمّى الله عزّ وجلّ القرآن ذكراً ، فقال :

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . (58)

وقال أيضاً : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ . (59)

وقال كذلك : أَطِيعُوا اللهَ وَاطِيعُوا الرّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنكُمْ . (60)

وقال أيضاً : وَلَوْ رَدّوهُ (إِلَى اللهِ) إِلَى الرّسُولِ وَإِلَى أُولِى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعِلَمَهُ الّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ . (61)

ونرى هنا أنّه ردّ الأمر . أمر الناس . إلى أُولى الأمر منهم ، الذين أمر الله الناس بطاعتهم وبالردّ إليهم .

ولمّا رجع رسول الله صلّى الله عليه وآله من حجّة الوداع ، نزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رَسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَفِرِينَ . (62)

وبعد نزول هذه الآية ، نادى رسول الله الناس فاجتمعوا . وأمر بسَمُرات فكُنِس ما تحتهنّ ؛ وألقى خطبته فقال فيها : [يَا] أَيّهَا النّاسُ مَنْ وَلِيّكُمْ وَأَولَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ؟! فَقَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ . فَقَالَ : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ، اللَهُمّ وَالِ مَن وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ .

فوقعت حسكة النفاق في قلوب القوم ، وقالوا : ما أنزل الله هذا على مُحَمّدٍ قَطّ ، وَمَا يُرِيدُ إِلّا أَنْ يَرْفَعَ بِضَبْعِ ابْنِ عَمّهِ .

ولمّا قدم المدينة ، أتاه الأنصار فقالوا : يَا رَسُولَ اللهِ ! إنّ الله قد أحْسَن إلينا وشرّفنا بك وبنزولك بين ظهرانينا . فقد فرّح الله صديقنا وكبّت عدوّنا . وقد يأتيك وفود ، فلا تجد ما تعطيهم افيشمت بك العدوّ .

فنحبّ أن تأخذ ثلث أموالنا ، حتّى إذا قدم عليك وفد مكّة ؛ وجدتَ ما تعطيهم .

فلم يردّ النبيّ عليهم شيئاً ، وكان ينتظر ما يأتيه من ربّه . فنزل جبرئيل عليه السلام وقال :

قُلْ لَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلّا الْمَوَدّةَ فِى الْقُرْبَى . (63)

ولم يقبل رسول الله صلّى الله عليه وآله أموالهم ، فقال المنافقون : ما أنزل الله هذا على مُحَمّدٍ أيضا . وما يريد إلّا أن يرفع بضبع ابن عمّه ؛ ويحمل علينا أهل بيته ؛ يقول أمس : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ . ويقول اليوم : قُلْ لَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيِهِ أَجْرًا إِلّا الْمَوَدّةَ فِى الْقُرْبَى . ثمّ نزلت عليه آية الخمس ، فقالوا : يريد أن يعطيهم أموالنا وفيئنا .

وبعد هذه الأحداث ، أتاه جبرئيل فقال : يا محمّد ، إنّك قد قضيت نبوّتك ، واستكملت أيّامك ؛ فاجعل الاسم الأكبر ، وميراث العلم ، وآثار علم النبوّة عند عليّ عليه السلام ! فإنّى لم أترك الأرض إلّا ولي فيها عالم تعرف به طاعتي ، وتعرف به ولايتي ؛ ويكون حجّة لمن يولد بين قبض النبيّ إلى خروج النبيّ الآخر .

قال الإمام الباقر عليه السلام : ...فأوصى [النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم] إليه [أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام] بالاسم الأكبر ، وميراث علم [الأنبياء] ، وآثار علم النبوّة ؛ وأوصى إليه بألف كلمة وألف باب ، تفتح كلّ كلمة وكلّ باب ألف كلمة وألف باب . (64)

وروى العيّاشيّ في تفسيره مضمون هذه الرواية بنحو موجز نوعاً ما ، وذلك عن راويها أبي الجارود ، عن الإمام الباقر عليه السلام (65) مع هذه الزيادة . وهي أنّ الإمام الباقر عليه السلام لمّا كان يحدّث الناس

بالأبطح ، قام إليه رجل من أهل البصرة يقال له : عُثْمَان الأعشَى ؛ وقال له : يا ابن رسول الله ! جعلت فداك ؛ إنّ الحسن البصريّ حدّثنا حديثاً يزعم أنّ هذه الآية نزلت في رجل ؛ ويخبرنا من الرجل ؟!

[فقال الإمام] : مَا لَهُ لَا قَضَى اللهُ دَيْنَهُ . يَعْنِي صَلَاتَهُ . أَمَا أَنْ لَوْ شَاءَ أَنْ يُخْبِرَ بِهِ لَأَخْبَرَ بِهِ . (66)

وروي عن الشيخ الصدوق بسلسلة سنده المتّصل عن مُحَمّدِ بنِ الفَيْضِ بنِ المُخْتَارِ ، عن أبيه ، عن أبي جعفر محمّد بن عليّ الباقر ، عن أبيه ، عن جدّه قال : خرج رسول الله صلّى الله عليه وآله ذات يوم وهو راكب ؛ وخرج [أمير المؤمنين] عليه السلام وهو يمشى . فقال : يا أبا الحسن ! إمّا أن تركب ؛ وإمّا أن تنصرف ! فإنّ الله عزّ وجلّ أمرني أن تركب إذا ركبتُ ! وتمشي إذا مشيتُ ! وتجلس إذا جلستُ ! إلّا أن يكون حدّ من حدود الله لابدّ لك من القيام [به] !

وما أكرمني بكرامة ؛ إلّا وأكرمك بمثلها ! وخصّني الله بالنبوّة والرسالة ؛ وجعلك ولِيّي في ذلك : تقوم في حدوده ! وفي أصعب أُموره ! والذي بعث محمّداً بالحقّ نبيّاً ؛ ما آمن بي من أنكرك ! ولا أقرّ بي ، من جحدك ! ولا أَمَرَ بي من كفر بك ! وإنّ فضلك من فضلي ؛ وإنّ فضلي لفضل الله ؛ وهو قول الله عزّ وجلّ : قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَ لِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمّا يَجْمَعُونَ . (67)

يعني فضل الله نبوّة نبيّكم ! ورحمة الله ولاية عليّ بن أبي طالب . فَبِذَ لِكَ قال بالنبوّة والولاية . فَلْيَفْرَحُوا يعني الشيعة ؛ خَيْرٌ مِمّا يَجْمَعُونَ يعني مخالفيهم من الأهل والمال والولد في دار الدنيا . والله يا عليّ ! ما خُلِقْتَ ، إلّا لتعبد ربّك ! وليعرف بك معالم الدين ! وتصلح بك دارس السبيل ! ولقد ضلّ من ضلّ عنك ! ولن يهتدي إلى الله من لم يهتد إليك وإلى ولايتك ؛ قال الله : وَإِنّى لَغَفّارٌ لّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمّ اهْتَدَى . (68)

يعني : اهتدى إلى ولايتك .

ولقد أمرني تبارك وتعالى أن أفترض من حقّك ما افترضه من حقّي ؛ وإنّ حقّك لمفروض على من آمن بي . ولولاك لم يُعْرَف حزب الله ! وبكَ يُعْرَف عدوّ الله .

ومن لم يلقه بولايتك ؛ لم يلقه بشيء ! وقد أنزل الله عزّ وجلّ إليّ : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ يعني في ولايتك يا عليّ ! وإن لم تفعل ، فما بلّغت رسالته !

ولو لم أُبلّغ ما أُمرت به من ولايتك ؛ لحبط عملي ! ومن لقي الله عزّ وجلّ بغير ولايتك ، فقد حبط عمله !

وغداً ينجز لي الله ما وعدني ! وما أقول إلّا قول ربّي تبارك وتعالى ؛ إنّ الذي أقول لمن الله عزّ وجلّ أنزله فيك . (69)

وأخرج العيّاشيّ عن المُفَضّل بن صالح ، عن بعض أصحابه ، عن أحدهما [الإمام الباقر أو الإمام الصادق عليهما السلام] قال : إنّه لمّا نزلت هذه الآية : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلوةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوةَ وَهُمْ رَ كِعُونَ . (70) شقّ ذلك على النبيّ صلّى الله عليه وآله ، وخشي أن تكذّبه قريش ، فأنزل الله هذه الآية : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ . فقام بذلك يوم غدير خمّ . (71)

وروى العيّاشيّ أيضاً عن صفوان الجمّال قال : قال أبو عبد الله (الصادق) عليه السلام : لمّا نزلت هذه الآية بالولاية ، أمر رسول الله صلّى الله عليه وآله بالدّوْحَات دوحات غدير خمّ فقمّت (الدوحات جمع دَوْحَه ، وهي الشجرة الكبيرة التي تظلّل بسبب كثرة أغصانها ؛ والمراد السمرات الخمس) ثمّ ، نودي : الصّلَاةَ جَامِعَةَ ، ثمّ قال :

أَيّهَا النّاسُ أَلَسْتُ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ؟ قالوا : بلى ! قال : فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ؛ رَبّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ! وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ !

ثمّ أمر الناس ببيعة أمير المؤمنين عليه السلام وبايعه الناس كلّهم ، لا يجيء أحد إلّا بايعه ؛ لا يتكلّم حتّى جاء أبو بكر ، فقال النبيّ : يا أبا بكر بايع عليّاً بالولاية !

فقال [أبو بكر] : مِنَ اللهِ (أ) ومِنْ رَسُولِهِ ؟!

فقال [النبيّ] : مِنَ اللهِ وَمِنْ رَسُولِهِ .

ثمّ جاء عمر ؛ فقال [له النبيّ] : بايع عليّاً بالولاية !

فقال [عمر] : مِنَ الله (أ) ومِنْ رَسُولِهِ ؟!

فقال [النبيّ] : مِنَ اللهِ وَمِنْ رَسُولِهِ .

ثمّ ثنى [عمر] عطفيه والتقيا ، فقال لأبي بكر : تَشَدّ مَا يَرْفَعُ بِضَبْعَي ابْنِ عَمّهِ .

ويعرض الإمام الصادق عليه السلام هنا قضيّة لقاء عمر بذلك الرجل الحسن الطيّب الريح .

ثمّ قال : لقد حضر الغدير اثنا عشر ألف رجل يشهدون لعليّ بن أبي طالب عليه السلام [بالولاية] ؛ فما قدر عليّ على أخذ حقّه . وإنّ أحدكم يكون له المال وله شاهدان فيأخذ حقّه . فَإِنّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ . (72) في عليّ عليه السلام . (73)

وروى العيّاشيّ أيضاً عن أبي صالح ، عن ابن عبّاس ، وجابر بن عبد الله ، قالا : أمر الله تعالى نبيّه أن ينصب عليّاً عَلَماً للناس ، ليخبرهم بولايته . فتخوّف رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يقولوا : حامى ابن عمّه ، وأن يطغوا في ذلك عليه . فأوحى الله إليه :

يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رَسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ ؛ فقام رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بولايته يوم غدير خمّ . (74)

وأخرج العيّاشيّ أيضاً عن حنان بن سدير ، عن أبيه ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : لمّا نزل جبرئيل على رسول الله صلّى الله عليه وآله في حجّة الوداع بإعلان أمر عليّ بن أبي طالب بقوله تعالى : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ ، مكث النبيّ ثلاثة أيّام حتّى أتى الجحفة ؛ فلم يأخذ بِيَدِ عليّ فَرقاً من الناس .

فلمّا نزل الجحفة يوم الغدير في مكان يقال له : مَهْيَعَة ، ونادى : الصّلَاةَ جَامِعَةً ، فاجتمع الناس ؛ فقال رسول الله : مَنْ أَولَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُم ؟! فجهروا وقالوا : اللهُ وَرَسُولُهُ .

ثمّ قال لهم الثانية ؛ فقالوا : اللهُ وَرَسُولُهُ . ثمّ قال لهم الثالثة ، فقالوا : اللهُ وَرَسُولُهُ .

فأخذ [النبيّ] بِيَدِ عليّ عليه السلام ، فقال : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ، اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ ، فَإِنّهُ مِنّي وَأَنَا مِنْهُ ، وَهُوَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي . (75)

وجاء عن العيّاشيّ أيضاً ، عن عُمَر بن يزيد قال أبو عبد الله (الصادق) عليه السلام ابتداءً منه : العَجَب يا أبا حَفص ، لما لقي عليّ بن أبي طالب إنّه كان له عشرة آلاف شاهد ، ولم يقدر على أخذ حقّه ؛ والرجل يأخذ حقّه بشاهدين .

إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله خرج من المدينة حاجّاً ؛ وتبعه خمسة آلاف ؛ ورجع من مكّة ، وقد شيّعه خمسة آلاف من أهل مكّة ؛ فلمّا انتهى إلى الجحفة ، نزل جبرئيل بولاية عليّ . وقد كانت نزلت ولايته بمنى ؛ وامتنع رسول الله صلّى الله عليه وآله من القيام بها لمكان الناس . فقال [جبرئيل وحياً من الله] :

يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رَسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ .

[والله يعصمك من الناس] ممّا كرهت بمنى . فأمر رسول الله فقمّت السّمُرات . فقال رجل من الناس : أما والله ليأتينّكم بداهية [وأمر منكر] .

فقلتُ لعُمَر [بن يزيد راوي هذه الرواية] : مَنِ الرجل ؟ قال : الحَبَشيّ . (76)

وجاء في «غاية المرام» : الَحَبَشِيّ يَعْنِي عُمَرَ بْنَ الخَطّابِ . (77)

ويقول في «بحار الأنوار» في ذيل هذه الرواية : الَحَبَشِيّ هُوَ عُمَرُ لِانْتِسَابِهِ إِلَى الصّهّاكَةِ الحَبَشِيّةِ . (78)

(78)

وروى العيّاشيّ أيضاً عن أبي الجارود ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : لمّا أنزل الله على نبيّه : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رَسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ ؛ فأخذ رسول الله بِيَدِ عليّ ؛ فقال : أيّها الناس ، إنّه لم يكن نبيّ من الأنبياء ممّن كان قبلي إلّا وقد عمّر ؛ ثمّ دعاه الله ؛ فأجابه ؛ وأوشك أن أُدعى ، فأُجيب ؛ وأنا مسؤول وأنتم مسؤولون ! فما أنتم قائلون ؟!

قالوا : نشهد أنّك قد بلّغت ونصحت وأدّيت ما عليك ! فجزاك الله أفضل ما جزى المرسلين .

فقال رسول الله : اللَهُمّ اشْهَدْ ! ثم قال : يَا مَعْشَرِ المُسْلِمِينَ ! ليبلّغ الشَاهِدُ الغَائِب . [قال الله لي] وأوصى : من آمن بي ، وصدّقني ؛ [فعليه] بولاية عليّ . ألا إنّ ولاية عليّ ولايتي (وولايتي ولاية ربّي) ولا يدري[ولا تدرون . ظ] عهداً عهده إليّ ربّي وأمرني أن أُبلّغكموه .

ثمّ قال : هَلْ سَمِعْتُمْ ؟! ثَلاَثَ مَرّاتٍ يقولها .

فقال قائل : قَد سَمِعْنَا يَا رَسُولُ اللهِ . (79)

فهذه بعض الروايات التي عرضناها نقلاً عن طريق الشيعة ؛ وفيما يلي عدد من الأحاديث والروايات التي أخرجها مشايخ العامّة وأعلامهم في كتبهم .

فقد أخرج الحافظ ابن عَسَاكِر الشافعيّ بإسناده عن أبي سَعيدٍ الخُدريّ قال نزلت هذه الآية : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يوم غدير خمّ في عليّ بن أبي طالبٍ . (80)

وروى الحافظ الحاكم الحَسْكانيّ الحنفيّ في كتاب «شواهد التنزيل» ثماني روايات بثمانية أسناد مختلفة تنتهي إلى أبي هُرَيرة ، وأبي إسحاق الحميديّ (الخدريّ . خ) ، وابن عبّاس ، والحبريّ ، وقَيْس بن مَاصِر عن عبد الله بن أبي أوفى ، وزياد بن المنذر أبي الجارود ، وجابر بن عبد الله قالوا : الآية : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ نزلت في عليّ بن أبي طالب عليه السلام يوم عيد الغدير . وجاء في بعضها أنّ النبيّ رفع يد عليّ حتّى بان بياض إبطيهما فقال : أَلَا مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ؛ اللَهُمّ وَالِ مَن وَالَاهُ ! وَعَادِ مَن عَادَاهُ . ثمّ قال : اللَهُمّ اشْهَدْ !

ومضمون الرواية التي ينقلها عن زياد بن المنذر (أبي الجارود) يماثل تقريباً مضمون الرواية التي ذكرناها أخيراً عن «تفسير العيّاشيّ» عن أبي الجارود .

والحديث الذي يرويه عن الأعمش ، عن عبايه بن ربعي ، عن ابن عبّاس ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله هو حديث المعراج ، إلى أن يقول الله : وَإنّي لَمْ أَبْعَثْ نَبِيّاً إلّا جَعَلْتُ لَهُ وَزِيراً ، وَإِنّكَ رَسُولُ اللهِ وَإِنّ عَلِيّاً وَزِيرُكَ !

يقول ابن عبّاس : فهبط رسول الله ؛ وكره أن يحدّث الناس بشيء منها ، إذ كانوا حديثي عهد بالجاهليّة ؛ حتّى مضى من ذلك ستّة أيّام ، فأنزل الله : فَلَعَلّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ !

واحتمل النبيّ هذا أيضاً ؛ حتّى كان يوم الثامن عشر ، فأنزل الله : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ . فأمر رسول الله بلالاً حتّى يؤذّن في الناس أن لا يبقى غداً أحد إلّا خرج إلى غدير خمّ . فخرج رسول الله والناس من الغد ، فقال : أَيّهَا النّاسُ ! إنّ اللهَ أَرْسَلني إِلَيْكُم بِرِسالَة ، وَإنّي ضقت بِهَا ذَرعاً مَخافَة أن تتّهموني وتكذّبوني ، حتّى عاتبني رَبّي فِيها بِوعيد أَنْزَلَهُ عليّ بَعْدَ وعيد ! ثمّ أخذ بِيَدِ عليّ بن أبي طالب فرفعها حتّى رأى الناس بياض إبطيهما ، ثمّ قال : أَيُهَا النّاسُ ! اللهُ مَوْلَايَ وَأَنَا مَوْلَاكُمْ ! فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ! اللَهُمّ وَالِ

مَن وَالَاهُ ! وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ! وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ! وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ ! فأنزل الله هذه الآية : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . (81)

يقول الحاكم الحَسْكانيّ في ذيل الحديث الذي يرويه عن الحبريّ : وطرق هذا الحديث مستقصاة في كتاب «دُعَاء الهُدَاةِ إلَى أَدَاءِ حَقّ المُوَالَاةِ» حول ولاية عليّ بن أبي طالب ، (من تصنيفي في عشرة أجزاء) .

ويقول المرحوم السيّد ابن طاووس : ومن الذين ألّفوا كتاباً في حديث الغدير : الحاكم الحَسْكانيّ الذي سمّى كتابه : «دُعَاءَ الهُدَاةَ إلَى أَدَاءِ حَقّ المُوَالَاةِ» . (82)

يقول جَلَالُ الدّين السّيُوطِيّ الشّافِعِيّ في تفسير «الدرّ المنثور» قوله تعالى : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إلَيْكَ ؛ الآية أخرج أبو الشيخ عن الحَسَن أنّ رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم قال : إنّ الله بعثني برسالة فضقت بها ذرعاً ؛ وعرفت أنّ الناس مكذّبي ، فوعدني لأُبلّغنّ ، أو ليعذّبني ، فأنزل [هذه الآية] يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رّبّكَ .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ [أيضاً] عن مجاهد قال : لمّا نزلت : بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رّبّكَ ، قال رسول الله : يا ربّ ! إنّما أنا واحد ! كيف أصنع يجتمع عَلَيّ الناس ؟ فنزلت : وَإن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رَسَالَتَهُ !

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، عن أبي سعيد الخُدريّ أنّ الآية : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رّبّكَ نزلت على رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم في عليّ بن أبي طالب يوم غدير خمّ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مَسْعُود ، قال : كنّا نقرأ على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مآ أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رّبّكَ إنّ عَلِيّاً مَوْلَى المُؤْمِنِينَ . وَإن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رَسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ . (83)

يقول الإمام الفخر الرازيّ الشافعيّ في «التفسير الكبير» : والوجه العاشر من الوجوه الواردة في شأن نزول آية التبليغ هو أنّها «نزلت الآية في فضل عليّ بن أبي طالب عليه السلام ؛ ولمّا نزلت هذه الآية ، أخذ [رسول الله] بِيَدِ عليّ وقال : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ! اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ . ولمّا لقيه عمر رضي الله عنه قال : هَنِيئاً لكَ يَا ابْنَ أَبي طَالِبٍ ! أَصْبَحْتَ مَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ .

وهو قول ابن عبّاس ، والبراء بن عازب ، ومحمّد بن عليّ . (84)

ويقول نظام الدين القمّيّ النيسابوريّ في تفسيره : ثمّ أمر الله رسوله أن لا ينظر إلى قلّة المقتصدين ، وكثرة المعاندين ، ولا يتخوّف مكروههم ، فقال : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ . وعن أبي سعيد الخُدريّ أنّ هذه الآية نزلت في فضل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم الله وَجْهَه يوم غدير خمّ .

فأخذ رسول الله صلّى الله عليه وآله بيده وقال : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيّ مَوْلَاهُ . اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ؛ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ . فلقيه عمر وقال : هنيئاً لَكَ يَا ابْنَ أبي طَالِبٍ ! أَصْبَحْتَ مَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ ! وهو قول عبد الله بن عبّاس ، والبراء بن عازب ، ومحمّد بن عليّ . (85)

وجاء في هذه الرواية عبارة فَهَذَا عَلِيّ مَوْلَاهُ بنحو خاصّ ؛ وهَذَا التي تشير إلى شخص خارجيّ تدلّ على التأكيد في التعيّن والتشخّص . وروي عن أبي إسحاق الثعلبيّ النيسابوريّ في تفسيره : «الكَشْف والبيان» روايتان : الأُولى : عن أبي جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام ، وفيها أنّ معنى بَلّغْ هو : بَلّغْ مآ أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رّبّكَ فِي فَضْلِ عَلِيّ . ولمّا نزلت هذه الآية ، أخذ رسول الله صلّى الله عليه وآله بِيَدِ عليّ وقال : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ .

الثانية : بسنده عن ابن عبّاس في قوله تعالى : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ . الآية ؛ قال : نزلت هذه الآية في عليّ . أمر الله نبيّه أن يبلّغ ولاية عليّ ؛ فأخذ رسول الله يد عليّ وقال : مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَليّ مَوْلاَهُ ، اللّهُمّ وَالِ مَنْ وَالاَهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ . وقد نقل صاحب «الغدير» في ج 1 ، ص 217 و218 هذين الحديثين في كتابه عن الثعلبيّ . وذكر مصادرهما كلّ من ابن البطريق في «العُمدة» ص 49 ، والسيّد ابن طاووس في «الطرائف» ، والأربليّ في «كشف الغمّة» ص 94 ، وذكر الطبرسيّ في «مجمع البيان» ج 2 ص 223 الحديث الثاني عن تفسير «الكشف والبيان» ؛ والحديث الأوّل عن ابن شهرآشوب في «المناقب» ج 1 ص 526 . ونقل أُستاذنا العلاّمة الطباطبائيّ رضوان الله عليه ثلاث روايات عن «تفسير الثعلبيّ» : اثنتين منها عن الإمام الباقر عليه السلام ، وواحدة عن ابن عبّاس . «الميزان» ، ج 6 ، ص 56) .

وذكر شهاب الدين السيّد محمود الآلوسيّ الشافعيّ البغداديّ في تفسيره قائلاً : زعمت الشيعة أنّ المراد ب «ما أُنزل إليك» خلافة عليّ كرّم الله وجهه . فقد رووا بأسانيدهم عن أبي جعفر وأبي عبد الله رضي الله عنهما أنّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى نبيّه صلّى الله عليه [وآله] وسلّم أن يستخلف عليّاً كرّم الله وجهه ؛ فكان رسول الله يخاف أن يشقّ ذلك على جماعة من أصحابه . فأنزل الله تعالى هذه الآية تشجيعاً له بما أمره بأدائه .

وعن ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما قال : نزلت هذه الآية في عليّ كرّم الله وجهه حيث أمر سبحانه نبيّه أن أن يخبر النّاس بولاية عليّ ، فتخوّف رسول الله أن يقولوا : حابى ابن عمّه ؛ وأن يطعنوا في ذلك عليه . فأوحى الله تعالى إليه هذه الآية ؛ فقام بولايته يوم غدير خمّ ، وأخذ بيده ، وقال : مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيّ مَوْلاَهُ ، اللّهُمّ وَالِ مَنْ وَالاَهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ .

وأخرج السيوطيّ في «الدرّ المنثور» عن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وابن عساكر راوين عن أبي سعيد الخدريّ قال : نزلت هذه الآية على رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم يوم غدير خُمّ في عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : كنّا نقرأ على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ (إِنّ عَلِيّاً وَلِيّ المُؤْمِنِين) وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رَسَالَتَهُ . (86)

وأخرج شيخ الإسلام إبراهيم بن محمّد بن مؤيّد الحَمّوئيّ عن مشايخه الأربعة : برهان الدين أبي الوفاء إبراهيم بن عُمَر بالإذن في الرواية ؛ ومجد الدين عبد الله بن محمود بن مودود الموصليّ ، بَدر الدين محمّد بن محمّد بن أسعد البخاريّ بالإجازة في الرواية ، وعبد الحافظ بن بَدْران بالقراءة عليه ، ذلك بإسنادهم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم : سمعت في الليلة التي أسرى بي إلى السماء فيها نداءً من تحت العرش : إِنّ عَلِيّاً رَايَةُ الهُدَى ، وَحَبِيبُ مَنْ يُؤْمِنُ بِي ؛ بَلّغْ عَلِيّاً (ذَلِكَ) . فَلَمّا نَزَلَ النّبِيّ أُنْسِيَ ذَلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ جَلّ وَعَلاَ عَلَيهِ : «يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ وَإِن لّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رَسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَفِرِينَ» . (87)

وقال الشّيخُ نُور الدّينِ عَلِيّ بْنُ مُحَمّد بْن صَبّاغ المَالِكِيّ : قال الإمام أبو الحسن الواحديّ في كتابه المسمّى ب «أسباب النزول» : يرفعه بسنده إلى أبي سعيد الخُدريّ رضي الله عنه قال : نزلت الآية : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ يوم غدير خمّ في عليّ بن أبي طالب .

ثمّ قال : قال الشيخ محيي الدين النوويّ : غدير خُمّ . بضمّ الخاء المعجمة وتشديد الميم مع التنوين . اسم لغَيْضَة على ثلاثة أميال من الجحفة . عندها غدير مشهور يضاف إلى الغَيضَة فيقال [له] : غدير خُمّ . (88)

وقال مُحَمّد بن طلحة الشافعيّ : زيادة تقرير : نقل الإمام أبو الحسن عليّ الواحديّ في كتابه المسمّى ب «أسباب النزول» يرفعه بسنده إلى أبي سعيد الخُدريّ رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ نزلت في عليّ بن أبي طالب يوم غدير خُمّ . (89)

وروى أبو الحسن الواحديّ النيسابوريّ بسنده عن الأعمش وأبي جحاف ، عن عطيّة ، عن أبي سعيد الخدريّ أنّ الآية : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ نزلت في عليّ بن أبي طالب يوم غديرُ خمّ . (90)

وقال الشيخ سليمان القندوزيّ الحنفيّ في تفسير يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ : أخرج الثعلبيّ عن أبي صالح ، عن ابن عبّاس ، وعن محمّد بن عليّ الباقر رضيّ الله عنهما أنّهما قالا : نزلت هذه الآية في عليّ [بن أبي طالب] .

وكذلك الحَمّوئيّ في «فرائد السّمْطين» أخرجه عن أبي هريرة .

وأيضاً المالكيّ أخرج في «الفصول المهمّة» عن أبي سعيد الخُدريّ قال : نزلت هذه الآية في عليّ في غدير خُمّ . هكذا قال الشيخ محيي الدّين النوويّ . (91)

وقال السيّد عليّ بن شهاب الهمدانيّ في المودّة الخامسة من كتابه : «مَوَدّةُ القُرْبَى» : عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : أقبلت مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في حجّة الوداع . فلمّا كان بغدير خُمّ ، نودي : الصّلاَةَ جَامِعَةً . فجلس رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم تحت شجرة وأخذ بِيَدِ عليّ وقال : أَلَسْتُ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ؟!

قالوا : بَلَى يا رَسُولَ اللهِ ! فقال : مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيّ مَوْلاَهُ ؛ ثمّ قال : اللّهُمّ وَالِ مَنْ وَالاَهُ ! وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ . فلقيه عمر بن الخطّاب فقال : هَنِيئاً لَكَ يَا عَلِيّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَصْبَحْتَ مَوْلَى كُلّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ . وفيه نزلت : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ . الآية . (92)

وذكر مير خواند : غياث الدين بن همام في «حبيب السير» عن «كشف الغمّة» قائلاً : لمّا بلغ شفيع الأُمّة صلّى الله عليه وآله وسلّم غدير خمّ ، وعُرف أنّ الناس سيفترقون عن موكبه المبارك بعد عبور المكان ، ويذهبون إلى أوطانهم ، واقتضت الإرادة الأزليّة أن يطلّع الناس كلّهم على هذا الأمر ، نزلت الآية : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مآ أُنزِلَ إِلَيَكَ مِن رّبّكَ في استخلاف عليّ والنصّ على إمامته وإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ . (93)

وقال الشيخ محمّد عَبْدهُ المصريّ رئيس جامعة الأزهر : روى ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وابن عساكر عن أبي سعيد الخُدريّ أنّ الآية : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ نزلت يوم غدير خُمّ في عليّ بنِ أبي طالبٍ . (94)

فهذا كلّه بحث إجماليّ يدور حول شأن نزول آية التبليغ عن مصادر الشيعة والعامّة ؛ وقام العلاّمة الأمينيّ رحمة الله عليه بالبحث ، عن مصادر العامّة فقط . وتعرّض إلى شأن نزول الآية المذكورة بالتفصيل نقلاً عن ثلاثين كتاباً معتبراً لمشايخ العامّة وحفّاظهم . (95)

وأمّا البحث في دلالة آية التبليغ ، وارتباطها بقضيّة الولاية ، وبيان مفادها المعبّر عنه ب «فقه الآية» فهو كما يلي :

تضمّ الآية وجوهاً أدبيّة تميّزها عن غيرها ، وهي :

الأوّل : جاء الخطاب إلى رسول الله بعبارة : يَأَيّهَا الرّسُولُ أي المُرْسَلُ ومُبلّغ الرسالة . فهي قد خاطبته بصفة الرسالة ؛ ولم يخاطَب رسول الله بهذه الصفة في المواضع الأُخرى من القرآن الكريم غير هذا الموضع . وموضع آخر في القرآن في الآية 41 من نفس السورة (أي سورة المائدة) خوطب النبيّ فيه بصفة الرسالة ، وهو قوله :

يَأَيّهَا الرّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ مِنَ الّذِينَ قَالُوا ءَامَنّا بِأَفْوَ هِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ .

بَيْدَ أَنّ مُخاطبته بالنبوّة من خلال قوله : يَأَيّهَا النّبِىّ (أيّها المنبأ ، المطّلع على عوالم الغيب ، إذ ذكره بصفة النّبأ والإنباء ، وفي ذلك دلالة على مجرّد الاطّلاع على عالم الغيب ونزول الوحي بواسطة جبرئيل) جاءت في ثلاثة عشر موضعاً من القرآن .

ولمّا كان الأمر بالتبليغ في قوله : بَلّغْ أمراً بإبلاغ حكم نازل من الله ، فلهذا من المناسب أن يخاطب بكلمة «رسول» ليكون مماثلاً للدليل على وجوب تبليغ مضمون الآية ، حتّى ينبّه نبيّه على أنّ مهمّة رسول الله تبليغ رسالته ؛ وفقاً لما اضطلع به من أعباء الرسالة وتعهّد بالصمود أمام كلّ ما يعتريها من مشاقّ ومتاعب .

الثاني : كلمة بَلّغْ التي تحمل الأمر بالتبليغ ، والتبليغ عبارة من إيصال الحكم وإبلاغه وإلقاء الحجّة ، وهي غير كلمة قُلْ واقْرَأْ اتْلُ واذْكُرْ وذَكّرْ وأمثالها التي تدلّ على القول والقراءة والتذكير . كما جاء في الآيتين 38 و 39 من السورة 33 : الأحزاب . مَا كَانَ عَلَى النّبِىّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنّةَ اللهِ فِى الّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا * الّذِينَ يُبَلّغُونَ رِسَلَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا .

ومن هذا المنطلق فإنّ شأن الرسالة في القرآن هو الإبلاغ ، وقد جاء ذلك في الآية 99 ، من السورة 5 : المائدة ، مَا عَلَى الرّسُولِ إِلّا الْبَلَاغُ .

الثالث : لم يرد في قوله : مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ اسم الشيء النازل وتحديده ، بل ورد القول بالصفة ليدلّ على أهميّة الأمر وعظمته . ولمّا كان مُرسَلاً من الله ، فليس للنبيّ حقّ في تأخيره . وأيضاً نرى أنّ للنبيّ عذراً في بيانه للناس .

الرابع : القيد مِن رّبّكَ يدلّ على أنّ الله رحيم بك وهو الكريم والخالق والمدبّر والهادي لك ، وكلّ شيء يعود لك تحت قدرته . وقد أرسل لك هذا ، فكيف يكون هناك ترديد وتأمّل وتروّ وتأخير ؟

الخامس : قوله : وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رِسَالَتَهُ وجاء في بعض القراءات : فَمَا بَلّغْتَ رَسَالَاتِهِ يدلّ على أهميّة الحكم المذكور ، ومدى التأكيد عليه . إذ هو على درجة من الأهميّة بحيث لو لم تقم به وحده ، فكأنّك لم تقم بأيّ رسالة من رسالات الله التي حملتها وتعهّدت بالقيام بها !

وجاءت هذه الفقرة وهي تحمل طابع التهديد لتُشعر بأهميّة هذا الحكم إلى الحدّ الذي لو لم يصل إلى الناس ، ولم يُراعَ حقّ المراعاة ، فكأنّ أيّ حكم من أحكام الله لم يصل إلى الناس من قبل الرسول ، وكأنّ أيّ جزء من أجزاء الدين لم يوضع في موضعه .

ولابدّ أن نعلم بأنّ هذه الجملة شرطيّة . وهي ليست كسائر الجمل الشرطيّة المتداولة . إذ تستعمل الجملة الشرطيّة عادة عندما يكون تحققها مجهولاً ؛ ولذلك فالجملة الجزائيّة تترتّب على تحقّق الجملة الشرطيّة . بَيدَ أنّ الملحوظ هنا هو أنّ مقام النبيّ الأكرم أشرف وأرفع وأجلّ من أن يحتمل الله منه تبليغ الحكم وعدم تبليغه ، وهو القائل جلّ من قائل : اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رَسَالَتَهُ . (96)

فعلى هذا نرى أنّ هذه الجملة الشرطيّة مفادها ومؤدّاها التهديد كما يبدو من ملامحها ؛ بَيدَ أنّها في الحقيقة إعلان لغير رسول الله يبيّن لنا مدى الأهميّة التي يتّسم بها هذا الأمر النازل ، وعذر رسول الله في تبليغه .

السادس : قوله : وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَفِرِينَ . ويدلّ الشقّ الأوّل من الآية على أنّ النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم كان قلقاً خائفاً من الناس في تبليغ هذا الحكم ؛ أمّا الشقّ الثاني منها فهو بمنزلة الجملة التعليليّة للجملة الأُولى . ذلك أنّ الله يلجم كافّة الفئات المعارضة ، ولا يمكّنها من بلوغ الأسباب التي تستطيع من خلالها أن تنازع النبيّ وتخاصمه ، وتنهض للإطاحة بدينه ونظامه . فيعطّل تلك الأسباب ويبطلها . وبالتالي فإنّها لن تفلح في منازعته على هذا الأمر .

ونرى هنا أوّلاً : أنّ الآية ذكرت العصمة من الناس بصورة مطلقةً ، ولم يبيّن لنا طبيعة الانتهاكات التي يعصم الله نبيّه من مقترفيها ، كإيذائه جسدياً بالقتل أو السمّ ، أو القتل غيلة (الفتك والاغتيال) ، أو النيل من سمعته بالسبّ واللعن والشتم والافتراء والاتّهام ؛ أو مناوءته بأساليب أُخرى كتشويه سمعة النبوّة وحرف خطّها بالمكر والخدعة والكيد والحيلة ؛ وبصورة عامّة ، فإنّ الآية سكتت عن بيان ذلك . وهذا يفيد التعميم ، إذ إنّ الله يعصمه من كلّ ما شأنه مسّ الدين والإضرار به . وما يدلّ عليه سياق الآية حتماً هو حدوث فتنة تؤدّي إلى انقلاب أمر النبوّة على النبيّ ، وتضيّع جهوده في رفع لواء الدين وإعلاء كلمة التوحيد والعدل ، وتعبيد الناس لربّ العالمين .

ثانياً : ذكرت الآية كلمة «الناس» مطلقة لتدلّ على أنّ سوادهم يضمّ المؤمن والمنافق والذين في قلوبهم مرض ، فهم خليط لا تمييز بين أجزائه .

وعلى هذا ، فلو قُدّر أن يكون هناك خوف من الناس ، فينبغي أن يُخاف من عامّتهم ؛ والجملة التعليليّة : إِنّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَفِرِينَ تشعر بهذه النكتة .

ثالثاً : ليس المراد بالكافرين هنا المشركين أو اليهود والنصارى ، بل الكفر هنا بمعناه العامّ المتمثّل بإخفاء الحقّ والتعتيم عليه . كما جاء في الآية 97 من السورة 3 : آل عمران : وَمَنْ كَفَرَ فَإِنّ اللهَ غَنِىّ عَنِ الْعَلَمِينَ . إذ تدلّ على هذا الضرب من ضروب الكفر بالمعنى العامّ والمطلق ؛ وكما سنلاحظ أنّ المراد من الكفر ليس الاستكبار وإنكار أصل الدين الذي يتحقّق بالامتناع عن أداء الشهادتين ؛ ذلك لأنّ الكفر بهذا المعنى لا ينسجم مع مورد الآية ، إلّا أن نقول بأنّ المراد من قوله : مآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ هو مجموعة الأحكام والتعاليم الدينيّة ، وهو مجانب للصواب كما سنقف عليه .

رابعاً : المراد من عدم هداية الله ، هو عدم هدايتهم في كيدهم ومكرهم ؛ بحيث إنّهم لايظفرون ببلوغ أهدافهم من خلال التشبّث بالأسباب الدنيويّة الجارية ؛ ولا تتحقّق آمالهم في الشرّ والفساد ، كما جاء في الآية 6 ، من السورة 63 : المنافقون : إِنّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَسِقِينَ .

و أمّا القول بأنّ المراد من عدم الهداية ، هو عدم هدايتهم إلى الإيمان ، فهو غير صحيح ؛ لأنّه يتنافى مع أصل الدعوة النبويّة وتبليغها ؛ إذ لا معنى أن يقول الله : يا نبيّنا ! أُدع الكافرين إلى الإسلام وحكم الله ؛ وأنا لا أهديهم ؛ ولا أدلّهم على سبيل الإيمان إلّا عند إلقاء الحجّة !

يضاف إلى ذلك أنّنا نرى رأي العين أنّ الله لا يزال يهدي الكافرين ؛ فيدخلون في الإسلام فوجاً فوجاً ، وقد وعد سبحانه بهدايتهم ، فقال عزّ من قائل : وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . (الآية 213 ، من السورة 2 : البقرة) .

فاستبان لنا ممّا تقدّم أنّ المراد من عدم هداية الكافرين هو أنّ الله يضيّق عليهم الخناق ولايدعهم أحراراً في أداء مهامّهم وتحقيق مقاصدهم . ولا يطلق لهم العنان في إطفاء نور الله وتعطيل أحكامه النازلة من لدنه باختدامهم الأسباب الدنيويّة العامّة . ذلك لأنّ الكافرين والظالمين والفاسقين ، بما يضمرون من سوء السريرة

وخبث النيّة ، يلجأون إلى أسباب يبتغون من ورائها تغيير المسار الربّانيّ ، فينظرون من خلال ذلك بتحقيق أمانيّهم الباطلة المتمثّلة بمحو الدين وكلمة الحقّ . وفي هذه الحالة ، نرى أنّ الله سبحانه يوصد الطريق الذي تجري فيه الأسباب الصوريّة ، فيحول بينهم وبين الوصول إلى غاياتهم ومسبّباتها . ذلك لأنّ سببيّة الأسباب بيده جلّت قدرته ؛ فلن تغلبه الأسباب التي خلقها بيده أبداً أبداً ، وحاشا له أن يكون مقهوراً ومغلوباً بها .

علماً أن هؤلاء قد يبلغون أهدافهم يوماً ، ويصلون إلى ما يطمحون إليه في مدّة قصيرة ويستعلون بخيلائهم ويستكبرون ، غير أنّهم سرعان ما تُنكّس أعلامهم ويحيق بهم مكرهم . وقد قال جلّ من قائل : وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السّيّىءُ إِلّا بِأَهْلِهِ . (97)

وقال : كَذَ لِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحَقّ وَالبَاطِلَ فَأَمّا الزّبَدَ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمّا يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ . (98)

ومحصّل ما ذكرنا هو أنّ قوله : إِنّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَفِرِينَ في حكم التعليل والتفسير لقوله : وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رَسَالَتَهُ ؛ والمراد من العصمة ، حفظ رسول الله من الأضرار التي تصل إليه بدون أن يبلغ هدفه ، ويحقّق طموحه في رفع لواء ، الحمد والتوحيد باتّهامه بحبّ الدنيا ، أو قتله بدون أن تؤتي البعثة أُكلها .

وأمّا إذا أردنا أن نأخذ الآية على إطلاقها ونقول : إنّ الله يحفظ رسوله من كلّ سوء ، فهو ما يتعارض مع الآيات القرآنيّة والأحاديث ومسيرة التأريخ المعلوم . وكم عانت وقاست نفسه الشريفة صلّى الله عليه وآله من أُمّته ، سواء من كفّارها ، أم منافقيها ، أم مؤمنيها ؛ وكم ذاق من الهموم والآلام التي لا تتحمّلها أيّ نفس : إلّا نفسه الشريفة ، حتّى قال في الحديث المشهور : مَا أُذِيَ نَبِيّ مِثْلَ مَا أُوذِيتُ قَطّ .

فظهر ممّا عرضناه أنّ مفاد الآية في غاية الأهميّة ؛ ولعلّ هذه الآية أهمّ الآيات الواردة في القرآن الكريم . وهذه الآية هي الآية 67 من سورة المائدة ؛ وسورة المائدة آخر سورة نزلت على رسول الله صلّى الله عليه وآله في المدينة . ونزلت كلّها أو نزل أكثر آياتها في حجّة الوداع ، (99) وأصفق المفسّرون جميعهم على أنّها من السور المدنيّة ؛ ذلك لأنّهم يسمّون السور النازلة بعد الهجرة : مدنيّة ، مع أنّه صلّى الله عليه وآله كان مسافراً .

بَيدَ أَنّ الملحوظ هو أنّ آية قد سبقت هذه الآية ، وآية جاءت بعدها ، وهما تتحدّثان عن أهل الكتاب . وهذه الآية قد توسّطتهما . فالآية السابقة هي :

وَلَوْ أَنّهُمْ أَقَامُوا التّوْرَىٰةَ والإِنْجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِن رّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مّنْهُمْ أُمّةٌ مّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ . (الآية 66) .

والآية اللاحقة هي : قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَبِ لَسْتُمْ عَلَى شَىْءٍ حَتّى تُقِيمُوا التّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مّن رّبّكُمْ وَلَيَزِيدَنّ كَثِيرًا مّنْهُم مآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ طُغْيَنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَفِرِينَ . (الآية 68) .

فالآية التي هي مثار بحثنا (آية التبليغ) تتوسّط الآيتين ؛ وهذا ما يستفرغ العجب ؛ ذلك لأنّنا لا نلاحظ أيّ صلة بينها وبين ما سبقها ولحقها من آيات ، ومنها هاتان الآيتان ؛ ولا يمكن القول حقّاً : إنّ آية التبليغ تبليغ بشأن أهل الكتاب . ولذلك جاءت في تضاعيف الآيات التي تحدّثت عن أهل الكتاب .

ذلك أنّنا أوّلاً : نلاحظ أنّ الآيتين اللتين تتحدّثان عن أهل الكتاب لا تحملان أكثر من تعاليم عامّة ودعوات كلّيّة ، فأنّى تكون هناك حاجة إلى آية التبليغ لتتوسّطهما بلهجتها الشديدة الحادّة ؟!

ثانياً : نزلت سورة المائدة في المدينة أُخريات حياة الرسول الأعظم ، وكان الإسلام حينئذٍ قد بلغ ذروته عزّةً وشوكةً ؛ وكان الكفّار والمشركون واليهود والنصارى في الحضيض مخذولين منكوبين بائسين . ولا سطوة لهم حتّى تكون هناك حاجة إلى تبليغ حكم من الأحكام يخشى رسول الله من تبليغه ، فيعده الله بالعصمة والوقاية .

ونجد إبّان هجرة الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله إلى المدينة ، أنّ أهل الكتاب لاسيّما اليهود قد بدت منهم العداوة والبغضاء ، وأنّهم آزروا كفّار قريش في الحروب ؛ وتحالفوا معهم ؛ وشكّلوا الأحزاب ؛ فظهرت قضيّة بني قُرَيْظَة ، وبني النّضير ، وبني القَيْنقَاع ، وبالتالي يهود خَيْبَر وفَدَك . وقد خُذل هؤلاء أجمع ولم تقم لهم قائمة . يضاف إلى ذلك ، أنّ الآية لا تضمّ أمراً شديداً وحكماً حادّاً يرتبط باليهود . علماً أنّ تعاليم قد وردت في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، قد كانت أشدّ وأمرّ وأثقل على اليهود ؛ ومع ذلك فإنّ أُسلوب الخطاب الموجّه للنبيّ لم يكن كأُسلوب آية التبليغ . من جهة أُخرى فإنّ النبيّ العظيم صلّى الله عليه وآله وسلّم قد كُلّف بمهامّ أشدّ وأثقل كتبليغ التوحيد ، وإلغاء عبادة الأصنام وقطع دابرها من الوسط الذي يعيش فيه كفّار قريش ومشركو العرب . وكان هؤلاء أكثر حرصاً من اليهود إراقة الدماء ، وأشدّ منهم فظاظةً وغلظة . ومع ذلك نلحظ أنّ الله جلّ شأنه لم يهدّد نبيّه في تبليغهم كما هدّده في هذه الآية موضع البحث ، ولم يضمن له العصمة في ذلك التبليغ كما ضمن له فيها . والآيات المتعلّقة بأهل الكتاب في هذه السورة تؤلّف أغلب آياتها ؛ ومن المؤكّد أنّ آية التبليغ قد نزلت في هذه السورة ، في وقت كانت صولة اليهود مندحرة ، وقد شملهم الغضب الإلهيّ وعمّهم ، إذ كانوا كُلّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ ، فما جدوى أن تنزل آية التبليغ بهذه الخصوصيّة فيهم وفي النصارى ؟ فلقد كانوا حينئذٍ في قبضة الإسلام محتمين في كنفه . علماً أنّنا نرى أنّ يهود نجران ونصاراها . وكانوا أكثر تعصّباً من غيرهم . قد انصاعوا لدفع الجزية آنذاك ؛ فما هو المعنى من التهديد الإلهيّ . إذَن . في ظلّ تلك الظروف التي كان الإسلام ماسكاً فيها بناصية الأُمور ، وأعنّتها بيده ؟

وعلى هذا فما ذكره الفخر الرازيّ ، ومَن تبعه مِن بعض المفسّرين الآخرين من العامّة كمحمّد عَبْدهُ في تفسير «المنار» (100) من أنّ الآية تتعلّق بأهل الكتاب كما يفيده سياق الآيات مجرّدٌ عن التحقيق وعارٍ من المحتوى الصحيح ؛ والسبب . مضافاً إلى ما ذكر . هو أنّ إقحام آية في سياق آيات أُخر لايقبل المعارضة مع الدليل القطعيّ ، والروايات والأخبار المأثورة عن علماء العامّة وكبارهم ، المثبّتة في كتبهم ، والمرويّة عن كبار الصحابة والتابعين . وأنّى لنا أن ننفض أيدينا عن الدليل القطعيّ والحجّة العقلائيّة بمجرّد حفظ السياق ، في حين أنّ السياق ليس أكثر من الظهور الإجماليّ لا غير ؟

ومن هذا المنطلق ، لمّا أُحرج كثير من مخالفي الولاية من العامّة ، قالوا : إنّ آية التبليغ نزلت في مكّة إبّان البعثة النبويّة ؛ وإنّها ترتبط بكفّار قريش ؛ ولسان حالها يقول : لاتترك التبليغ ! ولا تقصّر في إيصال الآيات إلى كفّار قريش ! وإذا لم تفعل فكأنّك لم تقم بمهمّة النبوّة ولم تؤدّ حقّها ! والله يحفظك من شرّ الكفّار ! وهكذا ، فهذه الآية مكّيّة وقد جاءت في سورة المائدة المدنيّة .

وهذا الكلام أيضاً بعيد عن التحقيق للسببين التاليين : أوّلاً : أنّ الآيات النازلة في بدء البعثة لم تعرف بالشدّة والحدّة والتهديد ، بل كانت مرنة ليّنة ، كقوله جلّ من قائل : اقْرَأْ بِاسْمِ رَبّكَ الّذِى خَلَقَ إلى آخر السورة 96 : العلق . وكقوله : يَأَيّهَا الْمُدّثّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبّكَ فَكَبّرْ * إلى آخر السورة 74 ؛ وكقوله : فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لّلْمُشْرِكِينَ . (101)

ثانياً : أنّ رسول الله لا يخشى أحداً في مقام طاعة الله وتبليغ أحكامه ؛ ومقام النبيّ الأكرم أشرف وأجلّ من أن لا يضحّي بنفسه في سبيل الأمر الإلهيّ ، ويضنّ بها في طاعة الله ويرفض أن يسفك دمه فهذا الكلام . والوجدان شاهد . تكذّبه سيرته الشريفة التي ترجمتها حياته المباركة .

يضاف إلى ذلك ، أنّ ما نقله الله لنا عن أنبيائه يدحض هذا الكلام ويدفع قول القائلين بأنّهم كانوا يخشون ويخافون من الناس . فقد قال : سبحانه :

مّا كَانَ عَلَى النّبِيّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنّةَ اللهِ فِى الّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مّقْدُورًا * الّذِينَ يُبَلّغُونَ رِسَلَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا . (102)

فلابدّ أن نعلم أنّ النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسائر الأنبياء عليهم السلام في ضوء هاتين الآيتين لا يعرفون الخوف والفزع في مقابل المسؤوليّة الإلهيّة وتنفيذ الأوامر الصادرة من الذات الأحديّة . فمقام النبوّة والاتّصال بعالم الغيب ، والأُنس بالموجودات المجرّدة ، والأنوار البسيطة والعقول الكاملة ، والملائكة المقرّبين ، والذات والصفات والأسماء الإلهيّة لا يدع لهم مجالاً للشغف والولع بالجسد المادّيّ والقالب الطبعيّ والطبيعيّ .

ولهذه الآية ظهور يتجسّد في أنّ النبيّ لايعرف الخوف والحرج تكوينيّاً ؛ وكذلك سنّة الله في الأنبياء الذين خلوا ، فإنّهم أيضاً لم يعرفوا الحرج والخوف تكوينيّاً . وما يستدعيه مقام النبوّة هو الشجاعة ورباطة الجأش بحيث إنّ حبّ وجاذبة الله اجتذبتهم إلى درجة أن غرقوا وانمحوا حيث لا يرون إلّا جمال الله وجلاله ، ولايرون لكائن آخر أصالة فيخافون منه ؛ وفي ظلّ هذه الأجواء لا يعرفون جسداً وقالباً وسوءاً وضرراً وقتلاً وفتكاً وغير هذه الأشياء ، ولا يكترثون بها ؛ وليس عندهم إلّا الله وكفى وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلّا اللهَ فحَسب . قد غشتهم خشيته ، وأحاطت بهم حتّى جعلتهم لا يبالون بأحد ولا يخشونه مهما كان .

وقد حذّر الله المؤمنين وحظر عليهم الخوف من الشيطان وأوليائه ، فقال جلّ من قائل : إِنّمَا ذَ لِكُمُ الشّيْطَنُ يُخَوّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مّؤْمِنِينَ . (103)

وقد أثنى الله على المؤمنين الذين أخافهم الناس فلم يخافوا ، فقال جلّ شأنه : الّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاسُ إِنّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . (104)

وكذلك فليس من الصواب أن نقول : إنّ النبيّ كان يخاف القتل ، فيبطل بالنتيجة مفعول الدعوة إلى الله ؛ ويذهب عطاء النبوّة سدى ؛ فعلى هذا كان يرجئ القيام بمهمّة ما أُنزِلَ ؛ لكي لا تترتب هذه المفسدة على ذلك ؛ وقد خاطبه الله تعالى بقوله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَىءٌ . (105) لأنّ الله تعالى غير عاجز أن يحيي الإسلام والدعوة إلى التوحيد عند مقتل نبيّه صلّى الله عليه وآله بسبب آخر ووسيلة أُخرى غير نبيّه الكريم .

أجل ، فالمعنى الصحيح لخوف رسول الله ، الذي يمكن استنباطه من قوله : وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ هو فقط أنّ النبيّ كان يخاف من تبليغ الأمر أن يتّهموه تهمة يذهب معها أثر الدعوة هباءً منثوراً ، ولا تعوّض جهوده المحمودة المباركة في الدعوة والتبليغ . كأن يقولوا مثلاً : هذه ليست نبوّة ، بل هي حكومة دنيويّة ورئاسة مادّيّة وتحكّم وتسلّط على الناس في زيّ النبوّة والرسالة الظاهريّة . إنّه أمر سقيم أجوف ، ودليله أنّه لمّا شعر بدنوّ أجله ، صمّم على أن يورث أعقابه الرئاسة كما يفعل سلاطين العالم وحكّامه . ولمّا لم يكن له ابن يرثه ، فقد نصب صهره خليفة له .

فهذه التهمة إن أتت أُكلها ، فقد اندرس أثر الدعوة النبويّة وعفى وبطل مفعول الرسالة وضاع سدى .

نعم ، كان هذا الاجتهاد والرأي جائزين بشأن رسول الله . وكان صلّى الله عليه وآله مأذوناً في ممارسة هذا النهج بلا خوف يعتري نفسه الشريفة .

ومن هنا يستبين لنا أنّ قول بعض المفسّرين إنّ الآية نزلت في بدء البعثة النبويّة غير صحيح ، لأنّ النزول في بدء البعثة يستساغ فقط عندما يكون معنى العصمة من الناس أنّ النبيّ يماطل في إنجاز التبليغ والدعوة خوفاً على نفسه من القتل . ولو قتل حينئذٍ ، فإنّ لواء الدعوة ينكّس تماماً . وهذا الاحتمال لايصدق على الرسول الأكرم ، فالآية . إذَن . لم تنزل في بدء البعثة .

يضاف إلى ذلك ، أنّ الآية لو كانت نازلة في بداية البعثة ، لكان المراد بقوله : مآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ أصل الدين أو مجموعة الأحكام والمسائل الدينيّة . فلا تعدّ هناك مسألة هامّة خاصّة حتّى يساوي عدم تبليغها عدم تبليغ أصل الرسالة . وفي ضوء هذا الافتراض ، فإنّ معنى قوله : وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رَسَالَتَهُ ، يتمثّل في القول : أيّها النّبِيّ ؟ بلغ الدين ، وإن لم تفعل ذلك ؛ فما بلّغتَ الدين ! وهذا كلام خاطئ .

وقال الفخر الرازيّ رفعاً لهذا الإشكال : إنّ هذا خرج على قانون قوله : «أَنَا أَبُو النّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي» ، ومعناه أنّ شعري قد بلغ في الكمال والفصاحة إلى حيث متى قيل فيه إنّه شعري فقد انتهى مدحه إلى الغاية التي لا يمكن أن يُزاد عليها . فهذا الكلام يفيد المبالغة من هذا الوجه .

فكذا هيهنا : فإن لم تبلّغ رسالته فما بلّغت رسالته ؛ يعني أنّه لا يمكن أن يوصف ترك التبليغ بتهديد أعظم من أنّه ترك التبليغ . فكان ذلك تنبيهاً على غاية التهديد والوعيد .

وهذا الكلام الصادر عن الإمام الرازيّ غير صحيح ؛ لأنّ هذا الضرب من الصناعة الشعريّة في الحالات التي يتحقّق فيها حمل الخبر على ذلك العنوان صحيح عندما يكون بينها اختلاف من قبيل اختلاف العامّ والخاصّ أو المطلق والمقيّد وأمثال ذلك ؛ وبهذا السياق ندلّ على اتّحاد المعنيين في القضيّة الحمليّة ، كشعر أبي النّجْم الذي يفيد أنّ شعره هو شعره الصادر عنه . أي : لا يخال أحد أنّ قريحته الشعريّة قد جفّت ونضبت فلا تبدع ، أو أنّ نوائب الدهر قد أرهقته وأضنته ، وعطّلت قريحته عن إبداع شعر كشعره السابق . فشعره اليوم من حيث الفصاحة والبلاغه كشعره الذي أنشده أمس .

ألا إنّ هذا اللون من التبرير لا يصحّ في آية التبليغ ؛ لأنّه بناءً على افتراض نزولها في أوّل البعثة ، فإنّ رسالة الرسول الأعظم التي تمثّل أصل الدين أو مجموعة الأحكام الدينيّة كانت أمراً واحداً لم يعتره التغيير والتبديل والانحراف حتّى يقال : لو لم تبلّغ الرسالة ؛ لو لم تبلّغ أصل الرسالة ! ذلك لأنّ المفروض هو أنّ رسالة رسول الله هي أصل الرسالة التي تمثّل مجموعة المعارف الدينيّة .

ومن هنا يُستفاد أنّ الآية لاتصلح أن تكون نازلة في بدء البعثة . كما لا يصلح أن يكون مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ هو أصل الدين أو مجموعة معارفه وأحكامه . ولهذا السبب لا تصلح الآية أن تكون نازلة في وقت آخر حتّى آخر حياة رسول الله ؛ فيما لو كان المراد من قوله : مآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ أصل الدين أو مجموعة معارفه . لأنّ الإشكال . مهما كان . واحد ، وهو لزوم اللغو في كلام الله الذي يعود مفاده إلى القول : لو لم تبلّغ أصل الدين أو مجموعة أحكامه ؛ فما بلّغت أصل الدين أو مجموعة أحكامه ! ويضاف إلى ذلك أنّ الإشكال المتمثّل بتهيّب رسول الله وخوفه على نفسه يظلّ قائماً في هذه الحالة ، حتّى لو لم تكن الآية قد نزلت في بدء البعثة .

واتّضح ممّا قلنا أنّ المراد من وجوب تبليغ النبيّ في هذه الآية لا يمكن . في أيّ حال . أن يكون أصل الدين أو مجموعة معارفه ، فلا مناص من أن نجعله بعض الدين . وفي هذه الحالة أيضاً لو كان معنى قوله : فَمَا بَلّغْتَ رَسَالَتَهُ هو تبليغ بعض الدين ، فإنّ الإشكال نفسه يتكرّر . إذَن لا حيلة لنا إلّا أن نعتبر المراد من الرسالة هو الدين كلّه أو أصله ؛ وفي هذه الحالة يصبح المعنى كالآتي :

لو لم تبلّغ هذا الحكم الخاصّ النازل إليك ، فما بلّغت أصل الدين أو مجموعة أحكامه ! وهذا المعنى صحيح ومقبول ، ويمكن تبريره بهذا الشكل ككلام أبي النجم : شِعْرِي شِعْرِي .

و قال البعض : لمّا كانت معارف الدين وأحكامه كلّها مترابطة بحيث إنّ الخلل في بعضها يبعث على الخلل في جميعها ، لبساطة أمر النبوّة وكمال الربط والارتباط في شؤونها ، بالأخصّ في تبليغها ؛ لذلك من الصحيح أن يقال : لو لم تبلّغ هذا الحكم ، فما أدّيت الرسالة ! (106)

وهذا المفاد صحيح ، بَيدَ أنّه لا ينسجم مع ذيل الآية ، لأنّ قوله : وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ إِنّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَفِرِينَ يدلّ على أنّ جماعة من الكافرين كانت تهمّ بمخالفة هذا الحكم النازل ؛ أو على الأقلّ كان يتوقّع منها أن تثب لمخالفة هذا الحكم مخالفة شديدة ، وتستخدم كلّ وسيلة ممكنة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ؛ فتبطل هذه الدعوة ؛ أو تعطّل مفعولها فلا تعدّ لها فائدة تذكر . وعندئذ يعد الله نبيّه أن يحفظه ويعصمه من كيدها ، ويبطل مكرها ، ويحول بينها وبين أهدافها .

وهذا المفاد من ذيل الآية لا ينسجم مع أيّ حكم يمكن فرضه في صدر الآية . لأنّ أحكام الإسلام ومعارفه مع أنّها ليست على درجة واحدة من الأهمّيّة ؛ فبعضها كالصلاة التي تعتبر عمود الدين ، وبعضها كالدعاء عند رؤية الهلال في الليلة الأُولى من الشهر ، وبعضها شديد كزنا المُحْصنة ، وبعضها لا يبلغ تلك الشدّة كالنظر إلى غير المحارم . والإخلال بكلّ حكم من هذه الأحكام من حيث ترابطها وتماسكها إخلال بأصل الدين ؛ إلّا أنّ تهيّب رسول الله ، والوعد بعصمته في التبليغ لا ينسجمان مع أيّ حكم من هذه الأحكام وأمثالها .

وفي ضوء ذلك ، ينبغي أن تكون الملازمة بين عدم تبليغ هذا الحكم الخاصّ النازل ، وبين عدم تبليغ أصل الدين وعدم أداء الرسالة بصورة عامّة تبعاً للأهمّيّة الكامنة في هذا الحكم ، بحيث إنّه لو أهمل فكأنّ الشريعة قد أُهملت وأُبطلت أحكامها ومعارفها ودفنت بين طيّات النسيان . فكأنّ هذا الحكم بمنزلة الروح التي تنفخ الحياة في جسد الشريعة وأحكام الدين فتحييها وتبعث فيها الشعور بالحسّ والحركة . ومن هنا يمكننا استنتاج دلالة الآية على أنّ الله قد أمر نبيّه أمراً وأرسل حكماً يكتمل به الدين ، وتتمّ به الشريعة إذ تبلغ درجتها المتوقّعة لها ؛ وترسو به سفينة النجاة في مرفأها المحدّد لها . ويُنتظَر حينئذٍ أن يعارض الناس ، ويقلبوا أمر النبوّة على النبيّ ، ويشوّهوا وجه الشريعة ، بحيث تُنسَفُ دعائم الدين التي أرساها الرسول الأكرم بيده ، وتُهَشّمُ أركانه وأجزاؤه ؛ وكان النبيّ العظيم يدرك هذه المسألة ، ويتفرّس في وجوه القوم ما هم عازمون عليه ، ويخشى من ظهور هذه اللقطة على مسرح الأحداث . فلهذا كان يرجئ تبليغ هذا الحكم الذي يمثّل روح الدين ، ويؤجّله من وقت إلى آخر ريثما يتاح الظرف المناسب والجوّ الهادئ المساعد ، فيصدع به مبلّغاً أمر الله حتّى لا تذهب جهوده ومساعيه أدراج الرياح .

وهنا يأمر الله نبيّه بالتبليغ الفوريّ ، ويبيّن له خطورة الحكم ، ويعده بالعصمة ، ويؤمّله ويطمئنه أن يردّ كيد الأعداء في نحورهم ، ويضيّق عليهم الخناق فلا يظفروا بأهدافهم المشؤومة ، ولا يطلق لهم العنان فيتلاعبوا بأمر النبوّة ؛ ويضيّعوا الدعوة النبويّة سدىً .

وخوف النبيّ صلّى الله عليه وآله من قيامهم بهذا العمل كان في عصر ذيوع صيت الإسلام ، وطبعاً لابدّ أن يكون في المدينة ، وبعد سنين من الهجرة ، لأنّه لم يكن هذا الخوف من كفّار مكّة قبل الهجرة .

وقد عرض القرآن الكريم كلام المشركين وطبيعة مناوءتهم ، كقوله : مُعَلّمٌ مّجْنُونٌ . (107) وقوله : إِن تَتّبِعُونَ إِلّا رَجُلًا مّسْحُورًا . (108) وقوله : أَسَطِيرُ الْأَوّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِىَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . (109) وقوله : أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى ءَالِهَتِكُمْ إِنّ هَذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ . (110)

وهذه وأمثالها ليست بشيء حتّى تؤدّي إلى تضعضع أركان الدين ونسفها . بل هي تدلّ على أنّ قوم النبيّ (كفّار قريش) كانوا مضطربين في أمرهم غير مستقيمين في سيرتهم .

يضاف إلى ذلك كلّه ، أنّ هذه التهم والافتراءات ، وهذه العراقيل والعقبات لم تكن بدعاً من الأمر في عهد نبيّنا الكريم فيقلق من جرّائها ، ويتهيّب من وقوعها عندما يتفرّس في وجوه أصحابها . فسائر الأنبياء كانوا

شركاء لنبيّنا في الابتلاء بالمصاعب وتحمّل مشاقّ الدعوة . وقد آذتهم أُممهم بشتّى صنوف الإيذاء . كما نجد ذلك في القرآن الكريم إذ تحدّث بالتفصيل عمّا لاقاه نوح والأنبياء الذين جاؤوا بعده .

وأمّا بعد الهجرة واستقرار الدين في المجتمع الإسلاميّ ، فإنّ تصوّر هذا الأمر بسيط جدّاً ؛ ذلك لأنّنا نجد بين المسلمين ، في تلك البرهة الزمنيّة ، مختلف الأشخاص من مؤمنين ، ومنافقين ، ورموز كانت تتجسّس في الخفاء لمصلحة الكفّار ، وأشخاص في قلوبهم مرض . ومع أنّ هؤلاء قد آمنوا بالنبيّ الأكرم ، إلّا أنّهم كانوا يتعاملون معه كملك من الملوك ، وينظرون إليه كحاكم سياسيّ لا يختلف عن غيره من الحكّام الدنيويّين . ويتعاملون مع القرآن الكريم ، وهو وحي سماويّ ، كما يتعاملون مع القوانين الوضعيّة الظاهريّة البشريّة .

وهذا التفكير الذي يسود عامّة الناس كان يمهّد الأرضيّة لهؤلاء أن يتآمروا ضدّ الشريعة فيما إذا أتى رسول الله بحكم تشوبه المصلحة الشخصيّة . ويقولوا : هذه هي الملكيّة الاستبداديّة التي تقمّصت النبوّة فظهرت للناس بثوب الرسالة .

وهذه الشبهة لو تحقّقت عمليّاً ، وأفلح الحزب المناوئ في ترسيخها ، وتمكّن من بثّها ، فإنّ ثغرة كبيرة ستحدث في الدين ويتعذّر رتقها ، ويعجز كلّ مصلح عن إصلاحها . ومن الطبيعيّ أنّ النبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله كانت له بعض المزايا والأُمور التي اختصّ بها ، والتي قد يُتوهّم منها المصلحة الشخصيّة . إلّا أنّها لم تكن على درجة من الأهمّيّة بحيث تتّخذ ذريعة لإثارة الضوضاء والشغب . كما نجد ذلك في قضيّة زَيد بن حَارِثَة وطلاقه زوجته زينب ابنة عمّة النبيّ ، وزواج النبيّ منها وهي زوجة ابنه بالتبنّي . ونجد ذلك في استئثاره بخمس الغنائم ، وتعدّد الزوجات ، وأمثال هذه الأُمور .

ذلك لأنّ جواز الزواج من زوجة المتبنّى المطلّقة لم يخصّ رسول الله. وقد طبّق هذا الحكم على نفسه لأوّل مرّة ليهيّئ الأرضيّة لتطبيقه بين المسلمين جميعهم .

ولو كان زواجه بأكثر من أربع نابعاً من هوى النفس ، وليس فيه إذْنٌ إلهيّ ، لما ضنّ به على المسلمين ؛ ذلك أنّ سيرته في إيثار المسلمين وتقديم مصالحهم على مصلحته الخاصّة فيما كان لله وله من الأموال وغيرها لم تُبقِ أيّ شكّ وشبهة في أنّ ذلك الزواج كان بأمر الله بعيداً عن المصلحة الخاصّة .

ويستبين من هذا جيّداً أنّ آية التبليغ تدلّ على أنّ الحكم النازل حكم قد يُتوهّم فيه المصلحة الخاصّة لرسول الله ، واستئثاره ببعض المكاسب والامتيازات الحيويّة التي يطمح إليها غيره ؛ وتبليغه يؤدّي إلى حرمان سائر الناس . وكان يتهيّب من إبلاغه ، فأمره الله بذلك ، ووعده بعصمته من المعارضين ، وأخبره بعدم ظفرهم في كيدهم .

إنّ ما استعرضناه من بحث بشيء من التفصيل ، كلّه يدعم النصوص المستفيضة المأثورة عن طرق الشيعة والسنّة الدالّة على أنّ الآية نزلت في وَلَايَةَ عَلِيّ بْنِ أَبي طَالِبٍ عليه السلام ؛ والله تبارك وتعالى أمر بتبليغها ؛ ورسول الله صلّى الله عليه وآله كان يتهيّب من أن يتّهم في ابن عمّه ؛ ولهذا كان يرجئ الإعلان عنها ريثما تحين الفرصة المناسبة . حتّى إذا آن أوان غدير خُمّ ، أصحر بالأمر ، آخذاً بِيَدِ عليّ تحت السّمُرات في تلك الفَيفاة القريبة من الجحفة ، وهما على أحداج الإبل ، والحجّاج الذين عادوا معه من مكّة يشهدون ذلك ؛ وبعد أن ألقى خطبته البليغة ، أرى الناس كلّهم عليّاً ، وهو يقول : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ . ولا يخفى فإنّ ولاية الأُمّة ليست من الأُمور التي تكتم وتستتر ؛ ويرتاب أحد في لزومها وضرورتها .

ونحن نرى من وحي العقل والفطرة أنّ كلّ صاحب مسؤوليّة إذا أراد أن يغيب ، فإنّه لا يترك أُموره وشؤونه عبثاً ، بل يفوّضها إلى من كان أميناً كفوءاً ليضطلع بها نيابة عنه . والعالِم الذي يدنو أجله يخوّل معلّماً أميناً

للقيام بتربية طلّابه . والطبيب الذي يفارق الدنيا يوصى طبيباً أميناً بعيادته . والتاجر ، والكاسب ، والزارع ، وحتّى الحمّاميّ ، فإنّهم إذا شارفوا الموت أو غابوا لفترة قصيرة ، لسفر مثلاً ، ينيطون شؤونهم بشخص آخر للقيام بها . وحتّى بائع البنجر الذي يضع بنجره المطبوخ في طست ويقف في رأس الزقاق منادياً بأعلى صوته : بَنْجَر بَنْجَر ! فإنّه إذا أراد الذهاب لقضاء حاجته أو للصلاة ، يكلّف كاسباً قريباً منه أن يحرس طسته وميزانه وبنجره وكلّ ما يتعلّق به ، وهذا كلّه لا يساوي في القيمة شروى نقير . وإن لم يفعل هؤلاء ما من شأنه القيام بأُمورهم ، فإنّهم يُلَامُونَ ويذمّون . ويقول الناس : ما خطب الحمّاميّ ؟ هل أصابه مسّ من جنون حتّى يترك حمّامه مفتوحاً دون أن يكلّف أحداً بحراسته ؟ وما بال التاجر ؟ هل مُني بخطب وعاهة إذ يترك محلّه ويسافر بدون أن يخوّل أحداً حراسته ؟

وهذا الأمر من البداهة بحيث إنّه لايحتاج إلى استدلال وبرهان ، وهو كما يقول أهل الأدب : مِنَ الْقَضَايَا الّتي قِيَاسَاتُهَا مَعَهَا . والوصيّة في مثل هذه الأُمور من المسلّمات المقطوع بها .

فإذا علمنا هذا كلّه ، فكيف يجيز أحد لنفسه أن يخال بأنّ ديناً كالإسلام لا يحتاج إلى وليّ أمر يقوم بشؤونه ، وهو الدين العالميّ الذي جاء لجميع الناس حتّى يوم القيامة ، وفيه كلّ ما يحتاج إليه البشر ، من أحكام الطهارة الأوّليّة حتّى أعقد المسائل الغامضة في التوحيد والمعارف الإلهيّة ، والمبادئ الأخلاقيّة والأحكام الفقهيّة الفرعيّة العامّة لجميع حركات الإنسان على الصعيدين الفرديّ والاجتماعيّ . وكيف يسمح أحد لنفسه أن يظنّ بأنّ نبياً كمحمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو العقل الكلّيّ ، أن يرحل عن هذه الدنيا دون أن يوصي لأحد بالقيام بشؤون الأُمّة ؟ ويترك أُمّته كقطيع الأغنام بلا راعٍ يسوسها ، فتكون عرضة لهجمات الذئاب ، والمحن المهلكة المدمّرة ، إذ لا رئيس ولا إمام ولا مشرف ولا مدبّر ولا مدير يرعاها ويأخذ بيدها نحو الصلاح ؟

وهل الإسلام على عكس سائر الموازين والمقرّرات العامّة والقوانين فلا يحتاج إلى راع وحارس ؟ وهل المجتمع الإسلاميّ والأُمّة الإسلاميّة مستثناة من سائر الأُمم والمجتمعات ، فلا يحتاج إلى والٍ ينظّم شؤونها ؟ وهل هي مستغنية عن وليّ أمر يجري أُمورها ، ويدير لها عجلة حياتها ؟ والعالِم المتبحّر الذي يطالع السيرة النبويّة ، ويقرأ فيها يجد أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله كان إذا ذهب في غزوة ، فإنّه يوصي لأحد بأن يضطلع بأعباء المسؤوليّة خلال غيابه فلا يقف دولاب الحركة عن حركته ، فكيف وبأيّ تبرير يمكن إقناعه بأنّ النبيّ قد رحل عن الدنيا ولم يوص بالخلافة لأحد ؟

وكلّنا نعلم أنّه صلّى الله عليه وآله عندما ذهب في غزوة تبوك ، استخلف على الأُمّة عَلِيّ بْنَ أَبي طَالِبٍ ؛ وعندما قال له عليّ عليه السلام : يَا رَسُولَ اللهِ ! أَتَخْلُفُنِي عَلَى النّسَاءِ وَالصّبْيَانِ ؟! أجابه صلّى الله عليه وآله قائلاً :

أَمّا تَرْضَى أَنْ تُكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ؟! (111)

وكان النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله يرسل الولاة إلى الأمصار التي كانت في قبضة المسلمين كمكّة ، والطائف ، واليمن ؛ وكان يعيّن الأُمراء على الجيوش والسرايا التي كان يُشخصها إلى مختلف النقاط . فما الفرق بين حياته وموته ؟ ألم تكن حاجة الناس إلى والٍ وقيّم أكثر عند الموت ؟!

نعم هي أكثر ، وفي ضوء هذا النهج ، كان يعيّن الولاة ويخوّل لهم شؤون الأُمّة . وفي تلك الأرض القاحلة الكأداء ، وتحت الأشجار الصحراويّة الخمس ، أعلن للملأ أنّ علياً وصيّه وخليفته ، وهو أولى بكلّ مؤمن ومؤمنة كأولويّته صلّى الله عليه وآله .

وصيّه وخليفته ، وهو أولى بكلّ مؤمن ومؤمنة كأولويّته صلّى الله عليه وآله .

هذا بحثنا ما وسع المقام في شأن نزول ومفاد آية التبليغ . وقد علمنا أنّ كبار العلماء من العامّة قد ذكروها في كتب الحديث والتفسير كالطبريّ ، وابن أبي حاتم ، وأبي نعيم الإصفهانيّ ، وأبي إسحاق الثعلبيّ ، والواحديّ ، والسجستانيّ ، والنطنزيّ ، والرسعنيّ ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، والحسكانيّ ، وغيرهم بأسانيد متنوّعة عن كبار الصحابة وغيرهم كالبراء بن عازب ، وجابر بن عبد الله الأنصاريّ ، وعمّار بن ياسر ، وأبي ذرّ الغفاريّ ، وسلمان الفارسيّ ، وحذيفة اليمانيّ ، وابن عبّاس ، وأبي سعيد الخَدريّ ، وزيد بن أرقم ، وأبي هريرة ، وابن مسعود ، وعامر بن ليلى بن ضمرة . والإمام محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام . وروى الترمذيّ ، والنسائيّ ، وابن ماجة ، وأحمد بن حنبل وهم أئمّة السنّة الستّة في كتبهم أنّ الآية نزلت في الولاية .

وما جاء في بعض الكتب حول شأن نزول الآية ، إذ أراد مؤلّفوها أن يحرفوا مصبّ الآية عن الولاية ، وجوه ضعيفة ، وروايات مرسلة ومقطوعة ، وغير موثوقة ؛ وكما قال المرحوم العلّامة الأمينيّ : «هي لا تعدو أن تكون تفسيراً بالرأي ؛ أو استحساناً من غير حجّة ؛ أو تكثيراً للُغد أمام حديث الولاية ، فتّاً في عضدها ، وتخذيلاً عن تصديقها ، وَيَأْبَى اللهُ إلّا أَنْ يُتِمّ نُورَهُ» . (112)

وذكر الفخر الرازيّ ، الذي تبدو ملامح التعصّب والامتعاض على عباراته ، عشرة وجوه في شأن نزول الآية :

1 . نزلت هذه الآية في قصّة الرَّجْم والقصاص ردّاً على مذهب اليهود .

2 . نزلت في عيب اليهود واستهزائهم بالدين .

3 . لمّا نزلت آية التخيير ، وهي قوله : يَأَيّهَا النّبِىّ قُل لِأَزْوَ جِكَ [إن كُنتُنّ تُرِدْنَ الْحَيَوةَ الدّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتّعْكُنّ وَأُسَرّحْكُنّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدّارَ الْأَخِرَةَ فَإِنّ اللهَ أَعَدّ لِلْمُحْسِنَتِ مِنكُنّ أَجْرًا عَظِيمًا] . (113) فلم يعرضها عليهنّ خوفاً من اختيارهنّ الدنيا .

4 . نزلت في أمر زيد [بن حارثة وزوجته] زينب بنت جحش [ابنة عمّ رسول الله] .

5 . نزلت في الجهاد ، فإنّ المنافقين كانوا يكرهونه فكان يمسك أحياناً عن حثّهم على الجهاد .

6 . لمّا نزل قوله تعالى : «ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله فيسبو الله عدواً بغير علم» ، سكت الرسول عن عيب آلهتهم أي [آلهة الثنويّين] ، نزلت هذه الآية .

7 . لمّا قال في حجّة الوداع بعد بيان المناسك والشرائع : هَلْ بَلّغْتُ ؟ قالوا : نَعَمْ . قال : اللَهُمّ اشْهَدْ ، نزلت الآية .

8 . نزلت في أعرابيّ أراد قتله ، وهو نائم تحت شجرة .

9 . كان يهاب قريش واليهود ، فأزال الله عن قلبه تلك الهيبة بالآية .

10 . نزلت في قصّة غدير خمّ . (114)

ذكر الفخر الرازيّ هذه الوجوه ، واعتبر قصّة الغدير الوجه العاشر منها ، أي : آخر الوجوه ؛ وقد رجّح الوجه التاسع منها بلا تعمّق متجاوزاً الموضوع بشكل خاطف . هذا وهو من العلماء ، وكان مطّلعاً جيّداً على طرق الحديث الخاصّ بالغدير واستفاضته ، وكان على علم بضعف الوجوه الأُخرى وإرسالها ؛ فلهذا نرى نظام الدين النيسابوريّ ، وهو من مفسّري العامّة أيضاً ، قد عدّ قصّة الغدير أوّل الوجوه ، وأسنده إلى ابن عبّاس ، والبراء بن عازب ، وأبي سعيد الخُدريّ ، والإمام الباقر عليه السلام . وعزا بقيّة الوجوه إلى «القِيل» الدالّ على ضعفها . (115)

والطبريّ الذي هو أقدم من هؤلاء لم يذكر تلك الوجوه في تأريخه ، ولا في تفسيره ؛ لكنّه ألّف كتاباً مستقلاً في الولاية أخرج فيه حديث الولاية (مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ) بنيّف وسبعين طريقاً . وروى في هذا الكتاب نزول آية التبليغ في عليّ بن أبي طالب بإسناده عن زيد بن أرقم .

وما تمسّك به الفخر الرازيّ وأتباعه هو أنّ آية التبليغ جاءت في سورة المائدة بين الآيات المتعلّقة بأهل الكتاب ؛ فمن المناسب أنّها نزلت في أهل الكتاب أيضاً .

هذا مع أنّ الذي يمتلك أدنى وعي للقصص القرآنيّ يعلم أنّ ترتيب الآيات في النزول غير ترتيبها في الذكر غالباً . وترتيب السور النازلة غير هذا الترتيب القائم في السور القرآنيّة ؛ فالسور الأُولى هي : الْعَلَق ، والمُدَّثِّرْ ، وَالْمُزَّمّل ، وَالْقَلَم ، وسائر السور القصار ، وهي مكّيّة . وآخر سورة هي سورة المائدة ، وسورة النصر : إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ . وكثير من الآيات نزلت في مكّة وموضعها في السور المدنيّة وبالعكس .

قال السيوطيّ في «الإتقان» : الإجماع والنصوص المترادفة على أنّ ترتيب الآيات توقيفيّ لاشبهة في ذلك ؛ [و علينا أن نقرأ القرآن كما كتب] . أمّا الإجماع فنقله غير واحد منهم الزركشيّ في «البرهان» وأبو جعفر بن الزبير في «المناسبات» . وعبارة أبي جعفر : «ترتيب الآيات في السور واقع بتوقيف رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين» . ثمّ ذكر نصوصاً على أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان يلقّن أصحابه ؛ ويعلّمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا ، بتوقيف جبرئيل إيّاه على ذلك ، وإعلامه عند نزول كلّ آية : أنّ هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا . (116)

وقد بيّنا مفصّلاً أنّ تهيّب رسول الله من اليهود والنصارى إمّا أن يكون في أوّل البعثة ؛ أو بعد الهجرة بيسير ، ولا يكون في آخر الهجرة حيث بلغ الإسلام ذروته في الشوكة والقوّة ؛ وخُذل اليهود والنصارى واندحروا . وفرض الإسلام سطوته فهابته الأُمم آنذاك . وراسل نبيّنا الكريم أُمراء العالم وسلاطينه ، ودعاهم إلى الإسلام .

وفي هذه الحالة ، فلا معنى أن تكون آية التبليغ الواردة في سورة المائدة (آخر سورة نزلت على النبيّ الأكرم) قد نزلت في اليهود والنصارى. قال القرطبيّ في تفسيره : هي [سورة المائدة] مدنيّة بإجماع . ثمّ نقل عن النقّاش نزولها في السنة السادسة (عام الحُدَيبيّة) ، (117) وأتبع ذلك بالنقل عن ابن عربيّ [بأنّ] هذا حديث موضوع لايحلّ لمسلم اعتقاده . (118) وفي ضوء ذلك ، فإنّ مجرّد ورود الآية بين الآيات المتعلّقة بأهل الكتاب لن يكون له أثر في التمسّك من حيث البرهان والدليل العلميّ .

ويستبين ممّا ذكرنا أيضاً أنّ ما أخرجه القرطبيّ واهٍ لا أساس له . وقد قال : جاء عن ابن عبّاس أنّ أبا طالب كان يرسل كلّ يوم مع رسول الله صلّى الله عليه وآله رجالاً من بني هاشم يحرسونه ، حتّى نزلت [هذه الآية] : وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ . [فأراد أن يرسل معه من يحرسه] فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله : يَا عَمّاهُ ! إنّ اللهَ عَصَمَنِي مِنَ الجِنّ وَالإِنْسِ ! وقال القرطبيّ : صحّة هذا الحديث تستدعي أن تكون الآية مكّيّة ؛ وهذه الآية مدنيّة . (119)

وهذا الحديث أضعف من أن يقاوم الأحاديث المتقدّمة والإجماع ونصوص المفسّرين . يضاف إلى ذلك ، أنّنا نرى بالبداهة كم لاقى رسول الله من المصائب وصنوف الأذى والاضطهاد من أمثال هؤلاء .

تعليقات:

1) الآية 67 ، من السورة 5 : المائدة .

*) خَتَر فلاناً : غَدَرَ به أقبح الغدر ، فهو خاتِر و ختّار .(م)

2) «مناقب الخوارزميّ» طبعة النجف ، الفصل السابع ، ص 55 و 56 .

3) الجُحْفَة : قرية كبيرة ذات منبر على طريق مكّة على أربع مراحل . (كانت تقام فيها صلاة الجمعة والخطبة) . وكان اسمها مَهْيَعَةوسمّيت الجحفة لأنّ السّيْلَ أَجْحَفَها . وبينها وبين البحر ستّة أميال . («مراصد الاطّلاع» ج 1 ، ص 315) والغَدِير ما غودر من ماء المطر في مستنقع صغير أو كبير ، غير أنّه لا يبقى فيالقيظ . وخُمّ قيل : رَجُل ، وقيل : غَيْضَة ، وقيل موضع تصبّ فيه عين . وقيل : بئر قريب من الميثب حفرها مُرّةُ بن كَعْب . نسب إلى ذلك غدير خُمّ . وهو بين مكّة والمدينة . وقيل : على ثلاثة أميال من الجحفة . وقيل على ميل . وهناك مسجد للنبيّ صلّى الله عليه وآله . («مراصد الاطّلاع» ج 1 ، ص 482) .

4) الآية 67 ، من السورة 5 : المائدة .

5) حبيب السّيَر» ج 1 ، الجزء الثالث ، ص . 410

6) السَمُر شجرة من العَضَاة ، وليس في العضاه أجود خشباً منه . الواحدة سَمُرَة ومعها سَمُرَات .

7) قوله صلّى الله عليه وآله : إنّهُ لَمْ يَعْمَرْ نَبِيّ إلّا مِثْلَ نِصْفِ عُمْرِ الّذِي قَبْلَهُ رواه العامّة في كتبهم . ولم أجده في كتب الشيعة . وعلى أيّ تقدير لابدّ من معرفة هذا النسق من التعبير . لأنّنا نعلم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عمّر ثلاثاً وستّين سنة . والنبيّ الذي سبقه ، وهو عيسى ابن مريم على نبيّنا وآله وعليه السلام عمّر أربعين سنة . فعلى هذا لا يمكننا أن نعتبر عمر النبيّ (63 سنة) نصف عمر عيسى ؛ وينبغي أن نقول : لعلّ المراد مدّة نبوّته (23 سنة) . وبعد نقص 3 سنوات حيث كانت الدعوة سرّيّة ، ولم يكن هناك أمر بالتبليغ العلنيّ ، تبقى (20) سنة وهي المدّة التي اعتبرها الكثيرون مدّة رسالته صلّى الله عليه وآله ، وهي نصف المدّة التي عاشتها رسالة السيّد المسيح ، ذلك لأنّ نبوّته بدأت منذ ميلاده وهو لم يزل في المهد كما جاء ذلك في الآيتين الكريمتين 29 و30 من السورة 19 : مريم :

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمَ مَنْ كَانَ فِى الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنّى عَبْدُاللهِ ءَاتَانِىَ الْكِتَبِ وَجَعَلْنِى نَبِيًّا .

8) يقول ابنكثير الدمشقيّ في «البداية والنهاية» ج 5 ، ص 209 : أخرج النسائيّ في سننه عن محمّد بن مُثَنّى ، عن يحيى بن حمّاد ، عن أبي معاوية ، عن الأعمش ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن أبي الطفيل ، عن زيد بن أرقم ، قال : لَمّا رجع رسول الله من حجّة الوَداع ونزل غدير خمّ أمر بِدَوحاتٍ فَقُمِمْنَ ثمّ قال : كَأَنّي قد دُعِيتُ فَأَجبتُ إنّي قد تركت فيكم الثّقلَين : كِتابَ الله وَعترتي أهل بَيتي ؛ فانظروا كيف تَخْلُفوني فيهما فَإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عَلَيّ الحوضَ . ثمّ قال : الله مولاي وأنا وليّ كُلّ مؤمن . ثمّ أخذ بِيَدِ عَلِيّ فقال : مَن كنتُ مولاه فهذا وليّه ، اللَهُمّ وال من والاه ؛ وعاد من عاداه . فقلت لزيد : سمعت من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ؟ فقال : ما كان في الدّوحات أحد إلّا رآه بعينيه وسمعه بأُذُنَيْه . تفرّد النسائيّ بهذا الرواية من هذا الوجه . وقال شيخنا أبو عبد الله الذهبيّ : هذا حديث صحيح .

9) الآية 3 ، من السورة 5 : المائدة .

10) الغدير ، ج 1 ، ص 10 و 11 ؛ الطبعة الثالثة ، مطبعة الحيدري بطهران ؛ و «حبيب السير» ج 1 ، ص 410 و 411 الجزء الثالث ؛ و «روضة الصفا» ج 3 ، حجّة الوداع . وأخرج ابن كثير هذا الحديث مختصراً عن البَرَاء بن عازب بلفظة : من كنت مولاه فعليّ مولاه ، وتهنئة عمر بن الخطّاب بقوله : هنيئاً لك أصبحت وأمْسيتَ ، وذلك في «البداية والنهاية» ج 5 ، ص 209 و . 210

وذكره ابن المغازليّ في مناقبه مفصّلاً ، من ص 16 إلى . 18 وكذلك ذكر صاحب «الصواعق المحرقة» ، ص 25 ، وصاحب «فرائد السمطين» ، ج 1 ، في السمط الأوّل من الباب التاسع ، ص 64 و 65 ، ذكرا

الحديثين تحت الرقم 30 و 31 ؛ ونقله في «بحار الأنوار» ج 9 ، ص 199 و 200 عن «تفسير عليّ بن إبراهيم» ، وذكره في ص 201 وص 202 عن «الخصال» للصدوق ، وفي ص 202 عن «الأمالي» للشيخ .

11) الغدير» ج 2 ، ص 39 : عن المحقّق الفيض الكاشانيّ في «علم اليقين» ؛ وعن «كتاب سليم بن قيس الهلاليّ» . وكذلك جاء قريباً من هذا المضمون في «الغدير» ج 1 ، ص 214 إلى 216 عن أبي جعفر محمّد بن جرير الطبريّ في كتاب «الولاية» في طرق حديث الغدير .

وجاء أيضاً في «إعلام الورى بأعلام الهدى» للشيخ الطبرسيّ من ص 138 إلى 140 ؛ وفي «فرائد السمطين» ، ج 1 ص 74 و 75 ؛ و«غاية المرام» القسم الأوّل ، ص 87 ، الحديث 71 و72 عن الحمّوئيّ ؛ و«روضة الصفا» الطبعة الحجريّة ، ج 2 ، واقعة الغدير في تتّمة قصّة حجّة الوداع ؛ و«حبيب السير» طبعة حيدري ، ج 1 ، ص 411 ؛ و«كتاب سُلَيم بن قَيْس الهلاليّ» ص 228 و229 ؛ والمجلسيّ في «بحار الأنوار» طبعة كمباني ، ج 9 ، ص 222 ، عن «كتاب سليم بن قيس» ؛ و «مجالس المؤمنين» ، المجلس الأوّل ، ص . 21

12) تفسير أبي الفتوح الرازيّ» طبعة مظفّري ، ج 2 ، ص . 193

13) تاريخ اليعقوبيّ» ج 2 ، ص 112 ، طبعة بيروت ، سنة 1379 هـ .

14) الآية 43 ، من السورة 7 : الأعراف .

15) الآية 10 ، من السورة 48 : الفتح .

16) الآية 7 ، من السورة 39 : الزُمر .

17) الغدير» ج 1 ، ص 270 ، عن محمّد بن جرير الطبريّ في كتاب «الوَلاية» . وعن أحمد بن محمّد الطبريّ الخليليّ في كتاب «مناقب عليّ بن أبي طالب» تأليف سنة 411 في القاهرة .

18) روضة الصفا» الطبعة الحجريّة ، الجزء الثاني ، واقعة حجّة الوداع ؛ و «حبيب السير» ج 1 ، الجزء الثالث ، ص 411 ؛ و«الغدير» ج 1 ، ص 271 عن مولوي وليّ الله لِكَهْنوي في كتاب «مرآة المؤمنين» .

19) الغدير» ج 1 ، ص 270 و271 ؛ ونقل هذا الموضوع أيضاً عن كتاب «النشر والطيّ» . وجاء ذيل الرواية الواردة ، في «الاحتجاج» ج 1 ، ص . 84

20) تفسير أبي الفتوح» طبعة مظفّري ، ج 2 ، ص 193 و . 194

21) قسم من الآية 6 ، من السورة 33 : الأحزاب .

22) الآية 7 ، من السورة 5 : المائدة .

23) الآية 79 و80 ، من السورة 43 : الزخرف .

24) بحار الأنوار» ج 9 ، ص 203 إلى . 205 طبعة الكمباني .

25) الطَبَرسيّ (بفتح الطاء والباء): أبو منصور أحمد بن عليّ بن أبي طالب صاحب كتاب «الاحتجاج» من أهل ساري ، إحدى مدن مازندران ، كما أنّ تلميذه محمّد بن عليّ بن شهرآشوب السَرَويّ المازندرانيّ المتوفّي سنة 588 هـ منسوب إلى ساري ؛ كان يعيش في أواسط القرن السادس الهجريّ . وكان معاصراً لأبي الفتوح الرازيّ ، والفضل بن الحسن الطَبْرِسيّ (بفتح الطاء وسكون الباء وكسر الراء) صاحب «مجمع البيان» ولقبه تعريب ل (تفرشيّ) . ويروي صاحبنا عن الشيخ الطوسيّ بواسطتين ، وعن الشيخ الصدوق بعدد من الوسائط . وينقل الشهيد الأوّل في «غاية المراد» فتاواه وأقواله كثيراً . كتابه : «الاحتجاج على أهل اللجاج» كتاب جليل معروف ومعتمد عليه كثيراً .

26) يقول صاحب «مراصد الاطّلاع» ج 3 ، ص 1153 : كُرَاعُ الغَميم موضع بالحجاز بين مكّة والمدينة أمام عَسْفَان بثمانية أميال . وهذا الكراع جبل أسود في طرف الحَرّة يمتدّ إليه .

27) بحار الأنوار» ج 9 ، ص . 228 طبعة الكمباني .

28) الاحتجاج» للطبرسيّ ، ج 1 ، ص 84 ؛ طبعة النجف الأشرف ؛ و «بحار الأنوار» ج 9 ، ص 228 طبعة الكمباني .

29) الآية 1 ، من السورة 70 : المعارج .

30) في نسخة «فرائد السمطين» ج 1 ، ص 82 ، باب 15 ، إذ تنقل هذه الرواية عن الثعلبيّ ، يُسند هذه الرواية إلى سفيان بن عُيَينة عن الإمام الصادق عليه السلام بدون ذكر أبيه : عُيَينة . ويبدو أنّ هذا هو الصحيح ، لأنّ المجلسيّ رضوان الله عليه الذي أخرج هذه الرواية في «بحار الأنوار» طبعة كمباني ، ج 9 ، ص 216 و 217 عن «تفسير فرات بن إبراهيم» عن «تفسير الثعلبيّ» ، أخرجها عن سفيان ، عن الإمام الصادق عليه السلام . ولو قال أحد : فما هو الإشكال الذي يترتّب على ذلك سواء رواها سفيان عن الصادق عليه السلام بلا واسطة ، أو رواها عن الباقر عليه السلام بواسطة أبيه ؟ فهما روايتان لا تنافي بينهما ؛ وقد رويت في «تفسير أبي الفتوح» بسند ، وفي «تفسير فرات بن إبراهيم» بسند آخر .

ونقول في الجواب : لم يرد في كتب الرجال ومنها : «معجم رجال الحديث» ج 8 ، ص 159 ، رقم 5237 ؛ وج 13 ، ص 239 ، رقم 9251 و 9252 ؛ و«تنقيح المقال» للمامقانيّ ج 2 ، ص 39 و40 ؛ وكذلك في ص 364 أنّ أبا سفيان : عُيَيْنَة بن ميمون أبو عمران من أصحاب الباقر عليه السلام . يضاف إلى ذلك أنّ رجال العلم رووا هذه الرواية في تفاسيرهم عن تفسير الثعلبيّ لا عن مصادر مختلفة ، وهي ليست أكثر من رواية واحدة . واحتمال الرواية عن الباقر عليه السلام ليس أكثر من مجرّد فرض ، ولا يبعث هذا على تعدّد الرواية . ومصدر هذه الرواية الذي ذكره كثير من علماء الشيعة والعامّة في تفاسيرهم وكتبهم في المناقب هو «تفسير الثعلبيّ» فقط كما جاء في تفسير «مجمع البيان» الذي سنتعرّض له لاحقاً ، والرواية الواردة فيه رواية واحدة لا غير .

31) الضّبْع : ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاها .

32) الآية 32 ، من السورة 8 : الأنفال .

33) تفسير أبي الفتوح الرازيّ» ج 2 ، ص 194 ، طبعة مظفّري ؛ و «تفسير القرطبيّ» ج 18 ، ص 278 و288 ؛ و«تذكرة خواصّ الأُمّة» ص 19 ؛ و«فرائد السمطين» ج 1 ، الباب 15 ، ص 82 و83 ؛ و«نظم درر السمطين» ص 93 ؛ و«السيرة الحلبيّة» طبعة سنة 1353 هـ ، ج 3 ، ص 308 و309 ؛ و«تفسير المنار» ، ج 6 ، ص 464 ؛ وتفسير «الميزان» ج 19 ، ص 79 ؛ و«غاية المرام» ج 2 ، ص 397 ، الباب 117 ، حديثان عن طريق العامّة ، وفي ص 398 الباب 118 ستّة أحاديث عن طريق الخاصّة ؛ و«الفصول المهمّة» لابن صبّاغ المالكيّ ، الطبعة الحجريّة ص 26 و27 ، وطبعة النجف ، ص . 24

34) مجمع البيان» طبعة صيدا ، ج 5 ، ص . 325

35) بحار الأنوار» ج 9 ، ص 216 و . 217

36) بحار الأنوار» ج 9 ، ص . 216

37) الغدير» ج 1 ، ص 240 طبعة الآخونديّ . مطبعة الحيدريّ ، طهران .

38) الغدير» ج 1 ، ص 239 إلى . 246

39) الغدير» ج 1 ، ص . 239

40) غاية المرام» ، ص 334 إلى . 336

41) الآية 67 ، من السورة 5 : المائدة .

42) أُصول الكافي» ج 1 ، ص 290 و291 ، طبعة الآخونديّ ، مطبعة الحيدريّ بطهران ، كتاب الحجة ، باب ما نصّ الله ورسوله على الأئمّة عليهم السلام واحداً فواحداً ؛ و«غاية المرام» ج 1 ، ص 335 ، الباب 38 ، الحديث الأوّل .

43) أُصول الكافي» ، ج 1 ، ص . 291

44) أُصول الكافي» ج 1 ، ص 292 و. 293 كتاب الحجّة ح 2 ، باب الإشارة والنصّ على أمير المؤمنين عليه السلام .

45) كأنّ في تسمية الله لهم : المُسْتَحْفَظين إشارة إلى قوله تعالى بشأن التوراة : فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النّبِيّونَ الّذِينَ أَسْلَمُوا لِلّذِينَ هَادُوا وَالرّبّنِيّون وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَبِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَآءَ . (الآية 44 ، من السورة 5 : المائدة) .

46) جاءت بهذا الشكل في نسخ «الكافي» و«مرآة العقول» ؛ إلّا أنّ الآية في القرآن وردت كما يأتي : لَقَدْ ارْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيّنَات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَبَ وَالْمِيزَانِ . (الآية 25 ، من السورة 57 : الحديد) .

47) الآيتان 18 و 19 ، من السورة 87 : الأعلى .

48) يقول المجلسيّ في «مرآة العقول» : هذه الآية بهذا الوجه ليست في المصاحف المشهورة ، لأنّ الذي في سورة الحِجْر هو : لَا تَمُدّنّ عَيْنَيكَ إِلَى مَا مَتّعْنَا بِهِ أَزْوَ جًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَن عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ . وفي سورة النحل : وَاصْبِرِ وَمَا صَبْرُكَ إِلّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَن عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمّا يَمْكُرُونَ . وفي سورة الزخرف : فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوفَ يَعْلَمُونَ . فيحتمل أنّ يكون عليه السلام ذكر الآيتين : إحدى السوابق مع الأخيرة ، فسقط من الرواة أو النسّاخ . أو أشار [الإمام] عليه السلام إلى الآيتين بذكر صدر إحداهما وعجز الأُخرى ؛ أو يكون نقلاً لهما بالمعنى ؛ أو يكون في مصحفهم كذلك . (مرآة العقول ، الطبعة الحديثة ، ج 3 ، ص 273 و 274) .

49) يقول المجلسيّ في «مرآة العقول» : في المصاحف المشهورة هذه الآية في سورة الحِجْر : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ وَكُنْ مِنَ السّجِدِينَ . وفي سورة الأنعام : قَدْ نَعْلَمُ لِيَحْزُنُكَ الّذِى يَقولُونَ فَإِنّهُمْ لَا يُكَذّبُونَكَ . والكلام في هذه الآية كالكلام في الآية المتقدّمة : وَلَا تَحْزَن عَلَيْهِمْ وَقُلْ سَلَامٌ . (مرآة العقول ، ج 3 ، ص 274) . باب الإشارة والنصّ على أمير المؤمنين .

50) الآيتان 7 و 8 ، من السورة 94 : الانشراح .

51) نَصَبَهُ يَنْصِبُ نَصْباً بكسر صاد المضارع وضمّها ، وهو من باب ضَرَبَ يَضْرِبُ ، وَقَتَلَ يَقْتُلُ ، وبتسكين المصدر بمعنى نصب الشيء بمعنى أقامه ورفعه ووضعه وضعاً ثابتاً . ونَصِب يَنصَب نَصَباً من باب عَلِمَ يَعْلَم ، وبفتح صاد المصدر بمعنى تحمّل المشقّة والتعب والجدّ والجهد . ولمّا وردت في المصاحف المشهورة بفتح الصاد في المضارع ، فهي تعني : جدّ واجهد في العبادة أو في الجهاد .

وأمّا في ضوء هذه الرواية إذ وردت «فانصب» بمعنى : انصب علمك وآيتك ، أي : أمير المؤمنين عليه السلام فيمكن أنّها قُرئت في مصحف أهل البيت عليهم السلام بكسر الصاد «فانْصِب» . ويمكن أن تكون بفتح

الصاد أيضاً . ويحتمل أن يكون تفسير الإمام الباقر عليه السلام في هذه الرواية بياناً لحاصل المعنى ؛ ويكون المقصود : أتعب نفسك في نصب وصيّك بما تسمع من المنافقين في ذلك !

52) الآية 33 ، من السورة 33 : الأحزاب .

53) الآية 41 ، من السورة 8 : الأنفال .

54) الآية 16 ، من السورة 17 : الإسراء .

55) الآية 23 ، من السورة 42 : الشورى .

56) قال المجلسيّ في «مرآة العقول» : القراءة المشهورة : الْمَوْؤُدَةُ بالهمزة ؛ قال الطبرسيّ : الموؤدة هي الجارية المدفونة [حيّاً] وروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام : إِذَا الْمَوَدَّةُ سُئِلَتْ بفتح الميم والواو . وروى عن ابن عبّاس أنّه قال : هو من قتل في مودّتنا أهل البيت . وعن أبي جعفر عليه السلام قال : يعني قرابة رسول الله صلّى الله عليه وآله ومن قتل في جهاد . وفي رواية أُخرى : هو من قتل في مودّتنا وولايتنا . انتهى كلام الطبرسيّ . ثمّ قال المجلسيّ : الظاهر أنّ أكثر تلك الأخبار مبنيّة على تلك القراءة الثانية ، إمّا بحذف المضاف ، أي : أهل المودّة يسئلون بأيّ ذنب قُتلوا ؛ أو بإسناد القتل إلى المودّة مجازاً ، والمراد قتل أهل المودّة ، أو بالتجوّز في القتل ، والمراد تضييع مودّة أهل البيت وإبطالها .

و بعضها [مبنيّة] على القراءة الأُولى المشهورة بأن يكون المراد بالموؤدة : النفس المدفونة في التراب مطلقا أو حيّة ، إشارة إلى أنّهم لكونهم مقتولين في سبيل الله ليسوا بأموات بل أحياء عند ربّهم يرزقون . فكأنّهم دفنوا أحياء . وفيه من اللطف ما لا يخفى . «مرآة العقول» ، ج 3 ص 281 ، و 282) . باب الإشارة والنصّ على أمير المؤمنين .

57) الآية 43 ، من السورة 16 : النحل .

58) الآية 44 ، من السورة 16 : النحل .

59) الآية 44 ، من السورة 43 :الزخرف .

60) الآية 59 ، من السورة 4 : النساء .

61) الآية 82 ، من السورة 4 : النساء . «إلى الله» غير موجودة في القرآن الكريم .

62) الآية 67 ، من السورة 5 : المائدة .

63) الآية 23 ، من السورة 43 : الشورى .

64) أُصول الكافي» ، ج 1 ، ص 293 إلى . 296 كتاب الحجّة ج 3 ، باب الإشارة والنصّ على أمير المؤمنين عليه السلام .

65) تفسير العيّاشيّ» ج 1 ، ص 333 و 334 ، طبعة قم ؛ و «غاية المرام» ج 1 ، ص 336 ، الحديث السابع ، الطبعة الحجريّة ؛ و «بحار الأنوار» ج 9 ، ص 307 ، طبعة الكمباني ؛ و «تفسير البرهان» ج 1 ، ص 490 ؛ وتفسير «الميزان» ج 6 ، ص . 56

66) المصادر المتقدّمة نفسها .

67) الآية 58 ، من السورة 10 : يونس .

68) الآية 82 ، من السورة 20 : طه .

69) غاية المرام» ج 1 ، ص 335 و 336 الحديث الثاني ، الطبعة الحجريّة ؛ وتفسير «الميزان» ج 6 ، ص . 56

70) الآية 55 ، من السورة 5 : المائدة .

71) تفسير العيّاشيّ» ج 1 : ص 328 ؛ «بحار الأنوار» ج 9 ، ص 35 ، طبعة الكمباني ؛ و «تفسير البرهان» ج 1 ، ص . 483

72) الآية 56 ، من السورة 55 : المائدة .

73) تفسير العيّاشيّ» ج 1 ، ص 329 ؛ و «بحار الأنوار» ج 9 ، ص 206و207 ، طبعة الكمباني ؛ و «تفسير البرهان» ، ج 1 ، ص . 485

74) تفسير العيّاشيّ» ج 1 ، ص 331 و332 ؛ و«بحار الأنوار» ج 9 ، ص 207 ؛ و«تفسير البرهان» ج 1 ، ص . 489 و «غاية المرام» ، ج 1 ، ص 336 ، الحديث الرابع ، الطبعة الحجريّة ؛ و «الميزان»ج 6 ، ص 54 و 55 ؛ وتفسير «مجمع البيان» طبعة صيدا ، ج 2 ، ص . 223

ونقل في «كشف الغمّة» ص 94 ، حديث الغدير مع شأن نزول آية التبليغ وأبيات حسّان بن ثابت ، مسنداً إلى ابن عبّاس .

75) تفسير العيّاشيّ» ج 1 ، ص 332 ؛ و«غاية المرام» ج 1 ، ص 336 الحديث الخامس الطبعة الحجريّة ؛ و«بحار الأنوار» ج 9 ، ص 207 ، الطبعة الكمباني ؛ و«تفسير البرهان» ، ج 1 ، ص 498 ؛ وتفسير «الميزان» ، ج 6 ، ص . 55

76) تفسير العيّاشيّ» ج 1 ، ص 332 ؛ و «غاية المرام» ج 1 ، ص 336 ، الحديث السادس ، الطبعة الحجريّة ؛ و «تفسير البرهان» ج 1 ، ص 489 ؛ و «بحار الأنوار» ج 9 ، ص . 207

77) غاية المرام» ج 1 ، ص . 336

78) بحار الأنوار» ج 9 ، ص . 207

79) تفسير العيّاشيّ» ج 1 ، ص 334 ؛ و«غاية المرام» ج 1 ، ص 336 الحديث الثامن ؛ و «تفسير البرهان» ج 1 ، ص 490 ؛ و«بحار الأنوار» ج 9 ، ص 207 ؛ وتفسير «الميزان» ج 6 ، ص . 55

80) تفسير الدرّ المنثور» ج 2 ، ص . 298 طبعة دار المعرفة ، بيروت .

81) شواهد التنزيل» ج 1 ، ص 187 إلى 193 ، الحديث رقم 243 إلى 250 ، طبعة مؤسّسة الأعلميّ ، بيروت ؛ وروى الطبرسيّ في تفسير «مجمع البيان» (طبعة صيدا ج 2 ، ص 223) حديثين من هذه الأحاديث عن «شواهد التنزيل» بإسناده عن ابن أبي عُمَير وابن عبّاس .

82) شواهد التنزيل» ج 1 ص . 190

83) تفسير «الدرّ المنثور» ج 2 ، ص . 298

84) تفسير «مفاتيح الغيب» المشتهر ب «التفسير الكبير» ، ج 3 ، ص 636 ، الطبعة الأُولى ، طبعة شركة الصحافة العثمانيّة .

85) تفسير «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» ج 6 ، ص 129 ، الطبعة الأُولى 1381 ه ، طبعة مطبعة مصطفى البابي الحلبيّ ، مصر .

86) تفسير «روح البيان» ج 6 ، ص 192 و 193 ، طبعة دار الطباعة المنيريّة .

87) فرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين» ج 1 ، ص . 158

88) الفصول المهمّة» ص 27 الطبعة الحجريّة ، و ص 24 و 25 طبعة النجف . قال في «مراصد الاطّلاع» ج 1 ، ص 482 : خُمّ ، قيل : رَجلٌ . وقيل : غَيْضَة . وقيل : مَوضعٌ تصبّ فيه عينٌ . وقيل :

بئر قريب من المَيْثَب ، حفرها مُرّة بن كعب ، نُسب إلى ذلك غدير خمّ ، وهو بين مكّة والمدينة ؛ قيل : على ثلاثة أميال من الجُحفة . وقيل : على ميل . وهناك مسجد للنبيّ صلّى الله عليه وآله .

89) مطالب السئول في مناقب آل الرسول» ج 2 ، ص 16 ، الطبعة الحجريّة .

90) أسباب النزول» ص 150 ؛ و «الفصول المهمّة» لابن صبّاغ ص 27 ؛ و «الميزان» ج 6 ، ص 60 .

91) ينابيع المَوَدّة» ج 1 ، ص 120 ، طبعة إسلامبول سنة 1301 هـ .

92) كتاب «مودّة القربى» وجاء الحديث كلّه في الجزء الأوّل من «ينابيع المودّة» ، المودّة الخامسة ، ص 249 طبعة إسلامبول .

93) حبيب السير» طبعة حيدري مع مقدّمة همائي ، ج 1 ، ص 411 . علماً أنّ تأريخ «حبيب السير» من الكتب المعتبرة . وقال صاحب «كشف الظنون» ج 1 ، ص 19: هذا الكتاب من الكتب المفيدة والمعتبرة . وعدّه حسام الدين في كتابه «مَرَافض الرّوافِض» من الكتب المعتبرة . ونقل عنه أبو الحَسَنات الحنفيّ في كتابه «الفوائد البهيّة» كثيراً ، وعدّه من الكتب المعتبرة .

94) تفسير المنار» ج 6 ، ص 463 .

95) الغدير» ج 1 ، ص 214 إلى 223 .

96) الآية 124 ، من السورة 6 : الأنعام .

97) الآية 43 ، من السورة 35 : فاطر .

98) الآية 17 ، من السورة 13 : الرعد .

99) الإتقان» الطبعة الأُولى ، ج 1 ، ص 23 . أخرج عن محمّد بن كعب ، عن طريق أبي عبيد : أنّ سورة المائدة نزلت في حجّة الوداع بين مكّة والمدينة .

100) تفسير «مفاتيح الغيب» ج 3 ، ص 636 ؛ و«تفسير المنار» ج 6 ، ص 467 .

101) الآية 6 ، من السورة 41 : حم السجدة .

102) الآيتان 38 و39 ، من السورة 33 : الأحزاب .

103) الآية 175 ، من السورة 3 ، آل عمران .

104) الآية 173 ، من السورة 3 : آل عمران .

105) الآية 128 ، من السورة 3 : آل عمران .

106) تفسير الجواهر» للطنطاويّ ، ج 3 ، ص 201 . طبعة مصطفى البابي الحلبيّ بمصر ، الطبعة الثانية ؛ نقلاً بالمعنى لا بالنصّ .

107) الآية 14 ، من السورة 44 : الدخان .

108) الآية 47 ، من السورة 17 : الإسراء .

109) الآية 5 ، من السورة 25 : الفرقان .

110) الآية 6 ، من السورة 38 : ص .

111) هذا الحديث من الأحاديث النبويّة المتواترة الذي تضافر على نقله الفريقان ، ومضافاً إلى أنّه ورد في كتب الشيعة ، فقد جاء في كتب العامّة المعتبرة بما لا يحصى حتّى أنّ شاه وليّ الله الدِهْلَوِيّ ذكره في كتاب «إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» ص 260 و 261 من ج 2 ، في فصل خصّصه لترجمة أمير المؤمنين

عليه السلام . وهذه الترجمة قمينة بالدقّة والتمعّن . وأورد فيها قصّة غدير خُمّ في ج 2 ، ص . 259 وأقرّ في ص 261 بحديث الولاية بما نصّه : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَإنّ مَوْلَاهُ عَلِيّ . وذكر قصّة الغدير كما يلي : لمّا رجع من حِجّة الوداع ، خطب في غدير خُمّ خطبة تتضمّن إظهار فضائل المرتضى رضي الله عنه ، فقد أخرج الحاكم ، وأبو عمرو ، وغيرهما . وهذا لفظ الحاكم . عن زيد بن أرقم : لَمّا رَجَعَ رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم من حجّة الوداع ونزل غدير خمّ أمر بدوحات فَقُمِمْنَ ؛ قال : كأنّي قد دُعيتُ فأُجبت . إنّي قد تركت فيكم الثّقلين : أحدهما أكبر من الآخر : كتاب الله تعالى وعترتي ، فانظروا كيف تخلفوني فيها فإنّهما لن يتفرّقا حتّى يردا عليّ الحوض . ثمّ قال : إنّ الله عزّ وجلّ مولاي وأنا وليّ كلّ مؤمن . ثمّ أخذ بِيَدِ عليّ رضي الله عنه فقال : مَنْ كُنْتُ وَلِيّهُ فَهَذا وَلِيّهُ ؛ اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ .

112) الغدير» ج 1 ، ص . 226 الطبعة الثانية ، مطبعة الحيدريّ بطهران .

113) الآية 28 ، من السورة 33 : الأحزاب .

114) تفسير «مفاتيح الغيب» ج 3 ، ص 635 و . 636

115) تفسير غرائب القرآن» ج 6 ، ص 129 و. 130 الطبعة الأُولى 1381 ه .

116) الإتقان» الطبعة الأُولى ، مصر ، في سنة 1278 ه ، ج 1 ص . 75

117) يسمّى العام السادس من الهجرة بعام الحُدَيْبِيّة لوقوع صلح الحديبيّة فيه .

118) تفسير القرطبيّ» ج 6 ، ص . 30 طبعة دار الكاتب العربيّ 1387 ه .

119) تفسير القرطبيّ» ج 6 ، ص . 244

119) تفسير القرطبيّ» ج 6 ، ص . 244

الدرس الثامن والتسعون إلى الحادي بعد المائة: في سند : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ

بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى اللهُ على محمّد وآله الطّاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

الْيَوْمَ يَئِسَ الّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا . (1)

نزلت هذه الآية المباركة على النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم يوم غدير خمّ بُعَيْدَ إلقائه خطبته الغرّاء التي نصب فيها أمير المؤمنين عليه السلام في مقام الولاية الإلهيّة الكلّيّة المطلقة ، وقدّمه إلى الناس خليفة وأميراً ووليّاً .

وقد ذكرنا في بحوثنا الأخيرة أنّ خطبة الغدير كانت بعد نزول الآية الكريمة : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ وَإِن لّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رَسَالَتَهُ وَاللَهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ إِنّ اللَهَ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْكَفِرِينَ . (2) إذ خطب رسول الله تلك الخطبة التي جاء فيها : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ .

وتعرف الآية المفتتحة بقوله : يَأَيّهَا الرّسُولُ بآية التبليغ ، ويعرف الحديث المتقدّم آنفاً بحديث الولاية ؛ والبحث فيهما مستقلّ ولا صلة بينهما ؛ أعني : أنّ البعض قد يرتاب في شأن نزول آية التبليغ أو في دلالتها . كما نجد ذلك عند بعض العامّة . بَيدَ أنّه لا يرتاب في حديث الولاية سنداً أو دلالةً . علماً أنّنا قد فرّقنا بين البحثين والحمد لله وله المنّ . وتحدّثنا حديثاً وافياً عن آية التبليغ من حيث شأن نزولها في سيّد الموحّدين عَليّ بن أبي طَالِبٍ عليه السلام ومن حيث مفادها ومحتواها التفسيريّ ؛ وأرجأنا البحث في حديث الولاية إلى مجال آخر .

وقد آن أوانه الآن بعد أن فرغنا من البحث في آية التبليغ بتوفيق الله ولطفه ؛ ونأمل أن ندرس هذا الموضوع بمقدار جهدنا الضئيل إن شاء الله تعالى : ثمّ نعرّج على البحث في مفاد الآية المذكورة في مستهلّ درسنا ، والتي نزلت يوم الغدير :

وَهُوَ الوَلِيّ أَيّهَذَا السّامِعُ
مُؤْتِي الزّكَاةِ المَرْءَ وَهْوَ رَاكِعُ
وَالشّاهِدُ (3) التّالِي فَأَيْنَ الجَامِعُ
لِلقَوْمِ ؟ هَلْ ثَمّ دَلِيلٌ قَاطِعُ
وَهوَ وَلِيّ الحَلّ وَالإبْرَامِ
والأَمْرِ وَالنّهْيِ عَلَى الأَنَامِ
بِحُكْمِ ذِيالجَلَالِ وَالإكْرَامِ
ومَا قَضَاهُ فِي أُولِي الأَرْحَامِ (4)
وَقَالَ فِيهِ المُصْطَفَى : أَنْتَ الوَلِي
ومِثْلُهُ : أَنْتَ الوَزِيرُ وَالوَصِي

وكَمْ وكَمْ قَالَ لَه : أنْتَ أَخِي

فَأَيّهُمْ قَالَ لَهُ مِثْلَ عَلِي

وهَلْ سَمِعْتَ بِحَدِيثِ مَوْلَى

يَوْمَ «الْغَدِيرِ» وَالصّحيحُ أَولَى (5)

أَلَمْ يَقُلْ فِيهِ الرّسُولُ قَوْلَا

لَمْ يُبْقِ لِلمُخَالِفِينَ حَوْلَا

وهَلْ سَمِعْتَ بِحَدِيثِ المَنْزِلَه

يَجْعَلُ هَارُونَ النّبِيّ مِثْلَه

وثَبّتَ الطُهْرَ لَهُ مَا كَانَ لَه

مِنْ صِنْوِهِ مُوسَى فَصَارَ مَدْخَلَه

مِنْ حَيْثُ لَوْ لَمْ يَذْكُرِ النّبوّه

كَانَتْ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ مَرْجُوّه

فَاسْتُثْنِيَتْ ونَالَ ذُو الفُتُوّة

عُمُومَ مَا لِلمُصْطَفَى مِنْ قُوّه (6)

يدور بحثنا عن حديث الغدير ، وهو حديث الولاية ، حول سنده أوّلاً ، ودلالته ثانياً ، وسنتطرّق إلى هذين القسمين بشكل وافٍ إن شاء الله تعالى .

أمّا البحث من حيث السند ؛ أي : من حيث وقوع حادثة الغدير في اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة الحرام عبر الخطبة التي ألقاها رسول الله صلّى الله عليه وآله فهي من الأُمور المقطوع بها في التأريخ الإسلاميّ ، بل وفي تأريخ البشريّة . وتعتبر هذه الواقعة من الضروريّات . ولا يمكن أن نعدّها متواترة فحسب ، بل هي فوق التواتر . أي : أنّ درجة الإخبار عن هذه الحادثة بلغت مبلغاً لو قدّر . مثلاً . أن يصل إلينا نصف الأخبار ، أو خُمسها أو عُشرها . لأفاد ذلك كلّه اليقين على حسب ملاك التواتر . ولو ألّف الشيعة في هذا المجال كتاباً ، ونقّبوا في هذه الواقعة ونقلوها بأسنادهم المتّصلة ، عن أعلام الدين وأئمّته ، فلا عجب في ذلك . لأنّها سندهم الناطق المعبّر ، والأساس الرصين لمذهبهم ومنهاجهم ، وهي مفترق الطرق وموضع بروز الزاوية بينهم وبين خصومهم .

بَيدَ أَنّ العجب هو أنّ المناوئين قد نقلوا الروايات والأحاديث الجمّة التي بلغت من الكثرة حدّاً بحيث جعلتهم يقرّون بصحّة الأسناد ، ووقوع هذه الحادثة على النحو المؤكّد . وكم ألّفوا من الكتب المستقلّة في هذا الموضوع بحيث إنّا لا نعثر على حدث من الأحداث في التأريخ الإسلاميّ قد نال كلّ هذا الاهتمام على صعيد تأليف الكتب ، وطرح البحوث الطويلة المتواصلة .

هذا مع أنّ الملحوظ منذ عصر صدر الإسلام وحتّى يومنا الحاضر هو أنّهم بذلوا قصارى جهودهم لكتم الحقائق والتغطية على قضيّة الولاية ؛ والاهتمام في عدم ذكر خبرها ، وتحريفه ، وتحريف كتب الماضين ، والتلاعب في طبعها ونشرها إلى درجة أنّ كلّ بصير وخبير بالكتب والروايات والتواريخ والسنن يذهل لما يراه .

ونرى التحريف واضحاً جليّاً في كتب العامّة ؛ وهم أنفسهم يجهرون في أقوالهم وكتاباتهم قائلين بأنّهم ينبغي أن يطمسوا الحقائق كي لا تكون ذريعة بأيدي العوامّ . (7) وهذا البحث ملازم للبحث في استصواب ممارسات الصحابة ؛ وهو بحث مفصّل نرجئه إلى وقته المناسب إن شاء الله .

مع هذا فإنّ أحقّيّة أمير المؤمنين وسيّد الموحّدين ، وتأ لّق نور الولاية على درجة بحيث إنّنا إذا راجعنا أيّ كتاب كان ، فإنّنا نلاحظ أحاديث الولاية ، ومناقب إمام الأبرار وفضائله ، وتتجلّى للعيان الأحاديث المتعلّقة بغدير خمّ ، أي : على الرغم من أنّ أعداءه جهدوا في طمس آثاره حقداً وحسداً ، وأنّ محبّيه امتنعوا عن بيانها خوفاً وتقيّة ؛ إلّا أنّنا نجد أنّ الكتب التي تمّ تأليفها حول حديث الغدير في شرق الأرض وغربها ، أو التي ذكرت الروايات الخاصّة بالغدير مستمسك حيّ وخالد يدلّ على بزوغ نور ولاية عليّ في تضاعيف الكتب ، وفي صدور الكتّاب ، وقلوب المشتاقين والمحبّين والوالهين ، وهي ماثلة أمام عيون الأصدقاء والأعداء طوعاً أو كَرْهاً .

به هر طرف كه نگه مكنم تو در نظرى

چرا كه بهر تو جز ديده جايگاهى نيست (8)

يقول جمال السّالِكين وسَيّد أهل المراقَبَة عَلِيّ بنُ طَاوُوس رحمة الله عليه في «إقبال الأعمال» : فَصْلٌ في مختصر الوصف ممّا رواه علماء المخالفين عن يوم الغدير من الكشف . اعلم أنّ نصّ الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله على إمامة عَلِيّ بْن أبي طَالِب صلوات الله عليه يوم الغدير ما لا يحتاج إلى كشف وبيان لأهل العلم والأمانة والدراية ؛ وإنّما نذكر تنبيهاً على بعض مَن رواه ليقصد مَن شاء ويقف على معناه . فمِن ذلك ما صنّفه أبُو سَعْدٍ مَسْعُودُ بْنُ نَاصِرِ السّجْسِتَانِيّ المخالف لأهل البيت في عقيدته المتّفق عند أهل المعرفة به على صحّة ما يرويه لأهل البيت وأمانته .

صنّف كتاباً سمّاه : «كِتَابُ الدّرَايَةِ فِي حَدِيثِ الوَلَايَةِ» وهو سبعة عشر جزءاً . روى فيه حديث نصّ النبيّ المكرّم صلوات الله عليه بتلك المناقب والمراتب على مولانا عليّ بن أبي طالب عليه السلام عن مائة وعشرين نفساً من الصحابة .

ومن ذلك ما رواه مُحَمّد بْنُ جَرِيرِ الطّبَرِيّ صاحب «التاريخ الكبير» صنفّه وسمّاه «كِتَاب الرّدّ عَلَى الحُرْقُوصِيّة» . (9) روى فيه حديث يوم الغدير وما نصّ رسول الله على عليّ صلوات الله عليهما بالولاية ؛ والمقام الرفيع والكبير . وروى ذلك من خمس وسبعين طريقاً .

ومن ذلك ما رواه أَبُو القَاسِم عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ الحَسْكَانِيّ في كتاب سمّاه : «كِتَاب دُعَاةِ الهُدَاةِ إلَى أَدَاءِ حَقّ المُوَالَاةِ» .

ومن ذلك الذي لم يكن مثله في زمانه أبو الْعَبّاسِ أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدِ بنُ عُقْدَة الحافظ الذي زكّاه وشهد بعلمه الخطيب مصنّف «تأريخ بغداد» فإنّه صنّف كتاباً سمّاه «حَدِيث الوَلَايَة» .

وجدت هذا الكتاب بنسخة قد كتبت في زمان العبّاس بن عُقْدَة مصنّفه ، تأريخها سنة ثلاثمائة وثلاثين ؛ صحيح النقل عليه خطّ الشيخ الطوسيّ ، وجماعة من شيوخ الإسلام ؛ لا يخفى صحّة ما تضمّنه على أهل الأفهام . وقد روى فيه نصّ الرسول الأكرم صلوات الله عليه على مولانا عليّ عليه السلام بالولاية من مائة وخمس طرق .

وإن عددت أسماء المصنّفين من المسلمين في هذا الباب ، طال ذلك على من يقف على هذا الكتاب . وجميع هذه التصانيف عندنا الآن إلّا كتاب الطبريّ . (10)

ويقول في «الإقبال» أيضاً : فَصْلٌ ؛ وأمّا ما رواه مسعود بن ناصر السجِسْتانيّ في صفة نصّ النبيّ على مولانا عليّ عليه السلام بالولاية ، فإنّه مجلّد أكثر من عشرين كرّاساً . وأمّا الذي ذكره محمّد بن جرير صاحب

التأريخ في ذلك فإنّه مجلّد واحد أيضاً ؛ وما ذكره أبو العبّاس بن عقدة وغيره من العلماء وأهل الروايات ، فإنّها عدّة مجلّدات . (11)

يقول ابن شهرآشوب : العلماء مطبقون على قبول هذا الخبر [أي حديث الولاية] وإنّما وقع الخلاف في تأويله ؛ ذكره محمّد بن إسحاق ، وأحمد البلاذريّ ، ومُسلم بن الحَجّاج ، وأبو نُعَيْم الإصفهانيّ ، وأبو الحسن الدارقُطنيّ ، وأبو بكر بن مردويه ، وابن شاهين ، وأبو بكر البَاقْلانيّ ، وأبو المَعَالِي الجُوَينيّ ، وأبو إسحاق الثّعْلبيّ ، وأبو سَعيد الخركوشيّ ، وأبو المظَفّر السّمْعانيّ ، وأبو بكر بن شَيْبة ، وعليّ بن الجعد ، وشُعبة ، والأعَمش ، وابن عبّاس ، وابن الثّلاج ، والشّعْبيّ ، والزّهْرِيّ ، والاقليشيّ ، وابن ماجَة ، وابن البَيّع ، وابن عَبْد رَبّة ، والكانيّ ، وأبُو يَعْلى الموصليّ من عدّة طرق . وأحمد بن حَنبل من أربعين طريقاً ، وابن بَطّة من ثلاث وعشرين طريقاً ، وابن جرير الطّبَريّ من نيّف وسبعين طريقاً في كتاب «الوَلَاية» وأبُو العبّاس بن عُقْدَة من مائة وخمس طرق ، وأبو بَكر الجِعَانيّ من مائة وخمس وعشرين طريقاً .

وقد صنّف عَلِيّ بن هِلال المَهلّبِيّ كتاب «الغدير» ؛ وأحمد بن محمّد بن سَعْد كتاب «مَنْ رَوَى غَدير خُمّ» ؛ ومَسْعُود الشّجَريّ كتاباً فيه رواة هذا الخبر وطرقه ؛ واستخرج مَنْصُور اللّانيّ الرازيّ في كتابه أسماء رواته على حروف المعجم ؛ وذكر عن صاحب «الكافي» أنّه قال : روى لنا قصّة غدير خُمّ القَاضِيّ أبو بَكر الجِعَابيّ عن أبي بكر ، وعمر ، وعُثمان ، وعليّ ، وَطَلْحَة ، والزّبير ، والحَسَن ، والحُسَين ، وعبد الله بن جَعْفَر ، وعبّاس بن عبد المُطّلِب ، وعبد الله بن عبّاس ، وأبو ذرّ ، وسَلْمَان ، وعبد الرّحمن ، وأبو قتادة ، وزَيد بن أرقَم ، وجَرير بن حَمِيد ، وعَدِيّ بن حاتم ، وعبد الله بن أنيس ، والبَراء بن عَازِب ، وأبو أيّوب ، وأبُو بَرْزَة الأسْلميّ ، وسَهْل بن حُنيف ، وسَمُرَة بن جُنْدَب ، وأبُو الهَيثم ، وعبد الله بن ثابت الأنصاريّ ، وَسَلَمَة بن الأكْوَع ، والخُدريّ ، وعَقَبَة بن عَامِر ، وأبُو رافِع ، وكَعْب بن عُجْرَة ، وحُذَيفة بن اليَمَان ، وأبُو مَسْعُود البَدْريّ ، وحُذَيفة بن أُسيد ، وزيد بن ثَابِت ، وسَعد بن عُبَادَةَ ، وخُزَيمَة بن ثابت ، وخَبّاب بن عُتْبَة ، وجُنْدُب بن سُفْيان ، وعُمَر بن أبي سَلَمَة ، وقَيْس بن سَعْد ، وعُبادة بن الصامت ، وأبو زَينب ، وأبو لَيْلى ، وعبد الله بن رَبيعَة ، وأُسامَة بن زيد ، وسَعْد بن جُنَادة ، وَخبّاب بن سَمُرة ، ويَعْلَى بن مُرّة ، وابن قُدَامَة الأنصاريّ ، ونَاجِيَة بن عُمَيْرة ، وأبو كاهل ، وخالد بن الوَليد ، وحَسّان بن ثابت ، والنعمان بن عَجلان ، وأبو رِفَاعة ، وعَمرو بن الحَمِق ، وعبد الله بن يَعْمُر ، ومالك بن الحُوَيْرِث ، وأبو الحَمْراء ، وضَمْرة بن حَبيب ، ووحشيّ بن حَرْب ، وعُرْوة بن أبي الجَعْد ، وعَامِر بن النميريّ ، (12) وبَشير بن عبد المُنذِر ، ورِفاعَة بن عبد المُنْذِر ، وثابت بن وَديعَة ، وعَمْرُ بن حُرَيث ، وقَيس بن عَاصِم ، وعبد الأعلى بن عَدِيّ ، وعُثمان بن حُنَيف ، وأُبَيّ بن كَعْب ، ومن النساء : فاطمة الزّهراء عليها السلام ، وعائشة ، وأُمّ سَلَمَة ، وأُمّ هاني ، وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطّلب . (13)

يقول العالم الجليل مير حامد حسين الهنديّ النيسابوريّ في كتابه الشريف : «عبقات الأنوار في إثبات إمامة الأئمّة الأطهار» الجزء الذي صنّفه في الغدير خاصّة ، وبعد ذكره ما نقلناه آنفاً عن السيّد ابن طاووس رضوان الله عليه حول تصنيف ابن عقدة كتاباً في الغدير يقع في عدد من الأجزاء ، وتبلغ طرقه فيه مائة وخمسة طرق : كان هذا الكتاب موجوداً عند ابن طاووس ، وذكره في كتابه : «الطرائف في مَعْرفة مَذَاهِبِ الطّوائف» ؛ وأورد فيه أسماء الصحابة الذين نقل عنهم ابن عُقْدَة حديث الغدير ، ثمّ يذكر أسماء الصحابة الذين أسند ابن عُقدد الحديث إليهم . وهؤلاء الصحابة . مضافاً إلى العدد الذي ذكرناه منهم عن «مناقب» ابن شهرآشوب آنفاً . هم :

سعيد بن مَالِك ، عبد الله بن مَسعود ، عَمّار بن يَاسِر ، أسعد بن زُرارة الأنصاريّ ، خالِد بن زَيد الأنصاريّ ، عبد الله بن عُمَر بن الخَطّاب ، رِفاعَة بن رَافِع الأنصاريّ ، سهلُ بن سَعد الأنصاريّ ، هاشم بن عُتبَة بن أبي

وقّاص ، المِقداد بن عَمرو الكنديّ ، عبدالله بن أُسَيْد المَخزُوميّ ، عِمران بن الحُصَين الخُزاعيّ ، بُرَيدَة بن جَبَلَة بن عَمرو الأنصاريّ ، أنَس بن مَالِك ، سعيد بن سَعد بن عُبَادَة ، أبُو سَرِيحة الغِفاريّ ، زَيْدبن حارثَة ، جَابر بن سَمُرَة السّوائيّ، حُبْشيّ بن جُنَادَه السّلُولِيّ ، ضُمَيرة الأسَديّ ، عُبَيد بن عَازِب الأنصاريّ ، عبد الله بن أبي أَوفَى الأسْلَميّ ، زيد بن شَرَاحِيل الأنصاريّ ، عبد الله بن بِشر المَازِنيّ ، عبد الله بن نعيم الدَيْلَميّ ، أبُو فُضَالة الأنصاريّ ، عَطِيّة بن بِشر المَازِنيّ ، عَامِر بن لَيْلى الغِفاريّ ، أبُو طُفَيل عَامِر بن واثِلَة الكِنانِيّ ، عبد الرحمن عَبْد رَبّ الأنصاريّ ، عبد الله بن يَامِيل ، حَبّة بن جُوَين العُرَنيّ ، أُبُو ذُؤَيب الشاعر ، أُبو شُرَيح الخُزَاعيّ ، أُبُو جُحَيفَة وَهَب بن عبد الله السّوائيّ ، أُبو أُمامة صُدَيّ بن عَجْلان الباهِليّ ، عَامِر بن لَيْل بن ضَمْره ، قَيس بن ثَابِت شَمّاس الأنصاريّ ، عبد الرّحمن بن مُدْلَج ، حبيب بن بُدَيْل بن وَرْقاء الخُزاعيّ . ومن النساء . إضافة إلى ما ذكرنا . : أسماء بنت عُمَيْس الخُثْعَمِيّة .

ثمّ يقول صاحب «العبقات» : يبدو من هذه العبارة أنّ ابن عقدة روى حديث الغدير عن هؤلاء الصحابة المذكورين وهم نُهاد مائة شخص .

وكذلك فإنّ رواية ثمانية وعشرين صحابيّاً آخر غير المذكورين تقوّي هذا الحديث الشريف . (14)

ويقول أيضاً : روى أبو الحسن عليّ بن محمّد بن الخطيب الجُلّابيّ المعروف بابن المَغَازِلِيّ في كتاب «المناقب» بناءً على ما نقله الشيخ أبو الحسن يحيى بن الحسن بن الحسين بن عليّ الأسديّ الحلّيّ الربعيّ المعروف بابن بطريق ، (15) في كتاب «العُمْدَة في عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وصيّ المختار» ، قال : حدّثني أبو القاسم الفضل بن محمّد بن عبد الله الإصفهانيّ أنّه لمّا دخل علينا في واسط ، وكان يقرأ من كتابه ويملي في العشرين من شهر رمضان سنة 434 هـ قال : حدّثني محمّد بن عليّ بن عُمَر بن المهديّ ، قال : حدّثني سليمان بن أحمد بن أيّوب الطَبَرانيّ ؛ قال : حدّثنى أحمد بن إبراهيم بن كيسان الثقفيّ الإصفهانيّ : قال : حدّثنى إسماعيل بن عُمر البَجَليّ ؛ قال : حدّثني مِسْعَر بن كِدام ، عن طلحة بن معروف ، عن عُمَر بن سَعْد [أنّه] قال : شهدتُ عليّاً المنبر ناشد أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّ من سمع عن النبيّ في يوم غدير خمّ يقول ما قال ، فليشهد ! فقام اثنا عشر رجلاً منهم فشهدوا . ومنهم : أُبو سعيد الخُدريّ ، وأبو هُرَيرة ، وأنَس بن مَالِك ، شهدوا أنّ هؤلاء جميعهم سمعوا من رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ ، اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ .

ثمّ قال ابن بطريق : قال [راويّ هذا الحديث] : أبو القاسم الفضل بن محمّد : هذا حديث صحيح عن رسول الله صلّى الله عليه وآله . وقد روى حديث غدير خمّ عن رسول الله نحو مائة نفس منهم العشرة [المُبَشّرَة] وهو حديث ثابت لا أعرف له علّة ، تفرّد عليّ رضي الله عنه بهذه الفضيلة لم يشركه أحد . انتهى . (16)

ثمّ يقول : الظاهر من العبارة أنّ حديث غدير خُمّ حديث صحيح عن صاحب الرسالة صلّى الله عليه وآله ؛ وروى هذا الحديث الشريف مائة من الصحابة بينهم العشرة ؛ أي : العشرة الذين نقل في حقّهم حديث البشارة بالجنّة . ولم يكتف الفضل بن محمّد بهذا الكلام ، بل قال لمزيد التأكيد وتشييد أُسس صحّة هذا الحديث وثبوته : هذا الحديث ثابت ؛ ولا أعلم له علّة (نقصاً وعيباً) . وقال أيضاً : تفرّد عليّ عليه السلام بهذه الفضيلة ، ولم يشركه فيها أحد . وهذا الكلام . بغضّ النظر عن دلالته على كمال صحّة حديث الغدير وثبوته وتواتره واستفاضته . دالّ على أنّ هذا الحديث يدلّ على إمامة الإمام أو فضيلته المستلزمة للإمامة . لأنّ عدم مشاركة شخص آخر لأمير المؤمنين عليه السلام في هذه الفضيلة دليل صريح على استئثاره بهذه الفضيلة ؛ فإذا كانت

الفضيلة هي الإمامة نفسها ، فذاك المطلوب ؛ وإذا كانت غير الإمامة ، فلا خَلاق للآخرين منها أيضاً ، فأمير المؤمنين عليه السلام أفضل الجميع . (17)

وبعد ذلك عرض شرحاً مفصّلاً ذكر فيه أنّ علماء السنّة الكبار نصّوا على كتاب ابن عقدة ، وخطبة غدير خمّ فيه بطرق عديدة . ومن هؤلاء : الشيخ تقيّ الدين ابو العبّاس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيميّة الحَرّانيّ الحنبليّ . الذي أثنى عليه الفاضل المعاصر في «مُنتَهَى الكَلَام» (18) وسمّاه : شيخ الإسلام ، وتشبّث بإفاداته في مقابلة أهل الحقّ . في كتابه : «مِنْهاج السّنّة النّبويّة في رَدّ كَلَامِ الشّيعَة والقَدَرِيّة» الذي ردّ عليه العلّامة الحلّيّ أحَلّه اللهُ مَظَانّ الكَرَامَةِ وَبَوّأَهُ دَارَ السّلَامَةِ في كتابه «مِنْهَاجِ الكَرامَةِ». فإنّه قال فيه : وَقَدْ صَنّفَ أبُو العَبّاسِ ابْنُ عُقْدَة مُصَنّفاً في جَمْعِ طُرُقِهِ . (19)

ومنهم : الشيخ محمّد بن محمّد بن عليّ أبو الفضل الكنانيّ العَسْقلانيّ المصريّ الشافعيّ المعروف بابن حَجَر الذي لا شكّ في جلالته وفضائله عند مترجمي أهل السنّة كالمقريزيّ ، وشمس بن ناصر الدين الدمشقيّ في «تَوضيح المُشْتَبِه» ، وبدر الدين محمّد بن إبراهيم البستنكيّ القاهريّ في «طبقات الشّعَراء» وغير هؤلاء ، ... ويعتزّ الفاضل المعاصر في «مُنتَهَى الكلام» بتحقيقاته ، ويرى أنّ تبحّره في علم الحديث الشريف مُسَلّم الثبوت . يقول ابن حجر في «فتح الباري» وهو شرح لصحيح البخاريّ ، وقد أصبح حكمه كحكم المتن المشروح ، أعنيّ ، «صحيح البخاريّ» حسب إفادة المخاطب في «بستان المحدّثين» ولشهرته وكثرة النقل عنه والرجوع إليه . يقول في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام :

وَأمّا حَدِيثُ : «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ» فقد أخرجه الترمذيّ ، والنسائيّ ؛ وهو حديث طرقه كثيرة جدّاً . وقد جمعها ابن عقدة في كتاب مستقلّ . وكثير من أسناد تلك الطرق صحيحة وحسنة . انتهى . (20)

وبعد ذلك تحدّث العلّامة مير حامد حسين بالتفصيل عن ابن عقدة والكبار والأعاظم الذين نقلوا عنه ، وذكر كتب التراجم والرجال ، التي أثنت على أُولئك الأعاظم ، ثمّ قال :

«وقد ذكر مُحمّد بن جَرير الطبريّ صاحب التاريخ ، خبرَ يوم الغدير وطرقه في خمسة وسبعين طريقاً . وأفرد له كتاباً سمّاه «كتاب الوَلَاية» . كما أنّ صاحب «العُمْدَة» طاب ثراه ذكر هذا الموضوع بنفس العبارات التي نقلناها . ويقول بعد نقل ما أوردناه عن كتاب «الإقبال» للسيّد ابن طاووس حول كتاب الطبريّ : وقال في «الطرائف» : وقد روى حديث يوم الغدير محمّد بن جرير الطبريّ صاحب التاريخ من خمس وسبعين طريقاً ، وأفرد له كتاباً سمّاه : «كتاب الولاية» ؛ ورأيت في بعض ما صنّفه الطبريّ في صحّة خبر يوم الغدير أنّ اسم الكتاب «الردّ على الحُرْقُوصِيّة» يعني : الحنبليّة ، لأنّ أحمد بن حنبل من ولد حُرقُوص بن زُهَير الخارجيّ . وقيل : إنّما سمّاه الطبريّ بهذا الاسم لأنّ البربهاريّ الحنبليّ تعرّض للطعن في شيء ممّا يتعلّق بخبر الغدير .

واعترف العلّامة شمس الدين أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركمانيّ الدمشقيّ الذهبيّ بتأليف الطبريّ كتاباً مستقلّاً في طرق حديث الغدير . وقد قصم ظهر المنكرين النّصّاب بوقوفه على ذلك الكتاب ودهشته لكثرة طرق الحديث ؛ كما قال محمّد بن إسماعيل في «الروضة النّدِيّة» وهي شرح على «التّحْفَة العَلَويّة» : قال الحافظ الذهبيّ في «تذكرة الحُفّاظ» في ترجمة : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ : أ لّف محمّد بن جرير الطبريّ في هذا الموضوع كتاباً ، وقفتُ عليه فاندهشت لكثرة طرقه .

وقال إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن كثير الشافعيّ الذي ستسمع نبذه من فضائله ومحامده ومناقبه ومفاخره فيما بعد إن شاء الله تعالى قال في تأريخه عند ذكر محمّد بن جَرير الطبريّ . على ما نُقِل . : وقد رأيت كتاباً جمع فيه [الطبريّ] أحاديث غدير خمّ في مجلّدين ضخمين ، وكتاباً جمع فيه طرق حديث الطير . (21)

وبعد ذكره شرحاً مفصّلاً عن الطبريّ وشهرته وإلمامه وأسماء الذين عظّموه وأثنوا عليه ، قال :

وصنّف المحدّث الشهير : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله الحَسْكانيّ كتاباً أثبت فيه حديث الغدير وجمع طرقه ، وقال بعد نقل ما أوردناه عن «الإقبال» للسيّد ابن طاووس :

وقال في «الطرائف في معرفة مذاهب الطّوائف» : وصنّف الحاكم عُبَيد الله بن عَبد الله الحَسكانيّ كتاباً في حديث يوم الغدير سمّاه : «كتاب دعاة الهُداة إلى أداء حقّ الموالاة» وهو اثنا عشر مجلّداً .

ولا يخفى أنّ أبا القاسم الحَسْكَانيّ من أجلّه العلماء المتقنين ، وعمدة الكاملين المحدّثين وأثبات النحارير الممدوحين وثقات الجهابذة المعتمدين ؛ يقول جلال الدين السيوطيّ في «طبقات الحفّاظ» :

الحَسْكَانِيّ القاضِي المُحَدّثُ عُبيد الله بن عبد الله بن أحمد بن محمّد بن حَسكان القرشيّ العامريّ النيسابوريّ ، ويعرف بابن الحَذّاءِ ، شيخٌ مُتْقِنٌ ذُو عِنَايَةٍ تَامّةٍ بِعِلْمِ الحَدِيث ، عُمّرَ وَعَلَا إسْنَادُهُ ؛ وَصَنّفَ فِي الأَبْوَابِ وَجَمَعَ ؛ حَدّثَ عَنْ جَدّهِ : الحَاكِمِ وَأَبِي طَاهِرِ بن محمش ؛ وَتَفَقّه بالقاضي أبي العُلَا صَاعِدٍ ؛ أَمْلَى مَجْلِساً صَحّحَ فِيهِ رَدّ الشّمْسِ لِعَلِيّ ، وَهُوَ يَدُلّ خُبْرَتِهِ بِالحَدِيثِ ، وَتَشَيّعَ ، مَاتَ بَعْدَ أَرْبَعْمِائَةٍ وَسَبْعِينَ .

نلاحظ أنّ هذا الكلام يشعّ بالمآثر الجميلة للحسكانيّ ، إذ إنّ الواضح فيه هو أنّ الحَسْكَانيّ كان شيخاً متقناً ، وله عناية تامّة بعلم الحديث . عمّر طويلاً ، وإسناده رفيع . عكف على التصنيف في أبواب الحديث المتنوّعة وجمع الروايات . حدّث عن جدّه الحاكم النيسابوريّ ، وأبي طاهر بن محمش . تفقّه على القاضيّ أبي العلا صاعد ، وأملى مجلساً صحّح فيه ردّ الشمس للإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وذلك يدلّ على خبرته في الحديث .

ويستبين لنا من هذا الكلام جلالة الحَسْكانيّ ونُبله ومهارته ونباهته وغاية فضله وكماله وحذاقته . وأمّا دلالة تصحيحه حديث ردّ الشمس على تشيّعه ، فلا ضير في ذلك ، ذلك أنّك علمت آنفاً أنّ التشيّع ، حسب تصريح العلّامة ابن حَجَر العَسْقلانيّ ، هو : حبّ أمير المؤمنين عليه السلام وتقديمه على الصحابة وتِلكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا . (22)

وبعد أن خصّص فصلاً للثناء على الحاكم الحَسْكانيّ ، ينتقل إلى السّجِستانيّ فيقول عنه :

وصنّف أبو سعيد مسعود بن ناصر السّنجَريّ السّجِستانيّ كتاباً مفرداً في طرق حديث الغدير سمّاه : «كِتابِ دِرَايَةِ حدِيثِ الوَلَاية» في سبعة عشر جزءاً وعدد أسانيده ألف وثلاثمائة سند .

وقال بعد نقل ما ذكرناه عن «الإقبال» للسيّد ابن طاووس حول كتابه : يتبيّن من هذا أنّ السجستانيّ صنّف كتاباً خاصّاً في ضبط طرق حديث الغدير ، وهو سبعة عشر جزءاً ، سمّاه : «دِرَايَة حَديثِ الوَلَاية» . روى فيه هذا الحديث الشريف عن مائة وعشرين صحابيّاً . وقال في «الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف» : قد وقفت على كتاب صنّفه أبو سعيد مسعود بن ناصر السجستانيّ ؛ سمّاه كتاب «دراية حديث الولاية» . وهو سبعة عشر جزءاً . ما وقفت على مثله ؛ وهذا مسعود بن ناصر من أوثق رجال المذاهب الأربعة . وقد كشف عن حديث يوم الغدير ونصّ رسول الله على عليّ بن أبي طالب بالخلافة بعده . رواه عن مائة وعشرين من الصحابة ، بينهم ستّ نساء ، ومن عرف ما تضمّنه كتاب «دِراية حَديثِ الوَلَاية» ، ما يشكّ في أنّ الذين تقدّموا على عليّ بن أبي طالب عاندوا ومالوا إلى طلب الرئاسة ، وعدد أسانيد كتاب «دِراية الوَلَاية» ألف وثلاثمائة سند .

وتدلّ هذه العبارة على أنّ السجستانيّ صنّف كتاباً في جمع طرق حديث الغدير ، رواه عن مائة وعشرين صحابيّاً ، وعدد أسانيده ألف وثلاثمائة سند . ولا يخفى أنّ مسعود السجستانيّ هو من أجلّة الحفّاظ ، وأعاظم

المحدّثين ، وأكابر المعتمدين والمشايخ المعتبرين وسُبّاق الموثّقين ، والحُفّاظ المتقنين لأهل السنّة .

وقال عبد الكريم السّمْعانيّ في «الأنساب» : أبو سعيد مسعود بن ناصر بن أبي زيد السّنْجريّ الرّكاب ، كان حافظاً متقناً فاضلاً . رحل إلى خراسان والجبال والعراقين والحجاز ، وأكثر من الحديث وجمع الجمع ، روى لنا عنه جماعة كثيرة بمرو ونيسابور وإصبهان ، وتوفّي سنة سبعة وسبعين وأربعمائة . (23)

وقال بعد ترجمته للسجستانيّ :

شمس الدين ابن أبي عبد الله محمّد بن أحمد الذهبيّ الذي زيّن مشايخ المحقّقين والعلماء المعتمدين كتبهم بفضائله الجليلة ووشّوها بها . صنّف أيضاً كتاباً مفرداً في طرق حديث الغدير ، وصرّح بأنّ له طرقاً جيّدة .

وجاء في كتاب «مِفْتاح كَنْز دِرَايَةِ رِوَايَةِ المَجْمُوع مِنْ دُرَرِ المُجَلّدِ المَسْمُوع» ما نصّه : قال الخطيب البغداديّ : «كان الحاكم ثقة وكان يميل إلى التشيّع . جمع أحاديث وزعم أنّها صحاح على شرط البخاريّ ، ومسلم ، منها : حديث الطير ، وحديث : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ، فأنكره عليه أصحاب الحديث ولم يلتفتوا إلى قوله» .

قال الحافظ الذهبيّ : «ولا ريب أنّ في «المستدرك» أحاديث كثيرة ليست على شرط الصحّة ، بل فيه أحاديث موضوعة ، يليق ب «المستدرك» إخراجها منه . وأمّا حديث الطير فله طرق كثيرة جدّاً ، قد أفردتها بمصنّف بمجموعها يوجب أنّ الحديث له أصل . وأمّا حديث : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ فله طرق جيّدة ، وقد أفردت ذلك أيضاً» .

إلى أن قال : «ذكر الخطيب البغداديّ عن الحاكم أنّه كان ثقة ، وكان يميل إلى التشيّع . وقال بعض العلماء بالنسبة إلى تشيّعه إنّه كان يقول بتفضيل عليّ على عثمان ، وهو مذهب جماعة من الأسلاف ، والله أعلم» .

وقال : «والأهمّ من ذلك كلّه أنّ بعض العلماء صنّف في جمع طرق حديث الغدير ثمانية وعشرين مجلّداً أو أكثر» .

وقال محمّد بن عليّ بن شَهْرآشوب المازندرانيّ الذي أثنى عليه صلاح الدين خليل بن بيك الصفديّ في «الوافي بالوفيّات» ، والشيخ مجد الدين أبو طاهر محمّد بن يعقوب الفيروزآباديّ في كتاب «البُلْغَة في تَرَاجِمِ أَئِمّةِ النّحْوِ وَاللّغه» ، وجلال الدين عبد الرّحمن بن أبي بكر السيوطيّ في «بُغْيَةُ الوَعَاةِ فِي طَبَقاتِ النّحاة» ومجّده هؤلاء بالمدائح العظيمة والمناقب الفخيمة والمحاسن الجليلة والأوصاف الجميلة ، وصرّح الصفديّ أنّه كان صدوق اللّهْجَة . قال في كتاب «المناقب» بناءً على نقل حسين بن خير (24) في كتاب «نُخَب المَنَاقِبِ لِآلِ أبي طَالِبٍ» : قال جدّي شهرآشوب : «سمعت أبا المعالي الجوينيّ يتعجّب ويقول : شاهدت مجلّداً ببغداد في يد صحّاف فيه روايات خبر الغدير مكتوباً عليه : المجلّد الثامن والعشرون من طرق قول رسول الله صلّى الله عليه وآله : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ويتلوه المجلّد التاسع والعشرون».

ونقل ابن كثير الشاميّ عن أبي المعالي الجوينيّ في تأريخه ، قال : «إنّهُ كَانَ يَتَعَجّبُ وَيَقُولُ : شَاهَدْتُ مُجَلّداً بِبَغْدَادَ فِي يَدِ صَحّافٍ فِيهِ رِوَايَاتُ هَذَا الخَبَرِ مَكْتُوباً عَلَيْهِ المُجَلّدَةُ الثّانِيَةُ وَالعِشْرُونَ مِنْ طُرُقِ «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ» ؛ وَيَتْلُوهُ المُجَلّدُ التّاسِعُ وَالعِشْرُونَ . (25)

ماذا تعني هذه الزيادة في التواتر والاستفاضة ، إذ صُنّف ثمانية وعشرون مجلّداً أو أكثر في نقل طرق هذا الحديث ؟ وأيّ حديث عند أهل الإسلام أكثر تواتراً من هذا الحديث الذي رواه ما يربو على مائة صحابي ،

وأكثر أسانيده صِحَاح وحِسَان ، وصنّف الأعلام من أهل السنّة كتباً في جمع طرقه ، حتّى أنّ بعضهم كتب في طرقه ثمانية وعشرين مجلّداً أو أكثر ؟ (26)

ومن علماء الإماميّة الذين ألّفوا في الغدير : مير حامد حسين رضوان الله عليه ، وهو من مفاخر علماء الإسلام ، ومن حماة حريم التشيّع (27) وحرّاسه المرموقين . فإنّه فصّل كثيراً في ذكر الكتب المصنّفة في موضوع حديث الغدير . وانبرى إلى ذكر أسماء كثير من العلماء الذين اعترفوا بتواتر الحديث ، وترجم لهم مسهباً . رضوان الله عليه وأسكنه بُحبوحَة جنّته مع أوليائه .

وقد أتى المرحوم العلاّمة الأمينيّ على حديث الغدير من جميع جوانبه ووفّاه حقّه . وذلك في كتابه الفذّ البديع الذي لامثيل له : «الغدير» الذي يعدّ فريداً في موضوعه حقّاً ، وصاحبه من مفاخر علمائنا . ذكر العلاّمة الأمينيّ سند الغدير بالتفصيل عن مائة وعشرة صحابيّ مرتّبة أسماؤهم على حسب حروف الهجاء مع ترجمة وافية لهم . وكذلك أورد أسماء أربعة وثمانين تابعيّاً وفقاً للترتيب الهجائيّ . (28) ونقل في موسوعته أسماء الرواة الذين رووا هذا الحديث ، اعتباراً من القرن الثاني حتّى القرن الرابع الهجريّ ، ومجموعهم ثلاثمائة وستّون راوياً مع ترجمة لحياتهم . وكذلك ثبّت فيه أسماء المؤ لّفين الذين صنّفوا في حديث الغدير ، وعددهم ستّة وعشرون شخصاً . وقال في آخر هذا البحث تحت عنوان : تكملة : قال ابن كثير في «البداية والنهاية» ج 5 ، ص 208 : «وقد اعتنى بأمر هذا الحديث أبو جعفر محمّد بن جرير الطبريّ صاحب التفسير والتأريخ ، فجمع فيه مجلّدين أورد فيهما طرقه وألفاظه . وكذلك الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر أورد أحاديث كثيرة في هذه الخطبة ، نحن نورد عيون ما روى في ذلك» .

وبعد نقل حكاية الجوينيّ في بغداد ومشاهدته المجلّد الثامن والعشرين الخاصّ بالغدير عند الصحّاف ، قال نقلاً عن «ينابيع المودّة» : «وقال العلويّ الهدّار الحدّاد في كتاب «القول الفصل» ج 1 ، ص 445 : كان الحافظ أبو العلاء العطّار الهمدانيّ يقول : أروي هذا الحديث بمائتي وخمسين طريقاً . وهناك تآليف أُخرى تخصّ هذا الموضوع يأتي ذكرها في صلاة الغدير ، إن شاء الله» . (29)

وجمع صاحب «الغدير» في هذه الموسوعة القيّمة القصائد التي أُنشدت في الغدير بدءاً بعصر صدر الإسلام حيث شعر حسّان بن ثابت ، والكميت وأمثالهما ، وانتهاءً بالقرن الرابع عشر . جمع القصائد التي قيلت في الغدير ، ورتّبها حسب عصورها . وجاء ببحث بليغ حول ترجمة شعرائها ومنهجهم في الحياة ، وتضلّعهم في العلوم ، وقرض الشعر ، والجدل ، وإخلاصهم لأهل البيت عليهم السلام . ويمثّل كتاب «الغدير» موسوعة ضخمة ترتكز على أساس مدرسة التشيّع . وفيها كلّ ما لذّ وطاب من الشعر ، والأدب ، والتأريخ ، والفنّ ، والأخلاق ، والعلم ، والدين . رحم الله العلاّمة الأمينيّ وجزاه عن العلم والدين والإسلام والإيمان أحسَنَ الجَزَاء ، وأَسْكَنَه في بُحْبوحة جِنَانه مع أوليائه أئمّة المسلمين مِن آلِ خير المرسَلين .

وقد تحدّث العلاّمة الأمينيّ في مقدّمة الكتاب عن ضرورة وجود تأريخ صحيح ؛ واعتبر ذلك باعثاً على تنامي المجتمع ورقيّه . أي : أنّ كلّ سعادة ينالها شعب من الشعوب منبثقة عن البحث والنقد والتدوين والتعديل والترجيح في التأريخ الصحيح . وذلك ما يقتاد الشعبَ نحو الواقع ، ويهديه إلى واقع الأمر والحقيقة . وإذا انحرف التأريخ عن مجراه الصحيح أحياناً ، وصوّر المؤرّخون ، والخطباء ، والبلغاء ، والمحدّثون ، والكتّاب ، الحقائق بشكل آخر ، وفُتح للناس طريق الخيالات والأوهام ، بحيث لا يتسنّى لهم أن يميّزوا الحقّ من الباطل ، فعندئذٍ يسير المجتمع نحو الضياع والفناء ، ذلك أنّه أسّس بنيان تأريخه على شفا جُرف هارٍ ، فلا منتدح له من الانهيار .

إنّ الأهمّيّة التي تحظى بها واقعة الغدير في تأريخ الإسلام ، بل في تأريخ البشريّة جمعاء لا غبار عليها ولا تدع للريب مجالاً : ذلك لا يستريب أيّ ذي مسكة من أنّ شرف الشيء بشرف غايته ، فعليه أنّ أوّل ما تكسبه الغايات أهمّيّة كبرى من مواضيع التأريخ هو ما أُسّس عليه دين ، أو جرت به نحلة ، واعتلت عليه دعائم مذهب ، فدامت به أُمم ، وقامت به دُول ، وجرى به ذكرٌ مع الأبد .

ولذلك نجد أئمّة التأريخ يتهالكون في ضبط مبادئ الأديان وتعاليمها ، وتقييد ما يتبعها من دعايات ، وحروب ، وحكومات ، وولايات ، التي عليها نسلت الحقب والأعوام ، ومضت القرون الخالية [ويعرّض أُولئك المؤرّخون أنفسهم للخطر من وراء ذلك] .

وإذا أهمل مؤرّخ شيئاً من ذلك ، [ولم يسبر غورها كما ينبغي] ، فقد أوجد في صحيفته فراغاً لا تسدّه أيّة مهمّة ، وجاء فيها بأمر خداج ، بتر أوّله ، ولا يُعلم مبدؤه . وعسى أن يوجب ذلك جهلاً للقارئ في مصير الأمر ومنتهاه .

إنّ واقعة «غدير خمّ» هي من أهمّ تلك القضايا [التي وقعت في التأريخ] لما ابنتى عليها وعلى كثير من الحججّ الدامغة ، مذهب المقتصّين إثر آل الرسول صلوات الله عليه وعليهم ، وهم معدودون بالملايين ، وفيهم العلم والسؤدد ، والحكماء والعلماء والأماثل ونوابغ في علوم الأوائل والأواخر ، والملوك ، والساسة ، والأُمراء ، والقادة ، والأدب الجمّ ، والفضل الكثار ، [وعندهم] كتب قيّمة في كلّ فنّ [من الفنون] .

[لذلك] ، فإن يكن المؤرخ منهم فمن واجبه أن يفيض على أُمّته نبأ بدء دعوته . وإن يكن من غيرهم ، فلا يعدوه أن يذكرها بسيطة عندما يسرد تأريخ أُمّة كبيرة كهذه ، أو يشفعها بما يرتأيه حول القضيّة من غميزة في الدلالة ، إن كان مزيج نفسه النزول على حكم العاطفة ، وما هنالك من نعرات طائفيّة [التي لا يقوى على التخلّص منها] على حين أنّه لا يتسنّى له غمز في سندها ، فإنّ ما ناء به النبيّ يوم الغدير من الدعوة إلى مفاد حديثه لم يختلف فيه اثنان ، وإن اختلفوا في مؤدّاه لأغراض وشوائب غير خافية على الناقد البصير .

ومن أئمّة التأريخ الذين ذكروا حديث الغدير:

1 . البلاذريّ المتوفّى سنة 279 في «أنساب الأشراف» .

2 . ابن قُتَيْبَة المتوفّى [سنة] 276 في «المعارف» ، و«الإمامة والسياسة» .

3 . الطبريّ المتوفّى [سنة] 310 في كتاب مفرد .

4 . ابن زولاق الليثيّ المصريّ المتوفّى [سنة] 287 في تأليفه .

5 . الخطيب البغداديّ المتوفّى [سنة] 463 في تأريخه .

6 . ابن عبد البرّ المتوفّى [سنة] 463 في «الاستيعاب» .

7 . الشهرستانيّ المتوفّى [سنة] 548 في «المِلَل والنحل» .

8 . ابن عَسَاكر المتوفّى [سنة] 571 في «تأريخ دمشق» .

9 . ياقوت الحَمَويّ في «معجم الأُدباء» ج 18 ص 84 من الطبعة الأخيرة .

10 . ابن الأثير المتوفّى [سنة] 630 في «أُسد الغابة» .

11 . ابن أبي الحديد المتوفّى [سنة] 656 في «شرح نهج البلاغة» .

12 . ابن خَلّكان المتوفّى [سنة] 681 في تأريخه .

13 . اليافعيّ المتوفّى [سنة] 768 في «مرآة الجنان» .

14 . ابن الشيخ البلويّ في «ألف باء» .

15 . ابن كثير الشاميّ المتوفّى [سنة] 774 في «البداية والنهاية» .

16 . ابن خَلْدُون المتوفّى [سنة] 808 في مقدّمة تأريخه .

17 . شمس الدين الذهَبيّ في «تذكرة الحفّاظ» .

18 . النّوَيريّ المتوفّى حدود 833 في «نهاية الإرب» .

19 . ابن حجر العَسْقَلانيّ المتوفّى [سنة] 852 في «الإصابة» و«تهذيب التهذيب» .

20 . ابن صَبّاغ المالكيّ المتوفّى [سنة] 855 في «الفصول المهمّة» .

21 . المِقْريزيّ المتوفّى [سنة] 845 في «الخِطَط» .

22 . جلال الدين السيوطيّ المتوفّى [سنة] 910 في كتب كثيرة له .

23 . القِرمانيّ الدمشقيّ المتوفّى [سنة] 1019 في «أخبار الدّوَل» .

24 . نور الدين الحَلَبيّ المتوفّى [سنة] 1044 في «السيرة الحلبيّة» . وغيرهم [من المؤرّخين الآخرين] .

وهذا الشأن في علم التأريخ لا يقلّ عنه الشأن في فنّ الحديث . فإنّ المحدّث إلى أي شطر ولّى وجهه من فضاء فنّه الواسع [في علم الحديث] ، يجد عنده صحاحاً ومسانيد تثبت هذه المأثرة لوليّ أمر الدين عليه السلام ؛ ولم يزل الخلف يتلقّاه من سلفه حتّى ينتهي الدور إلى جيل الصحابة الوعاة للخبر ؛ ويجد لها مع تعاقب الطبقات بَلَجاً ونوراً يذهب بالأبصار .

فإن أغفل محدّث عن ما هذا شأنه [وأهمّيّته] ، فقد بخس الأُمّة حقّاً ، وحرمها عن الكثير الطيّب ممّا أسدى إليها نبيّها نبيّ الرحمة من برّه الواسع ، وهدايته لها إلى الطريقة المثلى .

وممّن ذكر حديث الغدير من أئمّة الحديث:

1 . إمام الشافعيّة أبو عبد الله محمّد بن إدريس الشافعيّ المتوفّى سنة 204 كما في نهاية ابن الأثير .

2 . إمام الحنابة أحمد بن حنبل المتوفّى [سنة] 241 في مسنده ومناقبه .

3 . ابن مَاجَة المتوفّى [سنة] 273 في سننه .

4 . التِرمذيّ المتوفّى [سنة] 279 في صحيحه .

5 . النسائيّ المتوفّى [سنة] 303 في الخصائص .

6 . أبو يَعلي الموصِليّ المتوفّى [سنة] 307 في مسنده .

7 . البَغويّ المتوفّى [سنة] 317 في سُنَنه .

8 . الدولابيّ المتوفّى [سنة] 302 في «الكُنى والأسماء» .

9 . الطَحَاوري المتوفّى [سنة] 321 في «مُشكل الآثار» .

10 . الحاكم المتوفّى [سنة] 405 في «المستدرك» .

11 . ابن المغازليّ الشافعيّ المتوفّى [سنة] . 483 في «المناقب» .

12 . ابن منده الإصفهانيّ المتوفّى [سنة] 512 بعدّة طرق في تأليفه .

13 . الخطيب الخوارزميّ المتوفّى [سنة] 568 في «المَنَاقب» ومقتل الإمام السبط سيّد الشهداء عليه السلام» .

14 . الكَنجيّ المتوفّى [سنة] 658 في «كفاية الطالب» .

15 . محبّ الدين الطَبَريّ المتوفّى [سنة] 694 في «الرياض النضرة» و«ذخائر العُقْبَى» .

16 . الحَمّوئيّ المتوفّى [سنة] 722 في «فرائد السمطين» .

17 . الهيثميّ المتوفّى [سنة] 807 في «مجمع الزوائد» .

18 . الذّهَبيّ المتوفّى [سنة] 748 في «التخليص» .

19 . الجَزَريّ المتوفّى [سنة] 830 في «أسنى المطالب» .

20 . القَسْطَلانيّ المتوفّى [923] في «المواهب اللدنيّة» .

21 . المتّقي الهنديّ المتوفّى [سنة] 975 في «كنز العمّال» .

22 . الهَرَويّ القاريّ المتوفّى [سنة] 1014 في «المرقاة في شرح المشكاة» .

23 . تاج الدين المَنَاوي المتوفّى [سنة] 1031 في «كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق» ؛ وفي «فيض القدير» .

24 . الشيخانيّ القادريّ في كتاب «الصراط السويّ في مناقب آل النبيّ» .

25 . بَاكَثير المكّي المتوفّى [سنة] 1047 في «وسيلة الآمال من مناقب الآل» .

26 . أبو عبد الله الزرقانيّ المالكيّ المتوفّى [سنة] 1122 في «شرح المواهِب» .

27 . ابن حمزة الدمشقيّ الحنفيّ في كتاب «البيان والتعريف» . وغيرهم [من المحدّثين الآخرين] .

كما أنّ المفسّر نصب عينيه آيٌ من القرآن الكريم نازلة في هذه المسألة ، يرى من واجبه الإفاضة بما جاء في نزولها وتفسيرها . ولا يرضى لنفسه أن يكون علمه مبتوراً ، وسعيه مخدجاً . فذكرها من أئمّة التفسير :

1 . الطبريّ المتوفّى [سنة] 310 في تفسيره .

2 . الثعلبيّ المتوفّى [سنة] 427 / 437 في تفسيره .

3 . الواحديّ المتوفّى [سنة] 468 في «أسباب النّزول» .

4 . القرطبيّ المتوفّى [سنة] 567 في تفسيره .

5 . أبو السّعود في تفسيره .

6 . الفخر الرازيّ المتوفّى [سنة] 606 في تفسيره الكبير .

7 . ابن كثير الشاميّ المتوفّى [سنة] 774 في تفسيره .

8 . النيسابوريّ المتوفّى في القرن الثامن في تفسيره .

9 . جلال الدين السُيُوطيّ في تفسيره .

10 . الخطيب الشّرَبيني في تفسيره .

11 . الآلوسيّ البغداديّ المتوفّى [سنة] 1270 في تفسيره ، وغيرهم [من المفسّرين] .

والمتكّلم حين يقيم البراهين في كلّ مسألة من مسائل علم الكلام ، إذا انتهى به السير إلى مسألة الإمامة ، فلا مُنتدح له من التعرّض لحديث الغدير ، حجّة على المدّعي ، أو نقلاً لحجّة الخصم ، وإن أردفه بالمناقشة في الحساب عند الدلالة . مثل :

1 . القاضي أبو بكر الباقلّانيّ البصريّ المتوفّى سنة 403 في كتاب «التهميد» .

2 . القاضي عبد الرحمن الإيجيّ الشافعيّ المتوفّى [سنة] 756 في «المواقف» .

3 . السيّد الشريف الجُرجانيّ المتوفّى [سنة] 816 في «شرح المواقف» .

4 . البيضاويّ المتوفّى [سنة] 685 في «طوالع الأنوار» .

5 . شمس الدين الإصفهانيّ في «مطالع الأنظار» .

6 . التفتازانيّ المتوفّى سنة [792] في «شرح المقاصد» .

7 . القوشجيّ المولى علاء الدين المتوفّى [سنة] 879 في «شرح التجريد» .

والعبارة التي أتى بها هؤلاء المتكلّمون جميعهم هي : «أنّ النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله قد جمع الناس يوم غدير خمّ موضع بين مكّة والمدينة بالجحفة ؛ وذلك بعد رجوعه من حجّة الوداع ، وكان يوماً صائفاً حتّى أنّ الرجل ليضع رداءه تحت قدميه من شدّة الحرّ ؛ وجمع الرحال ، وصعد عليها ، وقال مخاطباً [الناس] :

مَعَاشِرَ المُسْلِمِينَ ! أَلَسْتُ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ ؟! قَالُوا : اللَهُمّ بَلَى ! قَالَ : مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيّ مَوْلاَهُ ؛ اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالاَهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ .

لم ينقل المتكلّمون هذه الكلمات من مصدر ما ، بل ذكروها إرسال المسلّم .

ومن المتكلّمين : القاضي المنجّم محمّد الشافعيّ المتوفّى [سنة] 876 في «بديع المعاني» ، وجلال الدين السيوطيّ في أربعينه ؛ ومفتي الشام حامد بن عليّ العماديّ في «الصلاة الفاخرة بالأحاديث المتواترة» ؛ والآلوسيّ البغداديّ المتوفّى [سنة] 1324 في «نَثْر اللئالئ» . وغيرهم [من المتكلّمين] .

واللغويّ لا يجد مُنتدحاً من الإيعاز إلى حديث الغدير عند إفاضة القول في معنى المَوْلَى ، أو الخُمّ ، أو الغدير ، أو الوليّ ، كابن دُرَيد محمّد بن الحسن المتوفّى [سنة] 321 في جمهرته ج 1 ص 71 ؛ (30) وابن الأثير في «النهاية» والحَمَويّ في «معجم البلدان» في خُمّ ، والزّبِيديّ الحنفيّ في «تاج العروس» ، والنّبَهانيّ في «المجموعة النّبَهانيّة» . (31)

وجاء في «غاية المرام» تحت عنوان : نصّ رسول الله صلّى الله عليه وآله على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في غدير خمّ بالولاية المقتضية للإمارة والإمامة في قوله صلّى الله عليه وآله : مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيّ مَوْلاَهُ من طريق العامّة تسعة وثمانون حديثاً ، ومن طريق الخاصّة ثلاثة وأربعون حديثاً . وفيما يلي عدد من الأحاديث عن الفريقين :

قال أحمد بن حنبل : حدّثنا ابن نُمَيْر ، قال : حدّثنا عبد الملك بن عطيّة العوفيّ ، قال : أتيت زيد بن أرقم فقلت له : إنّ خالي حدّثني عنك بحديث في شأن عليّ يوم غدير خُمّ ؛ فأنا أُحبّ أن أسمعه منك !

فقال [زيد] : معشر أهل العراق ، فيكم ما فيكم ؛ فقلت : ليس عليك منّي بأس ! قال : نعم ! كنّا بالجحفة ، فخرج رسول الله صلّى الله عليه وآله ظهراً وهو آخذ بِيَدِ عليّ عليه السلام فقال : أيّها الناس ! ألستم تعلمون أنّي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟! قالوا : بلى . قال : مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيّ مَوْلاَهُ .

قال : فقلت : هل قال رسول الله : اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالاَهُ ، وَعَادِ مَن عَادَاهُ ؟ قال زيد : إنّما أُخبرك ما سَمِعْتُ ! (32)

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : قال حدّثنا حمّاد ، عن عليّ بن زيد ، عن عديّ بن ثابت ، عن البرّ ، وهو ابن عازب ، قال : أقبلنا مع النبيّ صلّى الله عليه وآله في حجّة الوداع حتّى كنّا بغدير خمّ ، فنودي فينا إلى الصلاة جامعة . وكُسِحَ لرسول الله بين شجرتين . فأخذ [رسول الله] بِيَدِ عليّ وقال : أَلَسْتُ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِم ؟ قالوا : بَلى يَا رَسُولَ الله .

قال : أَلَسْتُ أَوْلَى بِكُلّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ ؟ قالوا : بَلى يَا رَسُولَ اللهِ !

قال : هَذَا مَوْلَى مَنْ أَنَا مَوْلاَهُ . اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالاَهُ ! وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ . فلقيه عمر ، فقال : هنيئاً لك يا ابن أبي طالب أصبحتَ وأمسيتَ مَولى كلّ مؤمن ومؤمنة . (33)

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدّثنا عبد الله بن الصَقْر سنة 299 ، قال : حدّثنا يعقوب بن حمدان بن كاسب ، قال : حدّثنا سفيان ، عن ابن أبي نجيح ، عن أبيه ، وربيعة الخدسيّ أنّه ذكر عليّ [ابن أبي طالب] عند رجل ، وعنده سَعْد بن أبي وقّاص ؛ فقال له سعد : أتذكّر ذكراً أنّ له مناقب أربعاً ، لأن يكون لي واحدة منهنّ أحبّ إليّ من كذا وكذا ، وذكر حمر النعم ، وقوله [أي رسول الله] : لَأُعْطِيَنّ الرّاية ، وقوله : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ، وقوله : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ .

ونسى سفيان واحدة . (34)

من «صحاح مسلم» أيضاً قال : حدّثنا ابن بكّار بن الريّان ، [قال] : حدّثنا حسّان يعني ابن إبراهيم ، عن سعيد وهو ابن مسروق ، عن يزيد بن حَيّان عن زيد بن أرقم ، قال : دخلنا عليه ؛ فقلنا له : لقد صاحبت رسول الله صلّى الله عليه وآله ! وصلّيت خلفه ! ولقيت خيراً كثيراً ، حدّثنا ما سمعت من رسول الله !

قال زيد : يا بن أخي ! والله لقد كبرت سنّي وقدم عهدي ؛ ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ؛ فما حدّثتكم ، فاقبلوه ! وما لا ، فلا تكلّفونيه ! ثمّ قال : قام رسول الله صلّى الله عليه وآله يوماً فينا خطيباً بما يدعى خُمّاً بين مكّة والمدينة ؛ فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذكّر ، ثمّ [قال] : أمّا بَعْدُ ؛

أَيّها النّاسُ ! إنّمَا أنَا بَشَرٌ يُوشَكُ أنْ يَأتِيَنِي رَسُولُ رَبّي فَأُجيبَ ؛ أَلَا وَإنّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثّقَلَيْنِ ، أَحَدُهُمَا كِتَابُ اللهِ ؛ وَهُوَ حَبْلُ اللهِ ؛ مَنِ اتّبَعَهُ كَانَ عَلَى الهُدَى ، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ ؛ فِيهِ الهُدَى وَالنّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ . فَحَثّ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَرَغّبَ فِيهِ ؛ ثُمّ قَالَ : وَأَهْلُ بَيْتِي ، أُذَكّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، أُذَكّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، أُذَكّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي ! قَالَ : فَقُلْنَا : وَمِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ نِسَاؤُهُ ؟!

قَالَ : لَا ! أَيْمُ اللهِ إنّ المَرْأَةَ تَكُونُ مَعَ الرّجُلِ العَصْرَ ثُمّ الدّهْرَ ثُمّ يُطَلّقُهَا فَتَرْجِعُ إلَى أَهْلِهَا وَقَوْمِهَا . أَهْلُ بَيْتِهِ أَهْلُهُ وَعَصَبَتُهُ الّذِينَ حُرِمُوا الصّدَقَةَ بَعْدَهُ . (35)

ومن «مناقب ابن المغازليّ» أبي الحسن عليّ بن المغازليّ الواسطيّ الشافعيّ بسنده عن زيد بن أرقم ، ذكر قضيّة الغدير ونقل أنّ رسول الله قال بعد حمد الله والثناء عليه : أَمّا بَعْدُ ؛ أَيّهَا النّاسُ ! فَإنّهُ لَمْ يَكُنْ لِنَبِيّ مِنَ العُمْرِ إلّا نَصْفُ مَا عُمّرَ مَنْ قَبْلَهُ ؛ وَإنّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ لَبِثَ فِي قَوْمِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَإنّي قَدْ أُشْرِعْتُ (36) فِي العِشْرِينَ ، (37) أَلَا وَإنّي يُوشَكُ أَن أُفَارِقَكُمْ وَإنّي مَسْؤُولٌ وَأَنْتُمْ مَسْؤُولُونَ . وبعد حثّ الناس وترغيبهم في التمسّك بالثّقلين ، قال : فَإنّي قَدْ سَأَلْتُ لَهُمَا اللّطِيفَ الخَبِيرَ فَأَعْطَانِي ؛ نَاصِرُهُمَا لِي نَاصِرٌ ؛ وَخَاذِلُهُمَا لِي خَاذِلٌ ؛ وَوَلِيّهُمَا لِي وَلِيّ ؛ وَعَدُوّهُمَا لِي عَدُوّ ؛ أَلَا فَإنّهَا لَمْ تَهْلِكْ أُمّةٌ قَبْلَكُمْ حَتّى تَدِينَ بِأَهْوَائِهَا ، وَتَظَاهَرَ عَلَى نُبُوّتِهَا ، وَتَقْتُلَ مَنْ قَامَ بِالقِسْطِ مِنْهَا . ثُمّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيّ ابْنِ أَبي طَالِبٍ فَرَفَعَهَا وَقَالَ : مَنْ كُنْتُ وَلِيّهُ فَهَذَا وَلِيّهُ ، اللّهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ، (38) قَالَهَا ثَلَاثاً . آخِرُ الخُطْبَةِ . (39)

وفي «مناقب ابن المغازليّ» أيضاً بسنده عن جابر بن عبد الله أنّ رسول الله لمّا نزل بخمّ ، فتنحّى الناس عنه ، ونزل معه عليّ بن أبي طالب ، فشقّ على النبيّ تأخّر الناس ، فأمر عليّاً فجمعهم ؛ فلمّا اجتمعوا ، قام فيها وهو متوسّد يد عليّ بن أبي طالب ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : أَيّهَا النّاسُ ! إنّهُ قَدْ كَرِهْتُ تَخَلّفَكُمْ عَنّي حَتّى خُيّلَ إلَيّ أَنّهُ لَيسَ شَجَرَةٌ أَبْغَضَ إلَيْكُمْ مِنْ شَجَرَةٍ تَلِينِي ؛ ثُمّ قَالَ : لَكِنْ عَلِيّ بْنُ أبي طَالِبٍ أَنْزَلَهُ اللهُ مِنّي بِمَنْزِلَتِي مِنْهُ ؛ فَرَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَمَا أَنَا عَنْهُ رَاضٍ ، فَإنّهُ لَا يَخْتَارُ عَلَى قُرْبِي وَمَحَبّتي شَيئاً . ثُمّ رَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ؛ اللّهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ .

قَالَ : فَابْتَدَرَ النّاسُ إلَى رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَبْكُونَ وَيَتَضَرّعُونَ وَيَقُولُونَ : يَا رَسُولَ اللهِ ! مَا تَنَحّيْنَا عَنْكَ إلّا كَرَاهِيَةَ أَنْ نَثْقُلَ عَلَيْكَ ! فَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَخَطِ رَسُولِ اللهِ . فَرَضِيَ رَسُولُ اللهِ عَنْهُمْ عِنْدَ

ذَلِكَ . (40)

وقال موفّق بن أحمد أخطب خطباء خوارزم بإسناده : قال الأَصْبَغُ بنُ نُبَاتَة : «دخلتُ على مُعَاوِيَة وهو جالس على نطع من الأُدم ، متّكئاً على وسادتين خضراوتين ، وعن يمينه : عَمْرُو بنُ العَاص ، وحَوْشَب ، وذُو الكَلَاعِ ، وعن شماله : أخوه عُتْبَة ، وابنُ عَامِر بنُ كريز ، والوَلِيدُ بنُ عُتْبَة ، وعَبْدُ الرّحْمَن بنُ خَالِد ، وشَرْحَبِيلُ بنُ السّمْط ؛ وبين يديه : أبُو هُرَيْرَة ، وأبُو الدّرْدَاء ، والنّعْمَانُ بنُ بَشِير ، وأُمَامَة البَاهِلِيّ .

فلمّا قرأ الكتاب [أي كتاب أمير المؤمنين عليه السلام] ، قال : إنّ علياً لا يدفع إلينا قتلة عثمان . فقلت له : يا معاوية ! تعتلّ بدم عثمان ! فإنّك تطلب الملك والسلطان ! ولو كنتَ أردت نصره حيّاً لنصرته ! ولكنّك تربّصت به لتجعل ذلك سبباً إلى وصولك إلى الملك !

فغضب [معاوية من هذا الكلام] ؛ فأردتُ أن يزيد غضبه ، فقلتُ لأبيّ هريرة : يا صاحب رسول الله ! إنّي أُحلّفك بالله الذي لا إله إلّا هو عالم الغيب والشهادة ، وبحقّ حبيبه المصطفى عليه وآله السلام ، ألا أخبرتنيّ ! أشهدتَ غدير خُمّ ؟ قال [أبو هريرة] : بلى شهِدتُه ! قلتُ : فما سمعته [يقول] في عليّ ؟!

قال : سمعته يقول : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ . اللّهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ .

قلتُ : فإذاً أنت واليتَ عدوّه ! وعاديتَ وليّه ! فتنفّس أبو هريرة الصعداء وقال : إنّا لِلّهِ وَإِنّا إِلَيْهِ رَ جِعُونَ . (41)

وروى السمعانيّ بإسناده عن سالم بن أبي الجعد ، قال : قيل لعمر : إنّكَ تَصْنَعُ بِعَلِيّ مَا لَا تَصْنَعُهُ بِأَحَدٍ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ! قَالَ : لِأَنّهُ مَوْلَايَ ! (42)

قال إبراهيم بن محمّد الحمّوئيّ ، [وهو] من أعيان علماء العامّة : قال أخبرني الشيخ مجد الدين عبد الله بن محمود بن مودود الحنفيّ ، بقراءتي عليه ، ببغداد ثالث رجب سنة اثنتين وسبعين وستمائةٍ ، قال الشيخ أبو بكر المسمار بن عمر بن العويس البغداديّ سماعاً عليه ، قال : أنبأنا أبو الفتح محمّد بن عبد الباقيّ المعروف بابن البطّيّ سماعاً عليه . وأخبرنا الإمام الفقيه كمال الدين أبو غالب هبة الله بن أبي القاسم بن أبي غالب السامريّ بقراءتي عليه بمسجد القصر ببغداد ليلة الأحد السابع والعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، قال : أنبأنا الشيخ محاسن بن عُمَر بن رضوان الحَرائنيّ سماعاً عليه في الحادي والعشرين من المحرّم سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، قال : أنبأنا أبو بكر محمّد بن عبد الله بن نصر بن الزعفرانيّ سماعاً عليه في السادس عشر من شهر رجب من سنة خمسين وخمسمائة ، قال : أنبأنا أبو عبد الله مالك بن أحمد بن عليّ بن إبراهيم الفرّاء البانياسيّ سماعاً عليه ، قال ابن الرغونيّ في شهر شعبان سنة ثلاث وستّين وأربعمائة ، قال : أنبأنا أبو الحسن أحمد بن محمّد بن موسى بن قاسم بن الصّلْت قراءةً عليه ، وأنا أسمع في رجب ثالث عشر من سنة خمس وأربعمائة ، قال : أنبأنا إبراهيم بن عبد الصمد الهاشميّ المكنّى بأبي إسحاق ، قال : أنبأنا أبو سعيد الأشجّ ، قال : أنبأنا المُطّلِب بن زياد ، عن عبد الله بن محمّد بن عقيل ، قال :

كنت عند جابر بن عبد الله في بيته ، وعليّ بن الحسين عليه السلام ومحمّد بن الحنفيّة ، وأبو جعفر [الباقر] عليه السلام [عنده] . فدخل رجل من أهل العراق ، فقال : أنشدك الله إلّا حدّثتني بما رأيت وما سمعت من رسول الله صلّى الله عليه وآله !

فقال [جابر] : كنّا بالجحفة بغدير خمّ ، وثَمّ ناس كثير من جُهَيْنَة ، وَمُزَيْنَةَ ، وغِفَار ؛ فخرج علينا رسول الله صلّى الله عليه وآله من خِبَاء أو فُسْطَاط ، (43) فأشار بِيَدِه ثلاثاً ، ثمّ أخذ بيد عليّ صلوات الله عليه وقال : مَنْ

كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيّ مَوْلاَهُ . (44)

ويقول موفّق بن أحمد [الخوارزميّ] في حديث مكاتبة معاوية لعمرو بن العاص أن يستفزّه في محاربة عليّ عليه السلام فأبى عليه عمرو بن العاص ؛ فأجاب معاوية في جواب مكاتبته ، فقال عمرو وهو [يعدّ] فضائل أمير المؤمنين عليه السلام [واحدة بعد الأُخرى] : وَقَدْ قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : هُوَ مِنّي وَأَنَا مِنْهُ ؛ وَهُوَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ؛ وَقَدْ قَالَ فِيهِ يَومَ غَدِيرِ خُمّ : أَلَا وَمَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيّ مَوْلاَهُ ؛ اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالاَهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ . إلى آخر الكتاب ، وهو كتاب مفصّل . (45)

وينقل [إبراهيم بن محمّد] الحمّوئيّ بسنده ، عن زيد بن عمر بن مورّق ، قال : كنت بالشام ، وعمر بن عبد العزيز يعطي الناس ، فتقدّمت إليه . فقال : ممّن أنتَ ؟

فقال ، قلتُ : من قريش ! قال : من أيّ قريش أنت ؟! قلت : من بني هاشم ! قال : من أي بني هاشم ؟! فسكتُ ! فوضع يده على صدره وقال : أنا والله مولى عليّ بن أبي طالب !

ثمّ قال : حدّثني عدّة أنّهم سمعوا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول : مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيّ مَوْلاَهُ . ثمّ قال [لخازنه] : يا مُزَاحم ! كم تعطي أمثاله ؟! قال [مُزاحم] : مائة أو مائتي درهم !

قال [عمر بن عبد العزيز] : أعطه خمسين ديناراً ؛ لولاية عليّ بن أبي طالب ، ثمّ قال : إلحق ببلدك فسيأتيك مثل ما يأتي نظراءك . (46)

وروى الحمّوئيّ بسنده أيضاً عن أبي سعيد الخدريّ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله دعا الناس إلى عليّ عليه السلام في غدير خمّ ، وأمر بما تحت الشجرة من الشوك فقُمّ ، وذلك يوم الخميس . (47) فدعا عليه السلام عليّاً عليه السلام ، فأخذ بضبعيه فرفعهما حتّى نظر الناس إلى بياض إبطي رسول الله ؛ ثمّ لم يفترقوا حتّى نزلت هذه الآية : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا . (48) فقال رسول الله : اللهُ أَكْبَرُ عَلَى إِكْمَالِ الدّينِ وَإِتْمَامِ النّعْمَةِ وِرِضَا الرّبّ بِرِسَالَتِي وَالوَلَايَةِ لِعَلِيّ مِنْ بَعْدِي .

وقال : مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيّ مَوْلاَهُ ؛ اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالاَهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ . فقال حسّان بن ثابت : إئْذن لي يا رسول الله ، فأقول في عليّ أبياتاً تسمعها ! فقال : قل على بركة الله !

فقام حسّان ، فقال : يا معشر مشيخة قريش ! اسمعوا قولي شهادة من رسول الله في الولاية الثابتة لعليّ ! ثمّ أنشد هذه الأبيات :

يُنَادِيهِمُ يَوْمَ الغَدِيرِ نَبِيّهُمْ

بِخُمّ وَأَسْمِعْ بِالرّسُولِ مُنَادِيَا

يَقُولُ : فَمَنْ مَوْلَاكُمُ وَوَلِيّكُمْ ؟

فَقَالُوا وَلَمْ يُبْدُوا هُنَاكَ التّعَامِيَا (49)

اِلَهُكَ مَوْلَانَا وأَنْتَ وَلِيّنَا

ولَنْ تَجِدَنْ مِنّا لَكَ اليَوْمَ عَاصِيَا

هُنَاكَ دَعَا : اللَهُمّ وَالِ وَلِيّهُ

وَكُنْ لِلّذِي عَادَى عَلِيّاً مُعَادِيَا

فَقَالَ لَهُ : قُمْ يَا عَلِيّ فَإِنّنِي

رَضِيتُكَ مِنْ بَعْدِي إمَاماً وهَادِيا (50)

علماً أنّ الأعلام والعلماء في الحديث والتأريخ أجمعوا على شعر حسّان بن ثابت ؛ وهذه الأبيات نفسها مستمسك حيّ على الولاية في يوم الغدير ؛ وتعتبر من الوثائق التأريخيّة الهامّة للغدير ، إذ أُنشدت بين يدي رسول الله ، ووسِعت مُفاد حديث الولاية في يوم الغدير .

كان حسّان شاعر النبيّ ، وتبوّأ في الشعر مقاماً منيعاً . ونقل المؤرّخون مدائحة في رسول الله وأمير المؤمنين عليهما الصلاة والسلام في كتبهم خلال مناسبات مختلفة . والذين ذكروا شعره في الغدير يختلفون في عدد الأبيات ، فمنهم من قال : ثلاثة ، ومنهم : أربعة ، ومنهم : خمسة ، والأغلب : ستّة ، وثمّة من قال : عشرة ، وهناك من قال : أكثر من ذلك ؛ وفيما يلي هذه الأبيات نقلاً عن كتاب «الغدير» ، تعقبها أسماء الكبار من العامّة والشيعة الذين ذكروا تلك الغديريّة في كتبهم :

يُنَادِيهُمُ يَوْمَ الغَدِيرِ نَبِيّهُمْ

بِخُمّ وَأَسْمِعْ بِالرّسُولِ مُنَادِيَا

فَقَالَ : فَمَنْ مَوْلَاكُمُ ونَبِيّكُمْ ؟

فَقَالُوا ولَمْ يُبْدُوا هُنَاكَ التّعَامِيَا

إلَهُكَ مَوْلَانَا وأَنْتَ نَبِيّنَا

ولَمْ تَلْقَ مِنّا فِي الوَلَايَةِ عَاصِيَا

فَقَالَ لَهُ : قُمْ يَا عَلِيّ فَإنّني

رَضِيتُكَ مِنْ بَعْدِي إمَاماً وهَادِيَا

فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا وَلِيّهُ

فَكُونُوا لَهُ أَتْبَاعَ صِدْقٍ مُوَالِيَا

هُنَاكَ دَعَا اللَهُمّ : وَالِ وَلِيّهُ

وَكُنْ لِلّذِي عَادَى عَلِيّاً مُعَادِيَا

ومن مشاهير علماء العامّة الذين ذكروا أبيات حسّان في كتبهم :

1 . الحافظ أبو عبد الله المَرْزَبانيّ محمّد بن عمران الخراسانيّ المتوفّى [في سنة] 378 في [كتاب] «مِرْقاة الشعر» .

2 . الحافظ [أبوسعيد] الخركوشيّ المتوفّى [في سنة] 406 في كتابه «شرف المصطفى» .

3 . الحافظ ابن مردويه الإصفهانيّ المتوفّى [في سنة] 410 أخرجه في كتابه .

4 . الحافظ أبو نُعَيْم الإصفهانيّ المتوفّى [في سنة] 430 في كتابه : «مَا نَزَلَ مِنَ القُرْآنِ فِي عَلِيّ» .

5 . الحافظ أبو سعيد السّجسْتَانيّ المتوفّى [في سنة] 447 في كتاب «الوَلَايَة» .

6 . أخطب الخطباء ، الخوارزميّ المتوفّى [في سنة] 568 في كتاب «المناقب» ، وكتاب «مقتل الإمام السّبط الشّهيد» .

7 . الحافظ أبو الفتح النطنزيّ في كتاب «خصائص العلويّة على سائر البريّة» .

8 . أبو المظفّر سبط ابن الجوزيّ الحنفيّ المتوفّى [في سنة] 654 في كتاب «تذكرة خواصّ الأُمّة» .

9 . صدر الحُفّاظ الكَنْجيّ الشافعيّ المتوفّى [في] 658 ، في كتاب «كِفاية الطّالِب» .

10 . شيخ الإسلام صدر الدين الحَمّوئيّ المتوفّى [في] 722 في كتاب «فَرائد السّمطَين» .

11 . الحافظ جمال الدّين محمّد بن يوسف الزَرَنديّ المتوفّى بضع و750 ، في «نظم دُرَر السّمْطَين» .

12 . الحافظ جلال الدين السيوطيّ المتوفّى [فى سنة] 911 في كتاب «الازْدِهَارُ فِيمَا عَقَدَهُ الشّعَرَاءُ مِنَ الأشعَار» .

ومن مشاهير علماء الشيعه الذين ذكروا أبيات حسّان:

1 . أبو عبد الله المُفَجّع محمّد بن أحمد المتوفّى [في] 227 .

2 . أبو جعفر محمّد بن جرير بن رستم بن يزيد الطبريّ في «المُسْتَرْشِد» .

3 . أبو جعفر الصدوق ، محمّد بن بَابَوَيْه المتوفّى [في] 381 في كتاب «الأمالي» .

4 . الشريف الرضيّ المتوفّى [سنة] 406 .

5 . مُعَلّم الأُمّة شيخنا المفيد المتوفّى [سنة] 413 في كتاب «الْفُصُولُ المُخْتَارَة» ، وكذلك في رسالته في معنى المَوْلى ، وذكره أيضاً في كتابه الآخر : «النّصْرَةُ لِسَيّدِ العِتْرَةِ فِي حَرْبِ البَصرَةِ» ؛ وفي كتاب «الإرشاد» أيضاً .

6 . الشريف المرتضى عَلَم الهُدَى المتوفّى [سنة] 436 في شرح بائيّة السيّد الحِمْيَرِيّ .

7 . أبو الفتح الكَراجُكيّ المتوفّى [سنة] 449 في «كَنْزُ الْفَوَائِد» .

8 . الشيخ عبيد الله بن عبد الله السّدآباديّ في [كتاب] «المُقْنِع» في الإمامة .

9 . شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسيّ المتوفّى [سنة] 460 في كتاب «تَلْخيص الشّافِي» .

10 . المفسّر الكبير الشيخ أبو الفتوح الخزاعيّ الرازيّ المتوفّى [سنة] 558 في تفسيره .

11 . الشيخ الفتّال في «روضة الواعظين» .

12 . أبوعليّ الفضل بن الحسن الطّبْرَسيّ في «إعلامُ الوَرَى» .

13 . ابن شهرآشوب السّرَويّ المازندرانيّ المتوفّى [سنة] 588 في «المناقب» .

14 . أبو زكريّا يحيى بن الحسن الحِلّي الشهير بابن بِطْريق في كتاب «الخصائص» .

15 . السيّد هبة الدين في كتاب «الْمَجْمُوع الرّائق» .

16 . رضيّ الدين عليّ بن طاووس المتوفّى [سنة] 664 في «الطرائف» .

17 . بهاء الدين أبو الحسن الإربليّ المتوفّى سنة 692 أو 693 في «كشف الغمّة» .

18 . عماد الدين الحسن الطّبَريّ في [كتاب] «كامل بهائي» .

19 . الشيخ يوسف بن أبي حاتم الشاميّ في موضعين من كتابه «الدرّ النّظيم» .

20 . الشيخ عليّ البياضيّ العامليّ [المتوفّى سنة 877] في كتاب «الصّراط المُسْتَقِيم» .

21 . القاضيّ نور الله المَرعشيّ الشوشتريّ الشهيد المتوفّى سنة 1091 في «مجالس المؤمنين» .

22 . المولى محسن الفيض الكاشانيّ المتوفّى سنة 1091 في [كتاب] علم اليقين .

23 . الشيخ إبراهيم القَطْيفيّ في [كتاب] «الفِرْقَة النّاجِيَة» .

24 . السيّد هاشم البحرانيّ المتوفّى [سنة] 1107 في «غاية المرام» .

25 . العلّامة المجلسيّ المتوفّى [سنة] 1111 في «بحار الأنوار» .

26 . شيخنا البَحْرانيّ صاحب «الحدائق» المتوفّى 1186 في كتابه : «الكشكول» . وهناك جمع آخرون من العلماء رووا هذا الحديث من شعر حَسّان . (51) ولمّا كان بحثنا يحوم حول سند حديث الغدير والولاية ، لهذا

ذكرنا أسماء هؤلاء الأعلام وكتبهم .

وروى الحَمّوئيّ أيضاً بسنده عن الأصبَغ [بن نُباتة] قَالَ : سُئِلَ سَلْمَانُ الفَارِسِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَفَاطِمَةَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا وَآلِهِمَا ، فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : عَلَيْكُمْ بِعَلِيّ بْنِ أبي طَالِبٍ ؛ فَإنّهُ مَوْلاَكُمْ فَأَحِبّوهُ ! وَكَبِيرُكُمْ فَاتّبِعُوهُ ! وَعَالِمُكُمْ فَأكْرِمُوهُ ! وَقائِدُكُمْ إلَى الجَنّةِ فَعَزّرُوهُ ! فَإذَا دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ ! وَإذَا أَمَرَكُمْ فَأَطِيعُوهُ ! أحِبّوهُ بِحُبّي ! وَأَكْرِمُوهُ بِكَرَامَتِي ! مَا قُلْتُ لَكُمْ فِي عَلِيّ إلّا مَا أَمَرَنِي بِهِ رَبّي جَلّتْ عَظَمَتُهُ . (52)

وروى ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» عن سفيان الثوريّ ، عن عبد الرحمن بن قاسم ، عن عمرو بن عَبْدِ الغَفّارِ أنّ أبا هُرَيْرَةَ لمّا قدم الكوفة مع معاوية ؛ وكان يجلس بالعشيّات بباب كِنْدَه ، ويجلس الناس إليه ، فجاء شابّ من الكوفة ، فجلس إليه ، فقال : يا أبا هُرَيْرَةَ أُنشدك الله ، هل سمعت رسول الله يقول في عليّ بن أبي طالب : اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالاَهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ؟!

قال أبو هُرَيْرَة : اللَهُمّ نَعَمْ ! فقال الشابّ : فَأَشْهَدُ بِاللهِ لَقَدْ وَالَيْتَ عَدُوّهُ ، وَعَادَيْتَ وَلِيّهُ ، ثُمّ قَامَ عَنْهُ . (53)

وذكر ابن أبي الحديد في شرحه أيضاً أنّ ابن نوح قال : وَاعَجَبَا مِنْ قَوْمٍ . يَعْنِي مِنْ أَصْحَابِ صِفّينٍ . يَعْتَرِيهِمُ الشّكّ فِي أَمْرِهِمْ فِي مَكَانِ عَمّارٍ ؛ وَلَا يَعْتَرِيهِمُ الشّكّ فِي مَكَانِ عَلِيّ عَلَيهِ السّلَامُ وَيَسْتَدِلّونَ عَلَى أنّ الحَقّ مَع أَهْلِ العِرَاقِ يَكُونُ عَمّارٌ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ؛ وَلَا يَعْنُونَ بِمَكَانِ عَلِيّ ؛ وَيَحْذَرُونَ مِنْ قَوْلِ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : تَقْتُلُكَ الفِئَةُ البَاغِيَةُ ؛ وَيَرْتَاعُونَ لِذَلِكَ ؛ وَلَا يَرتَاعُونَ لِقَوْلِهِ فِي عَلِيّ عَلَيهِ السّلَامُ : اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالاَهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ؛ وَلَا لِقَوْلِهِ : لَا يُحِبّكَ إلّا مُؤْمِنٌ ، وَلَا يُبْغِضُكَ إلّا مُنَافِقٌ . (54)

ونقل ابن أبي الحديد في شرحه أيضاً أنّ عمّار بن يَاسِر كان يتحدّث مع عَمرو بن العاص في يوم صِفّين .

قال له عمّار [بن يَاسِر] : سأُخْبِرك على ما أُقاتلك عليه وأصحابك . إنّ رسول الله أمرني أن أُقاتل الناكثين ، وقد فعلتُ . وأمرني أن أُقاتل القاسطين ، وأنتم هم ! وأمّا المَارِقُون ، فلا أدري أدركهم أم لا ؟!

أَيّهَا الأَبْتَرُ ! أَلَسْتَ تَعْلَمُ أنّ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ قَالَ : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ، اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالاَهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ؟ وَأَنَا مَوْلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ؛ وَعَلِيّ مَوْلَايَ بَعْدَهُمَا . (55)

إنّ العلّامة الكبير والمُحَدّث العظيم : السيّد هاشم البَحْرانيّ ، وهو من علماء الإسلام ومدرسة التشيّع ، ومن الشخصيّات القيّمة . وهو صاحب «تفسير البرهان» ، و«مدينة المعاجز» و«غاية المرام» ، وكتب أُخرى ؛ يقول في «غاية المرام» بعد نقله تسعة وثمانين حديثاً عن العامّة ذكرنا عدداً قليلاً منها هنا : خبر غدير خمّ قد بلغ حدّ التواتر من طريق العامّة والخاصّة ، حتّى أنّ محمّد بن جرير الطبريّ صاحب التأريخ أخرجه وطرقه من خمسة وسبعين طريقاً ، وأفرد له كتاباً سمّاه : كتاب «الوَلَايَة» ؛ وهذا الرجل عاميّ المذهب .

وأفرد له أبو العبّاس محمّد بن سعيد بن عُقْدَة كتاباً ؛ واستخرج طرق حديث الغدير من مائة وخمسة طرق ؛ وهذا قد تجاوز حدّ التواتر ؛ فلا يوجد خبر قطّ نقل من طرق بقدر هذه الطرق . فيجب أن يكون أصلاً متّبعاً وطريقاً واضحاً . وبعد نقله عن ابن طاووس قصّة أبي المعالي الجُوَينيّ في بغداد ومشاهدته الجزء الثامن والعشرين من «الغدير» عند الصحّاف ، يقول : حِكَايَةٌ لَطِيفَةٌ : ذكر ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» قال : حدّثني يحيي بن سعيد بن عليّ الحنبليّ المعروف بابنِ غَالِيَة من ساكني قطيفا بالجانب الغربيّ ببغداد ؛ وأحد الشهود المعدّلين بها قال : كنت حاضراً عند الفخر إسماعيل بن عليّ الحنبليّ الفقيه المعروف بغُلام ابن المُثَنّى . وكان الفخر إسماعيل هذا من مقدّم الحنابلة ببغداد في الفقه والخلاف ، ويشتغل بشيء في علم المنطق ، وكان حلو العبارة . وقد رأيتُه أنا وحضرت عنده وسمعت كلامه ، وتوفّي سنة ستمائة وعشر .

قال ابن غالية : ونحن عنده نتحدّث إذ دخل شخص من الحنابلة قد كان له دَين على بعض أهل الكوفة ، فانحدر إليه يطالبه به ؛ فاتّفق أن حضرت زيارة يوم الغدير ؛ والحنبليّ المذكور في الكوفة . وهذه الزيارة هي اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة ، ويجتمع بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام من الخلائق جموع عظيمة تتجاوز حدّ الإحصاء .

قال ابن غالية : فجعل الشيخ الفَخْر يسأل ذلك الشخص ، ما رأيت هل وصل مَالَكَ إليك

قال ابن غالية : فجعل الشيخ الفَخْر يسأل ذلك الشخص ، ما رأيت هل وصل مَالَكَ إليك

قال ابن غالية : ونحن عنده نتحدّث إذ دخل شخص من الحنابلة قد كان له دَين على بعض أهل الكوفة ، فانحدر إليه يطالبه به ؛ فاتّفق أن حضرت زيارة يوم الغدير ؛ والحنبليّ المذكور في الكوفة . وهذه الزيارة هي اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة ، ويجتمع بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام من الخلائق جموع عظيمة تتجاوز حدّ الإحصاء .

قال ابن غالية : فجعل الشيخ الفَخْر يسأل ذلك الشخص ، ما رأيت هل وصل مَالَكَ إليك؟ ! هل بقي لك منه بقيّة عند غريمك ؟! وذلك الشخص يجاوبه ، حتّى قال : يا سيّدي ، لو شاهدت يوم الزيارة يوم الغدير ، لرأيت ما يجري عند قبر عليّ بن أبي طالب من الفضائح والأقوال الشنيعة وسبّ الصحابة جهاراً بأصوات مرتفعة من غير مراقبة ولا خيفة !

فقال [الفَخْر] إسماعيل : أيّ ذنب لهم ؟ والله ماجرّأهم على ذلك ولا فتح لهم هذا الباب إلّا صاحب هذا القبر .

فقال ذلك الشخص ؛ ومن هو صاحب القبر ؟!

قال [الفخر] : عليّ بن أبي طالب .

فقال [ذلك الشخص] : يا سَيّدي ! هو الذي سنّ لهم ذلك وعلّمهم إيّاه وطرّقهم إليه ؟ ! قال [الفخر] : نعم !

فقال [ذلك الشخص] : يا سَيّدي ! فإن كان [عليّ] محقّاً ، فما لنا نتولّى فلاناً وفلاناً ؟ وإن كان مبطلاً ، فما لنا نتولّاه ؟! ينبغي أن نبرأ منه أو منهما .

قال ابن غالية : [لم يجد ذلك الفقيه الحَنْبليّ جواباً] فقام إسماعيل مسرعاً فلبس نعله وقال : لعن الله إسماعيل (الفاعل بن الفاعل) إن كان يعرف جواب هذه المسألة ؛ ودخل دار حرمه وقمنا نحن وانصرفنا . (56)

وأمّا الروايات والأحاديث المأثورة عن الخاصّة:

روى المرحوم الصدوق عن أبيه قال : حدّثنا أحمد بن إدريس ، قال : حدّثنا يعقوب بن يزيد ، عن محمّد بن أبي عمير ، عن محمّد القبطيّ ، قال : قال [الإمام] الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام : أغفل الناس قول رسول الله في عليّ بن أبي طالب في مَشْربة أُمّ إبراهيم كما أغفلوا قوله يوم غدير خمّ .

إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان في مَشْرَبَة أُمّ إبراهيم ، وعنده أصحابه إذ جاء عليّ بن أبي طالب ، فلم يفرحوا له . فلمّا رآهم رسول الله لا يفرحون له ، قال : مَعَاشِرَ النّاس ! هذا أهل بيتي تَستخفّون بهم ، وأنا حيّ بين أظهركم !

أمّا والله لئن غبت عنكم ، إنّ الله لا يغيب عنكم . إنّ الرّوح ، والراحة ، والبِشر ، والبشارة لمن ائتمّ بعليّ ، وتولّاه ، وسلّم له ، وللأوصياء من ولده . حقّاً عَلَيّ أن أدخلهم في شفاعتي ، لأنّهم أتباعي . ومَن تبعني ، فإنّه منّي . سُنّةً جرت فِيّ من إبراهيم [الخليل] ؛ لأنّي من إبراهيم ، وإبراهيم منّي . وفضلي له فضل ، وفضله فضلي . وأنا أفضل منه ، تصديق قول ربّي : ذُرِّيَّةً بِعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . (57)

وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله وثبت له رجله في مَشْرَبَة أُمّ إبراهيم ، حتّى عاده الناسُ [أمر عليّ بن أبي طالب] . (58)

وروى الصدوق أيضاً بسنده عن وَكيع المَسْعوديّ ، رفعه عن سلمان الفارسيّ رحمه الله قال : مرّ إبليس لعنه الله بنفر يتسابّون أمير المؤمنين عليه السلام فوقف أمامهم . فقال القوم : من الذي وقف أمامنا ؟! فقال [إبليس]

: أنا أُبو مُرّة (وأبُو مُرّة لقبه) . فقالوا : يا أبا مُرّة ! أما تسمع كلامنا ؟! فقال [إبليس] : سوأةً لكم ! تسبّون مولاكم عليّ بن أبي طالب ! فقالوا له : من أين علمت أنّه مولانا ؟ فقال [إبليس] : من قول نبيّكم : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ؛ اللّهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ، وانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ . فقالوا له : أنت من مواليه وشيعته ؟ فقال : ما أنا من مواليه وشيعته ، ولكنيّ أُحبّه . وما يبغضه أحد إلّا شاركته في المال والولد .

فقالوا له : يَا أبا مُرّة ! فتقول في عليّ شيئاً ؟! فقال [إبليس] : اسمعوا منّي معاشر النّاكِثين وَالقَاسِطين وَالمَارِقين ! عبدتُ الله عزّ وجلّ في الجانّ اثني عشر ألف سنة . فلمّا أهلك الله الجانّ ، شكوت إلى الله عزّ وجلّ الوحدة . فعرج بي إلى السماء الدنيا ، فعبدت الله عزّ وجلّ في السماء الدنيا اثني عشر ألف سنة في جملة الملائكة . فبينا نحن نسبّح الله عزّ وجلّ ونقدّسه ، إذ مرّ بنا نور شعشعانيّ ، فخرّت الملائكة لذلك سجّداً فقالوا : سُبّوحٌ قُدّوسٌ . نور ملك مقرّب أو نبيّ مُرسَل ؟ فإذا النداء من قبل الله عزّ وجلّ : لَا نُورُ مَلَكٍ مُقَرّبٍ ، وَلَا نَبِيّ مُرْسَلٍ ، هَذَا نُورُ طِينَةِ عَلِيّ بْنِ أبي طَالِبٍ . (59)

وروى عليّ بن إبراهيم عن أبيه ، عن ابن أبي عمير ، عن ابن سنان ، عن الإمام الصادق عليه السلام قال : لمّا أمر الله نبيّه أن ينصب أمير المؤمنين للناس في قوله : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ «في عَلِيّ» بِغَدِيرِ خُمّ ؛ فقال [النبيّ] : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ، فجاءت الأبالسة إلى إبليس الأكبر وحثوا التراب على وجوههم .

فقال لهم إبليس [الأكبر] : ما لكم ؟! قالوا : إنّ هذا الرجل (النبيّ) قد عقد اليوم عقدة لا يحلّها شيء إلى يوم القيامة . فقال لهم إبليس : كلّا ، إنّ الذين حوله قد وعدوني فيه عدّة لن يخلفونيّ ! فأنزل الله على رسوله : وَلَقَدْ صَدّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنّهُ فَاتّبَعُوهُ إِلّا فَرِيقًا مّنَ الْمُؤْمِنِينَ . (60) و (61)

وروى الشيخ الطوسيّ في «التهذيب» بإسناده عن حَسّان الجمّال ، قال : حملتُ أبا عبد الله عليه السلام من المدينة إلى مكّة ؛ فلمّا انتهينا إلى مسجد الغدير ، نظر في ميسرة الجبل ، فقال : ذاك موضع قدم رسول الله صلّى الله عليه وآله حيث قال : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ؛ اللّهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ . ثمّ نظر في الجانب الآخر ، قال : ذاك موضع أبي فلان ، وفلان ، وسالم مولى أبي حُذَيفة ، وأبي عُبَيْدَة الجَرّاح ، لمّا رأوه رافعاً يده ، قال بعضهم : انظروا إلى عينيه تدوران كأنّهما عينا مجنون ! فنزل جبرئيل بهذه الآية : وَإِن يَكَادُ الّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمّا سَمِعُوا الذّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلّا ذِكْرٌ لّلْعَلَمِينَ . (62) ثمّ قال : يا حَسّان ! لولا أنّك جمّالي ، ما حدّثتك بهذا الحديث . (63)

وروى محمّد بن عليّ بن شهرآشوب ، عن معاوية بن عمّار ، عن [الإمام] الصادق عليه السلام ، قال : لمّا قال النبيّ : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ . قال العَدَويّ : لا ، والله ، ما أمره الله بهذا ، وما هو إلّا شيء يتقوّله ، فأنزل الله تعالى :

وَلَوْ تَقَوّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَجِزِينَ * وَإِنّهُ لَتَذْكِرَةٌ لّلْمُتّقِينَ * وَإِنّا لَنَعْلَمُ أَنّ مِنكُم مّكَذّبِينَ * وَإِنّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَفِرِينَ * وَإِنّهُ لَحَقّ الْيَقِينِ . (64) [والمراد من قوله] : وَإِنّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَفِرِينَ يعني محمّد ، [والمراد من قوله] : وَإِنّهُ لَحَقّ الْيَقِينِ : يعني به عَلِيّ . (65)

وروى محمّد بن العبّاس [ابن مَاهْيار] بسنده عن فضيل بن عبد الملك ، عن الإمام الصادق عليه السلام قال : لمّا أوقف رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أمير المؤمنين [عليه السلام] يوم الغدير ، افترق الناس ثلاث

فرق . فقالت فرقة : ضلّ محمّد . وفرقة قالت : غوى . وفرقة قالت : يهواه ، ويقوله في أهل بيته وابن عمّه . فأنزل الله سبحانه [هذه الآيات] :

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى . (66) و (67)

وروى الشيخ الطوسيّ في أماليه قال أخبرنا محمّد بن محمّد يعنى [الشيخ] المفيد ، بسنده عن زيد بن أرقم ، قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ بِغَدِيرِ خُمّ يَقُولُ : إِنّ الصّدَقَةَ لَا تَحِلّ لِي وَلَا لِأَهْلِ بَيْتِي . لَعَنَ اللهُ مَنِ ادّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ ؛ لَعَنَ اللهُ مَنْ تَوَلّى غَيْرَ مَوَالِيهِ . الوَلَدُ لِصَاحِبِ الفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ . وَلَيْسَ لِوَارِثٍ وَصِيّةٌ . أَلَا وَقَدْ سَمِعْتُمْ مِنّي وَرَأَيْتُمُونِي . أَلَا مَنْ كَذَبَ عَلَيّ مُتَعَمّداً فَلْيَتَبَوّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ . أَلَا وَإِنّي فَرَطٌ لَكُمْ عَلَى الحَوْضِ ، وَمُكَاثِرٌ بِكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَلَا تُسَوّدُوا وَجْهِي . أَلَا لَأَسْتَنْقِذَنّ رِجَالاً مِنَ النّارِ وَلَيُسْتَنْقَذَنّ مِنْ يَدَيّ أَقْوَامٌ . إِنّ اللهَ مَوْلَايَ ، وَأَنَا مَوْلَى كُلّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ . أَلَا فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ ، فَهَذَا عَلِيّ مَوْلَاهُ . (68)

وروى الشيخ في أماليه [أيضاً] بإسناده عن سَهْم بن حَصِين الأسديّ ، قال : قدمت إلى مكّة أنا وعبد الله بن عَلْقَمة ؛ وكان عبد الله بن علقمة سبّابة لعليّ بن أبي طالب دهراً .

قال : فقلت [أي لعبد الله] : هل لك في هذا (يعني أبا سعيد الخُدريّ) نحدث به عهداً ؟!

قال : نعم ! فأتينا . فقال [له عبد الله] : هل سمعت لعليّ منقبة ؟!

قال : نعم ! إذا حدّثتك ، تسأل عنها المهاجرين والأنصار وقريشاً . [اعلم] أنّ رسول الله قام يوم غدير خمّ فأبلغ ، ثمّ قال : أيّها النّاسُ ! أَلَسْتُ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ؟ قالوا : بلى ، قالها ثلاث مرّات . ثمّ قال : ادنُ يا عَلِيّ ! فرفع رسول الله يديه حتّى نظرتُ إلى بياض آباطهما ، وقال : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ، ثلاث مرّات .

قال : فقال عبد الله بن عَلْقمة [لأبي سعيد] : أنتَ سمعت هذا من رسول الله ؟! قال أبو سعيد : نعم ، وأشار إلى أُذنيه وصدره وقال : سمعته أُذناي ووعاه قلبي .

قال عبد الله بن شَرِيك : فقدم [علينا] عبد الله بن علقمة ، وسهم بن حصين ، فلمّا صلّينا صلاة الظهر ، قام عبد الله بن عَلْقَمة ، فقال : إِنّي أَتُوبُ إِلَى اللهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ مِنْ سَبّ عَلِيّ . (69)

وروى الشيخ في أماليه [أيضاً] بسنده عن عبد الله بن يزيد ، عن أبيه ، قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مَوْلَى كُلّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ ، وَهُوَ وَلِيّكُمْ مِنْ بَعْدِي . (70)

وروى في أماليه [أيضاً] بسنده عن عُمَير بن سعد أنّه سمع عليّاً في الرّحْبَة ينشد الناس ، مَن سمع رسول الله يقول : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ؛ اللّهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ [فليقم ويشهد] . فقام بضعة عشر ، فشهدوا . (71)

وروى في أماليه [أيضاً] بسنده عن عبد الرحمن بن أبي لَيْلى قال : قال أبي : دفع رسول الله صلّى الله عليه وآله الراية يوم خيبر إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام ففتح الله عليه . وأوقفه يوم غدير خمّ فأعلم الناس أنّه مولى كلّ مؤمن ومؤمنة . وَقَالَ لَهُ : أَنْتَ مِنّي وَأَنَا مِنْكَ . وَقَالَ لَهُ : تُقَاتِلُ يَا عَلِيّ عَلَى التّأْوِيلِ كَمَا قَاتَلْتُ أَنَا عَلَى التّنْزِيلِ . وَقَالَ : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي . وَقَالَ لَهُ : أَنَا سِلْمٌ لِمَنْ سَالَمَكَ ، وَحَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَكَ . وَقَالَ لَهُ : أَنْتَ العُرْوَةُ الوُثْقَى . وَقَالَ لَهُ : أَنْتَ تُبَيّنُ لَهُمْ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدِي . وَقَالَ لَهُ : أَنْتَ إِمَامُ كُلّ مُؤمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ ؛ وَوَلِيّ كُلّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ بَعْدِي . وَقَالَ لَهُ : أَنْتَ الّذِي أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ : وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النّاسِ يَوْمَ الْحَجّ الْأَكْبَرِ . وَقَالَ لَهُ : أَنْتَ الآخِذُ بِسُنّتِي وَالذّابّ عَنْ مِلّتِي . وَقَالَ لَهُ :

أَنَا أَوّلُ مَنْ تَنْشَقّ عَنْهُ الأَرْضُ وَأَنْتَ مَعِي . وَقَالَ لَهُ : أَنَا عِنْدَ الحَوْضِ وَأَنْتَ مَعِي . وَقَالَ لَهُ : أَنَا أَوّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنّةَ وَأَنْتَ بَعْدِي ، تَدْخُلُهَا وَالحَسَنُ وَالحُسَيْنُ وَفَاطِمَةُ . وَقَالَ لَهُ : إِنّ اللهَ أَوْحَى إِلَيّ بِأَنْ أَقُومَ بِفَضْلِكَ ، فَقُمْتُ بِهِ فِي النّاسِ ، وَبَلّغْتُهُمْ مَا أَمَرَنِي اللهُ بِتَبْلِيغِهِ . وَقَالَ لَهُ : اتّقِ الضّغَائِنَ الّتِي فِي صُدُورِ مَن لَا يُظْهِرُهَا إِلّا بَعْدَ مَوْتِي ، أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاّعِنُونَ .

ثُمّ بَكَى النّبِيّ فَقِيلَ : مِمّ بُكَاؤُكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : أَخْبَرَنِي جَبْرَائِيلُ عَلَيهِ السّلَامُ عَنْ رَبّهِ عَزّ وَجَلّ : أَنّ ذَلِكَ يَزُولُ إِذَا قَامَ قَائِمُهُمْ ، وَعَلَتْ كَلِمَتُهُمْ ، وَاجْتَمَعَتِ الأُمّةُ عَلَى مَحَبّتِهِمْ ، وَكَانَ الشّانِي لَهُمْ قَلِيلاً ، وَالكَارِهُ لَهُمْ ذَلِيلاً ، وَكَثُرَ المَادِحُ لَهُمْ ؛ وَذَلِكَ حِينَ تَغَيّرِ البِلَادِ ، وَتَضَعّفِ العِبَادِ ، وَالإِيَاسِ مِنَ الفَرَجِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَظْهَرُ القَائِمُ فِيهِمْ . الحديث . (72)

وروى الشيخ في أمالية [أيضاً] بإسناده عن المُجَاشِعيّ ، بسندين : أحدهما عن محمّد بن جعفر بن محمّد ، عن أبيه الصادق عليه السلام ، والثاني عن [الإمام] الرضا [عليه السلام] عن أبيه موسى ، عن أبيه جعفر بن محمّد [عليه السلام] قالا جميعاً عن آبائه ، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول : بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسِ خِصَالٍ : عَلَى الشّهَادَتَيْنِ ، وَالقَرِينَتَيْنِ . قِيلَ لَهُ : أَمّا الشّهَادَتَيْنِ فَقَدْ عَرَفْنَاهُمَا ، فَمَا القَرِينَتَانِ ؟ قَالَ : الصّلَاةُ وَالزّكَاةُ ، لَا يُقْبَلُ إِحْدَاهُمَا إِلّا بِالأُخْرَى ، وَالصّيَامِ وَحِجّ بَيْتِ اللهِ مَنِ اسْتَطَاعَ سَبِيلاً ؛ وَخُتِمَ ذَلِكَ بِالوِلَايَةِ . فَأَنْزَلَ اللهُ عَزّ وَجَلّ : «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا» . (73)

وروى الشيخ في مجالسه بسنده عن أبي ذرّ [الغِفاريّ] : جُنْدُبِ بْنِ جُنَادَة يَقُولُ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيهِ السّلَامُ فَقَالَ لَهُ : يَا عَلِيّ ! أَنْتَ أَخِي ، وَصَفِيّي ، وَوَصِيّي ، وَوَزِيرِي ، وَأَمِينِي ، مَكَانُكَ مِنّي فِي حَيَاتِي وَبَعْدَ مَوْتِي كَمَكَانِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ، إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ مَعِي . مَنْ مَاتَ وَهُوَ يُحِبّكَ خَتَمَ اللهُ عَزّ وَجَلّ لَهُ بِالأَمْنِ وَالإِيْمَانِ ؛ وَمَنْ مَاتَ وَهُوَ يُبْغِضُكَ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الإِسْلَامِ نَصِيبٌ . (74)

وروى الشيخ في مجالسه بسنده عن عمرو بن ميمون الأوديّ أنّه ذكر عنده عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فقال : إنّ قوماً ينالون منه [عليه السلام] أُولئك هم وقود النار . ولقد سمعت هذه الآية من أصحاب محمّد صلّى الله عليه وآله ، منهم : حُذَيْفَةُ بن اليَمَان ، وكعْبُ بْنُ عُجْرَة ، يقول كلّ رجل منهم : لقد أُعطِي عليّ [عليه السلام] ما لم يعطه بشر . هو زوج فاطمة سيّدة نساء الأوّلين والآخرين . فمن رأى مثلها أو سمع أنّه تزوّج بمثلها أحد في الأوّلين والآخرين ؟ وهو أبو الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة من الأوّلين والآخرين . فمن له أيّها الناس مثلهما ؟ ورسول الله صلّى الله عليه وآله حموه ، وهو وصيّ رسول الله في أهله وأزواجه .

وسدّ [رسول الله] الأبواب التي في المسجد كلّها غير بابه . وهو صاحب باب خيبر ، وهو صاحب الراية يوم خيبر . وتفل رسول الله يومئذٍ في عينيه وهو أرمد ، فما اشتكاهما بعد ، ولا وجد حَرّاً ولا قرّاً بعد ذلك اليوم .

وهو صاحب يوم غدير خمّ إذ نوّه رسول الله باسمه ، وألزم أُمّته ولايته ، وعرّفهم بخطره ، وبيّن لهم مكانه ، فقال : أَيّهَا النّاسُ ! مَنْ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ؟ قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ . قَالَ : فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيّ مَوْلَاهُ . (75)

ونقل الشيخ في مجالسه [أيضاً] عن أبي زاذان ، في خطبة خطبها [الإمام] الحسن بن عليّ عليه السلام في الناس بحضور معاوية . وذكر فيها فضل أبيه وسوابقه وما قال الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله من النصّ ، إلى أن قال : فَقَدْ تَرَكَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ هَارُونَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنّهُ خَلِيفَةُ مُوسَى فِيهِمْ وَاتّبَعُوا السّامِرِيّ ، وَقَدْ تَرَكَتْ هَذِهِ

الأُمّةُ أبي وَبَايَعُوا غَيْرَهُ وَقَدْ سَمِعُوا رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ يَقُولُ لَهُ : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا النّبُوّةَ . وَقَدْ رَأَوْا رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ نَصَبَ أبي يَوْمَ غَدِيرِ خُمّ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُبَلّغَ الشّاهِدُ مِنْهُمُ الغَائِبَ . (76)

وروى في مجالسه أيضاً هذا المضمون من خطبة الإمام الحَسَن بألفاظ أُخرى ، وبسند آخر عن عبد الرحمن بن كَثير ، عن جعفر بن محمّد ، عن أبيه ، عن جدّه عليّ بن الحسين عليه السلام . (77)

وروى الشيخ محمّد بن محمّد بن النعمان [المعروف بالشيخ] المفيد في أماليه بسنده عن مُحَمّدِ بْنِ نَوْفَلِ بْنِ عَائِذٍ الصّيْرَفِيّ [قال : كنت عند الهَيْثَمِ بْنِ حَبِيبٍ الصّيْرَفِيّ] فدخل علينا أَبُو حَنِيفَة : النّعْمَانُ بْنُ ثَابِت ؛ فذكرنا أمير المؤمنين [عليّ بن أبي طالب] عليه السلام ودار بيننا كلام في غدير خُمّ .

فقال أبُو حَنِيفَة : قد قلت لأصحابنا : لا تقرّوا لهم (للشيعة) بحديث غدير خمّ فيخصموكم !

فتغيّر وجه الهَيْثَمِ بْنِ حَبِيبٍ الصّيْرَفِيّ ، وقال [له] : لِمَ لا يقرّون بحديث الغدير ؟ أما هو عندك يا نُعمان ؟!

قال [أبو حنيفة] : [بلى] هو عندي وقد رُوّيتُه !

قال [الهيثم] : فلم لا تقرّون به وقد حدّثنا به حبيب بن أبي ثابت ، عن أبي الطّفَيْل ، عن زيد بن أرقم أنّ عليّاً عليه السلام أَنشد اللهَ في الرّحبة مَن سمعه ؟

فقال أبو حنيفة : أفلا ترون أنّه قد جرى في ذلك خوض حتّى نشد عليّ الناس ؟!

فقال الهيثم : فنحن نكذّب عليّاً ؟! أو نردّ قوله ؟!

فقال أبو حنيفة : ما نكذّب عليّاً ولا نردّ قولاً قاله ، ولكنّك تعلم أنّ الناس قد غلا منهم قوم !

فقال الهيثم : يقوله رسول الله صلّى الله عليه وآله ويخطب به ونشفق نحن منه ونتّقيه بغلوّ غالٍ أو قول قائل ؟! (78)

ثمّ جاء [في تلك الحال] من قطع الكلام بمسألة سأل عنها . ودار الحديث بالكوفة . وكان معنا في السوق حَبيب بن نَزَار بن حَيّان ، فجاء إلى الهيثم ، فقال له : قد بلغني ما دار عنك في عليّ عليه السلام وقول من قال . وكان حبيب مولى لبني هاشم . (79) فقال له الهيثم : النظر يمرّ فيه أكثر من هذا ، فخفّض الأمر !

فحججنا بعد ذلك ومعنا حبيب ، فدخلنا على أبي عبد الله جعفر بن محمّد عليهما السلام فسلّمنا عليه ؛ فقال له حبيب : يا أبا عبد الله ! كان من الأمر كذا وكذا ، فتبيّن الكراهيّة في وجه أبي عبد الله عليه السلام ، فقال له حبيب : هذا محمّد بن نَوفَل حضر ذلك . فقال له [الإمام] أبو عبد الله عليه السلام : أي حبيب كُفّ ! خالقوا الناس بأخلاقهم ! وخالفوهم بأعمالكم ! فَإنّ لِكُلّ امْرِئٍ مَا اكْتَسَبَ ، وَهُوَ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ مَنْ أَحَبّ ، لَا تَحْمِلُوا النّاسَ عَلَيْكُمْ وَعَلَيْنَا ! وَادْخُلُوا فِي دَهْمَاءِ النّاسِ : فَإنّ لَنَا أَيّاماً وَدَوْلَةً يَأتِي بِهَا اللهُ إذَا شَاءَ . فسكت حبيب ، فقال عليه السلام : أفهمتَ يا حبيب ؟ لا تخالفوا أمري فتندموا ! فقال حبيب : لن أُخالف أمرك .

قال أبو العبّاس [ابن عُقْدَة ، أحمد بن محمّد بن سعيد] : سألتُ عليّ بن الحسين عن محمّد بن نَوْفَل فقال : كوفيّ . قلت : ممّن ؟ قال : أحسبه مولى لبني هاشم . وكان حبيبُ بن نَزَار بن حَيّان مولى لبني هاشم . وكان الخبر فيما جرى بينه وبين أبي حنيفة حين ظهر أمر بني العبّاس فلم يمكنهم (الشيعة) إظهار ما كان عليه آل محمّد صلّى الله عليه وآله . (80)

وذكر ابن بابويه في كتاب «النصوص على الأئمّة الاثني عشر عليهم السلام» بسنده عن محمود بن لُبَيْد قال : لمّا قبض رسول الله ، كانت فاطمة تأتي قبور الشهداء ، وتأتي قبر حمزة وتبكي . فلمّا كان في بعض الأيّام أتيتُ قبر حمزة رضي الله عنه فوجدتها صلوات الله عليها تبكي هناك . فأمهلتها حتّى سكتت ، فأتيتها ،

فسلّمت عليها ، وقلت لها : يا سَيّدة النسوان ! والله قد قطّعت نياط قلبي من بكائك ! فقالت : يا أبا عَمْرَة ! يحقّ لي بالبكاء ، فلقد أُصبت بخير الآباء رسول الله ، ثمّ أنشأت تقول :

إِذَا مَاتَ يَوْماً مَيّتٌ قَلّ ذِكْرُهُ

وذِكْرُ أَبِي قَدْ مَاتَ وَاللهِ أَكْبَرُ

قلت : يا سيّدتيّ ! إنّي سائلك عن مسألة تتلجلج في صدري ! قالت : سَلْ . قلت : هل نصّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قبل وفاته على عليّ بالإمامة ؟! قالت : وَاعَجَبَا أَنَسِيتُمْ يَوْمَ غَدِيرِ خُمّ ؟ قلتُ : قد كان ذلك ولكن أخبريني بما أسرّ إليكِ !

فقالت : أُشْهِدُ اللهَ تَعَالَى لَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ : عَلِيّ فِيكُمْ خَيْرُ مَنْ أُخَلّفُهُ فِيكُمْ ؛ وهُوَ الإمَامُ وَالخَلِيفَةُ بَعْدِي ؛ وسِبْطَاهُ وَتِسْعَةٌ مِنْ صُلْبِ الحُسَيْنِ أَئِمّةٌ أَبْرَارٌ . لَئِنِ اتّبَعْتُمُوهُمْ وَجَدْتُمُوهُمْ هَادِينَ مَهْدِيّينَ ، وَلَئِنْ خَالَفْتُمُوهُمْ لَيَكُونُ الاخْتِلَافُ فِيكُمْ إِلَى القِيَامَةِ .

قلتُ : يَا سَيّدَتِي فَمَا بَالُهُ قَعَدَ عَنْ حَقّهِ ؟!

قَالَتْ : يَا أَبَا عَمْرَةَ ! لَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : مَثَلُ الإمَامِ مَثَلُ الكَعْبَةِ إِذْ تُؤْتَى وَلَا تَأْتِي . أَوْ قَالَتْ : مَثَلُ عَلِيّ . ثُمّ قَالَتْ : أَمَا وَاللهِ لَوْ تَرَكُوا الحَقّ عَلَى أَهْلِهِ وَاتّبَعُوا عِتْرَةَ نَبِيّهِمْ لَمَا اخْتَلَفَ فِي اللهِ تَعَالَى اثْنَانِ ؛ وَلَوَرِثَهَا سَلَفٌ عَنْ سَلَفٍ ، وَخَلَفٌ عَنْ خَلَفٍ حَتّى يَقُومَ قَائِمُنَا التّاسِعُ مِنْ صُلْبِ وَلَدِي الحُسَيْنِ ، وَلَكِنْ قَدّمُوا مَا أَخّرَهُ اللهُ ، وَأَخّرُوا مَا قَدّمَه اللهُ ، حَتّى إذَا أَلْحَدُوا المَبْعُوثَ ، وَأَوْدَعُوهُ الجَدَثَ المَجْدُوثَ اخْتَارُوا بِشَهْوَتِهِمْ وَعَمِلُوا بِرَأْيِهِمْ ؛ تَبّاً لَهُمْ أَلَمْ يَسْمَعُوا اللهَ يَقُولُ : «وَرَبّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ» . (81) بَلْ سَمِعُوا وَلَكِنّهُمْ كَمَا قَالَ اللهُ : «فَإِنّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الّتِى فِى الصّدُورِ» . هَيهَاتَ بَسَطُوا فِي الدّنْيَا آمَالَهُمْ وَنَسُوا آجَالَهُمْ ، فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلّ أَعْمَالَهُمْ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الجَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ . (82) و (83)

وقال المحدّث العظيم والسيّد الأجلّ الأكرم هاشم البحرانيّ في كتاب «غاية المرام» بعد نقله أحاديث العامّة والخاصّة : على هذا نقتصر من روايات الخاصّة والروايات في قصّة غدير خمّ لاتحصى من طريق الخاصّة والعامّة . قال الشيخ الفاضل محمّد بن عليّ بن شهرآشوب في فصل قصّة غدير خمّ من كتابه :

العلماء مطبقون على قبول هذا الخبر وإن وقع الخلاف في تأويله . وقد بلغ في الانتشار والاشتهار إلى حدّ لا يوازيه خبر من الأخبار وضوحاً وبياناً وظهوراً وعرفاناً حتّى لحق في المعرفة والبيان بالعلم بالحوادث الكبار والبلدان ، فلا يدفعه إلّا جاحد ، ولا يردّه إلّا معاند .

وأي خبر من الأخبار جمع في روايته ومعرفة طرقه أكثر من ألف مجلّد من تصانيف العامّة والخاصّة من المتقدّمين والمتأخّرين ؟!

ذكره [أي أمر غدير خمّ] : محمّد بن إسحاق ، وأحمد البَلاذُريّ ، ومُسْلم بن الحَجّاج ، وأبو نُعَيم الإصفهانيّ ، وأبو الحسن الدارقطنيّ ، وأبو بكر بن مردويه ، وابن شاهين المَرْوَزيّ : وأبو بكر الباقلّانيّ ، وأبو المعالي الجُوَينيّ ، وأبو إسحاق الثّعْلَبيّ ، وأبو سعيد الخركُوشيّ ، وأبو المظَفّر السّمْعانيّ ، وأبو بكر بن شَيبَة ، وعليّ بن الجَعْد ، وشُعْبَة ، والأَعْمش ، وابن عَيّاش ، وابن سلّاح ، والشّعبيّ ، والزّهْرِيّ ، والإقليسيّ ، والجِعابيّ ، وابن البَيّع ، وابن ماجة ، وابن عَبْدِ رَبّه ، والألكانيّ ، وشريك القاضي ، وأبُو يَعْلَى الموصليّ من عدّة طرق ، وأحمد بن حَنبَل من عشرين طريقاً ، وابن بَطّة بثلاثة وعشرين طريقاً . وعليّ بن هِلال المُهَلّبيّ صنّف كتاب «الغدير» ؛ وأحمد بن مُحمّد بن سَعِيد كتاب «من روى خبر غدير خمّ» ؛ وابن جَرِير الطَبَريّ كتاب «الوِلاية» وهو كتاب غدير خمّ ، وذكر فيه سبعين طريقاً ؛ ومَسْعُود الشجرَيّ كتاباً في رواة هذا الخبر وطرقه ؛ والرازيّ في

كتابه أسماء رواته على حروف المعجم . ولقد رواه أبو العبّاس بن عُقْدَة ، وقال : سمعت أبا عليّ العطّار الهمدانيّ يقول : روى هذا الحديث عَلَيّ مائتي وخمسين طريقاً .

وقال : قال جدّي شهرآشوب سمعت أبا المعالي الجوينيّ يتعجّب ويقول : شاهدت مجلّداً ببغداد في يدي صحّاف فيه روايات هذا الخبر مكتوباً عليه المجلّدة الثامنة والعشرون من طرق قوله من كنت مولاه ويتلوه في المجلّدة التاسعة والعشرين . (84)

إلى هنا قد وضح لنا أنّ قصّة غدير خمّ من المسلّمات والضروريّات في التأريخ ؛ وإنكار ذلك كإنكار الشمس وهي في كبد السماء عند رائعة النهار ، حتّى أنّ المتجدّدين من علماء السنّة المتعصّبين في مصر أقرّوا بالغدير وسلّموا به ؛ غاية الأمر لمّا كانوا يرون أنّ نصب الإمام مناف للديمقراطيّة الغربيّة على حدّ زعمهم ، لذلك لم يستسيغوه على الصعيد العمليّ والتطبيقيّ . واعتبروا الاقتراع وانتخاب الإمام منسجمين مع روح الديمقراطيّة فيما إذا أفرزهما تصويت الأكثريّة .

فأحمد أمين المصريّ لم يترك تهمة إلّا وألصقها بالشيعة وعلمائهم وكتبهم ، وذلك في كتبه : «فَجر الإسلام» و «ضُحى الإسلام» و «ظُهر الإسلام» ؛ وكلّ من رأى هذه الكتب ، فإنّه يقف على عناده ومكابرته ، ولكن مع ذلك كلّه ، فهو يقرّ بحديث الغدير ويعترف به .

يقول صاحب كتاب «تفكّر نوين سياسى اسلام» (التفكير السياسيّ الحديث في الإسلام) : يحاول أحمد أمين ، من خلال قلب المعالم الخاصّة لمذهب أهل البيت ، أن يبسط بحثاً معقّداً في مقابل المذهب السنّيّ ، في أربعة مبادئ رئيسة هي : العصمة ، والمهدويّة ، والتقيّة ، والرجعة . ونلحظ في آراء أمين حول هذه المسائل الأربع معايير تنبئ عن ذهنيّة ليبراليّة ذات نزعة عصريّة ، فهو يعترض على نظريّة الإمامة عند الشيعة ، لا من منطلق عدم الاعتقاد بوثاقة حديث الغدير (وهو نفسه يقرّ بأنّ بعض مؤرّخي السنّة يعترفون به) ، بل من منطلق الاعتقاد بأنّ نظريّة الإمامة تلغي التصوّرات الحديثة للديمقراطيّة . (85)

قال الشيخ محمّد عبده في «تفسير المنار» الذي ألّفه السيّد محمّد رشيد رضا : أمّا حديث : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ فقد رواه أحمد في مسنده من حديث البَراء وبُرَيْدة ، والترمذيّ ، والنسائيّ ، والضياء في «المختارة» من حديث زيد بن أرقم ، وابن ماجة عن البراء ؛ وحسّنه بعض أهل الحديث ؛ وصحّحه الذهبيّ بهذا اللفظ ؛ ووثّق أيضاً سند من زاد فيه : اللَهُمّ وَالِ مَن وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ .

وفي رواية أنّ النبيّ خطب الناس ، فذكر أُصول الدين ، ووصّى بأهل بيته ، فقال : إنّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ : كِتَابَ اللهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي ، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا ، فَإنَّهُمَا لَمْ يَفْتَرِقَا حَتّى يَرِدَا عَلَيّ الحَوْضَ .

اللهُ مَوْلَايَ ، وَأَنَا وَلِيّ كُلّ مؤمِنٍ ؛ ثُمّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيّ وَقَالَ : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ؛ اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ . (86)

ثمّ قال بعد بحث مقتضب : وأمّا الحديث (حديث الولاية يوم الغدير) ، فنهتدي به : نوالي عليّاً المرتضى ونوالي من والاهم ، ونعادي من عاداهم ؛ ونعدّ ذلك كموالاة رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ؛ ونؤمن بأنّ عترته لا تجتمع على مفارقة الكتاب الذي أنزله الله عليه ؛ وأنّ الكتاب والعترة خليفتا الرسول . فقد صحّ الحديث بذلك في غير قصّة الغدير . فإذا أجمعت العترة على أمر ، قبلناه واتّبعناه . وإذا تنازعوا في أمر ، رددناه إلى الله وإلى الرسول . (87)

ومع هذا كلّه ، لمّا كانت روح التبعيّة للإمام المعصوم المنصوب من الله معدومة عندهم ، لهذا ما فتئوا يحترمون سقيفة بني ساعدة وحكومة الغاصبين ، ويؤوّلون الولاية في حديث غدير خمّ وسائر الأحاديث بمعنى

المحبّة أو النصرة ، لعلّهم يجدون ملاذاً يفرّون إليه خشية اتّباع الحقّ . وَأَنّى لَهُمْ ذَلِكَ ؟

لقد تحدّث محمّد فَريد وَجْدي في دائرةِ معارفه عن كلّ موضوع ، وحكم ، وتأريخ ، ومذهب ، وواقعة ، وحادثة ، وتقليد ، وعادة ، وكان له بحث تامّ ووافٍ في هذا كلّه ؛ وحتّى في كلمة الخيار إذ تحدّث عنه في صفحتين ، وذكر نوعاً من أنواعه يدعى (خيار شَنبَر) في عشرة أسطر ، إلّا أنّه لم يتحدّث عن الغدير ووقوف رسول الله بالجحفة وخطبته فيها وحديث الولاية ، ولم يأت بجملة واحدة عن ذلك لا في مادّة غَدَر ، ولا في مادّة خَمَم . ولم يذكر الغدير أثناء كلامه عن الولاية والخلافة ، اللهمّ إلّا في مادّة جَحَفَ فأنّه قال : الجُحفة موضع بين مكّة والمدينة .

وتحدّث المشار إليه عن الخلافة في خمس وعشرين صفحة ؛ (88) وتطرّق إلى ما حدث بعد وفاة رسول الله من اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ، وذهاب عمر ، وأبي بكر ، وأبي عبيدة الجرّاح إلى السقيفة ، وبالتالي بيعة أبي بكر ، تحدّث عن ذلك بالتفصيل ، بَيدَ أنّه لم يأتِ في دائرته بجملة واحدة عن غدير خمّ ، ولم يأت حتّى برواية أُخرى حول خلافة أمير المؤمنين عليه السلام ووزارته وإمارته ووصايته ؛ وكأنّ هذا الموضوع لم يكن في الإسلام . وله في مادّة الولاية بحث مفصّل يقع في سبع وثلاثين صفحة . (89) وله بحث عن طرق ارتباط أهل التصوّف وفِرَقهم . ولكنّه لم يُشِر إلى حديث الولاية والآية القرآنيّة التي تحدّثت عن الولاية ، وكأنّ نبيّنا عنده لم يكن كأحد الأنبياء ، وعليّ بن أبي طالب ليس من هذه الأُمّة !

بينما نلاحظ في كتابه أنّه يتحدّث عن انتخاب الخليفة وديمقراطيّة الإسلام في مواطن شتّى منه ؛ ويحاول جاهداً أن يكيّف الآيات ، والروايات ، ومنهاج رسول الله ، وسيرة المسلمين على أساس الديمقراطيّة الغربيّة ؛ ولعلّه كان يخيّل إليه أنّه يقدّم للإسلام والقرآن خدمة بهذا العمل ، ويدفع عنهما شبهة نصب الإمام وتعريف الولاية .

ومع أنّه كان يقرّ بأخطاء عمر ، وأبي بكر ، وعثمان ، ويعنّف عثمان أيّما تعنيف ، ويحمّله المسؤوليّة في رفضه الاقتراح الذي قدّمه إليه المسلمون ، القاضي باستقالته عن الخلافة . ويعظّم عليّاً عليه السلام ويبجّله ، بَيدَ أنّه . مع ذلك كلّه . لم يكن مستعدّاً لترك ما وجد عليه آباءه من أُمّةٍ ، فيلتحق بمدرسة أتباع أهل البيت ، فلهذا تترجم لنا الآية الكريمة التالية حاله وتقليده الأعمى لآبائه بكلّ وضوح : إِنّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا عَلَى أُمّةٍ وَإِنّا عَلَى ءَاثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ . (90)

وعندما يتحدّث عن الفرق الواقعة في الإسلام في مادّة فَرَق ، فإنّه يقرّ بمخالفة عمر لرسول الله حين أمر بإتيانه بدواة وكتف ، وهو على فراش المرض ، ويقرّ أيضاً بمخالفته لإنفاذ جيش أُسامة ، ويعترف بكلام مأثور عن عمر ، وهو قوله : مَنْ قَالَ : إنّ مُحَمّداً مَاتَ قَتَلْتُهُ بِسَيْفِي ، ويقرّ بالسقيفة وإمامة أبي بكر ، وبيعة عمر ، وقوله : ألَا إنّ بَيْعَةَ أَبي بَكْرٍ كَانَتْ فَلْتَةً وَقَى اللهُ شَرّهَا ، فَمَنْ عَادَ إلَى مِثْلِها فَاقْتُلُوهُ ، فَأَيّمَا رَجُلٍ بَايَعَ رَجُلًا مِنْ غَيْرِ مَشْوَرَةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ فَإنّهُمَا جَدِيرَانِ أَنْ يُقْتَلَا ؛ ويعترف بدعوى فاطمة فدكاً ، ويعترف أيضاً بقتال أبي بكر مانعي الزكاة ؛ ويحصي النقمات على عثمان وخطاياه وذنوبه . ثمّ يقول : وقعت هذه الأحداث كلّها لمصلحة المسلمين ، وينبغي أن تكون الخلافة باختيار الناس وآرائهم . (91)

وبعد ذلك كلّه يقول : وَبالجملة كَانَ عَلِيّ مَعَ الحَقّ وَالحَقّ مَعَ عَلِيّ . الكلام . (92)

فهل جهل هذا الرجل العالم كتب الروايات والسنن والتأريخ ؟ ألم ير الأحاديث المأثورة في الكتب المفصّلة عن الغدير ، وقد ذكرنا نموذجاً منها هنا ؟ وهل يجيز لنا الحكم من جانب واحد على أساس الديمقراطيّة والحرّيّة أن نغضّ الطرف عن حديث مسلّم ومتواتر ، ونعتبره نسْياً مَنْسِيّاً ؟

ومن الثاب أنّ ذنب هذا الجيل من المسلمين الذين يتهافتون على الباطل ، ويعرضون عن الحقّ يقع على عاتق أمثال هؤلاء العلماء الذين شابوا التأريخ الصحيح بآرائهم ، ثمّ قدّموا هذا التأريخ المشوب إلى المجتمع وعامّة الناس .

إنّ هؤلاء المساكين الذين يبغون من وراء هذه التمحّلات عرض خلافة أبي بكر كخلافة قائمة على أساس ديمقراطيّ ، وتوطيد دعائم مذهبهم ، ماذا يقولون عن خلافة عمر التي تمّت برأي أبي بكر الفرديّ الاستبداديّ ؟ وماذا يقولون عن خلافة عثمان التي كانت برأي عمر الفرديّ الاستبداديّ ؟ وهل كان اختيار عمر أو عثمان للخلافة قد تمّ بالتشاور مع المسلمين ؟

يستبين ممّا عرضناه هنا كنه السرّ من وراء إخفاء حديث الغدير . علماً أنّ حديث الغدير لا يدع مجالاً للتروّي والتأمّل ؛ وكما قال أبو حنيفة : لَا يُقِرّوا بِهَا فَيَخصِمُوكُمْ ! فالحيلة . إذَن . إخفاء حديث الغدير ، كما أنّ البُخاريّ ، ومُسْلِم لم يذكراه في صحيحهما ؛ فلهذا نرى أنّ هذين الصحيحين يحظيان بأهمّيّة خاصّة عند السنّة ، لأنّهما يرسيان دعائم التسنّن أكثر فأكثر ؛ وكان الحكّام في ضوء سياستهم أقرب إلى هذين الكتابين من غيرهما .

ولم يذكر البُخاريّ ، ومُسْلم أحاديث المهديّ القائم من آل محمّد ، وقد صدفا عنها تماماً . أمّا الصحاح الأربعة الأُخرى ، وهي للنسائيّ ، وأحْمد بن حَنْبَل ، والتِرمَذيّ ، وابن ماجَة ، فقد ذكرت حديث الغدير ، وحديث مهديّ آل محمّد معاً بأسانيد صحيحة . بَيدَ أنّ محلّلي السيرة والتأريخ ، وحتّى المستشرقين المحايدين صرّحوا ونصّوا وفقاً لمنطق الإسلام أنّ الحقّ كان مع عليّ بن أبي طالب ، وقد حرموه من حقّه .

يقول الكاتب المسيحيّ جُورْجْ سَجْعَان جُرْدَاق : وسواء لدى الحقيقة والتأريخ أعرفتَ هذا العظيم أم لم تعرفه ! فالتأريخ والحقيقة يشهدان أنّه الضمير العملاق الشهيد أبو الشهداء عليّ بن أبي طالب ، صوت العدالة الإنسانيّة ، وشخصيّة الشرق الخالدة .

مَاذَا عَلَيْكِ يَا دُنْيَا لَوْ حَشَدْتِ قُوَاكِ فَأعْطَيْتِ فِي كُلّ زَمَانٍ عَلِيّاً بِعَقْلِهِ وَقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَذِي فَقَارِهِ» ؟! (93)

ويقول فُؤاد جُردَاق المسيحيّ : وأنّى قصدتني خطوب الحياة ، وشئتُ الخلاص من محن الدهر ، لجأتُ من حزني إلى أعتاب عليّ عليه السلام ، فهو مأوى كلّ ذي عزاء ، وهو كالرعد القاصف على الظالمين ، وكالرفيق المخلص العطوف على المنكسرين . (94)

ويقول المادّيّ المصريّ المعروف شِبلي الشُمَيّل : «الإمام عليّ عليه السلام عظيم العظماء ، نسخة مفردة لم ير لها الشرق ولا الغرب صورة طبق الأصل ، لا قديماً ولا حديثاً» .

لقد حاول أعداء الولاية وأهل البيت بكلّ قواهم أن لا يبقوا أثراً لأهل البيت ؛ وكانوا يقتلون رواة حديث الولاية حيثما يثقفونهم في كلّ حدب وصوب ، وتحت كلّ حجر ومدر . وكان اسم عليّ جريمة . وكانوا يسوقون الأُمّة بأساليب بربريّة وجاهليّة كأساليب الجاهليّين قبل الإسلام ، ويفرضون عليهم إسلاماً فارغاً ليس فيه روح العرفان والمعنويّة ، إسلاماً لا يرتبط بعالم الملكوت ؛ ويطلبون منهم الاعتقاد بنبيّ بلا عليّ بن أبي طالب ، وقرآن بلا محتوى ولا تفسير ولا بيان . حتّى بلغ الأمر أنّ جلاوزة الحجّاج بن يوسف الثقفيّ أتوه برجل يدعى عليّاً ، ولمّا سأله الحجّاج عن اسمه ، قال : عقّني أبواي إذ سمّياني عليّاً .

وكما رأينا فإنّ ابن حجر الهَيتميّ صاحب «الصَوَاعِق المُحْرَقِة» احتجّ على ابن قُتَيبَة الدينوريّ صاحب كتاب «الإمامة والسّيَاسة» لذكره أخباراً توجب القدح في الصحابة ، وتؤدّي إلى المشاجرة بين العوامّ ، وتلفت نظر الناس إلى أُمور لا ينبغي أن يطّلعوا عليها ، وهو معروف بمنزلته وجلالته العلميّة وعظمته الثقافيّة الإسلاميّة .

ويجب على العلماء أن لا يقولوا الحقائق كما هي ، لأنّها تكون مستمسكاً بِيَدِ العوامّ ، والأفضل في هذه الحالة عرض مواضيع لا تبعث على تشويش ذهن الأُمّة . (95)

إنّ هؤلاء وأمثالهم لمّا لم يجدوا سبيلاً إلى الشكيك في جلالة ابن قُتَيبَة ، أو في كتابه «الإمامة والسّياسة» ، بثّوا وجدهم حرصاً على مصلحة الأُمّة شاكين من ابن قتيبة ومعاتبين أيّاه . ولو وجدوا سبيلاً إلى الطعن فيه لأمكنهم ذلك بسهولة ، فإمّا ينكرون جلالته وعظمته في التأريخ ، أو ينكرون نسبة هذا الكتاب إليه بصراحة !

إنّ كتاب «الإمامَة والسّياسة» كتاب من العامّة لا مثيل له بين كتب العامّة من حيث صحّته وقدمه . مؤلّفه هو أبو محمّد عبد الله بن مُسْلم الدينوريّ المتوفّى في سنة 270 هـ .

يقول محمّد فريد وجديّ بعد عرضه شيئاً من قضيّة السقيفة : هذا موجز لما ذكره العلّامة الدينوريّ في كتابه : «الإمامة والسياسة» مفصّلاً . (96)

وبعد نقله خطبة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة ، وقوله في الهامش ، نقلنا هذه الخطبة عن كتاب «الإمامة والسياسة» لأبي محمّد عبد الله بن مسلم الدينوريّ المتوفّى سنة 270 هـ يقول : إنّ الكتاب الذي ننقل منه هذه الخطبة هو من أقدم الكتب وأوثقها في مسائل الخلافة الإسلاميّة . (97)

ولمّا لم يسعهم إنكار ما جاء في هذا الكتاب من موضوعات ، أعلنوا أنّه من الكتب المحظورة . وهذا الكتاب ، وكتاب «ينابيع المَودّة» للقُندوزيّ الحَنَفيّ اللذان طبعا قبل قرن من الزمان بعد انتشار الطباعة كانا محظورين في الدولة العثمانيّة (تركيا المعاصرة) والعراق . ولكن عندما كثرت نسخهما عند الناس وفي المكتبات شيئاً فشيئاً . لم يستطع أحد أن يمنع تداولهما بيعاً وشراءً في السنين الأخيرة .

جاء في كتاب «الإمامة والسياسة» امتناع أمير المؤمنين عليه السلام عن البيعة ، واعتصام الزُبَير ، والمقداد ، وسَلمان ، وغيرهم في دار فاطمة عليها السلام ، وسوق أمير المؤمنين إلى المسجد ، وذهاب فاطمة خلفه ، ولجوؤه إلى قبر رسول الله ، واستنصاره المهاجرين والأنصار بواسطة فاطمة سلام الله عليها .

عجباً لمخالفي الولاية إذ ظلموا أنفسهم ، مع جميع ضروب الظلم والأذى التي ألحقوها بمقام الولاية ، وكافّة جهودهم لإخفاء الولاية . عجباً لهم إذ حرموا أنفسهم الارتشاف من منهل الحقيقة ، ولم يهتدوا بضياء الشمس المتأ لّقة كالخُفّاش الذي ظلّ محروماً من شعاع الشمس وإلّا فهل يمكن حجب الشمس وإسدال الستار عليها ؟

شب پرهگر وصل آفتاب نخواهد

رونق بازار آفتاب نكاهد (98)

لقد أنشد محبّو أهل البيت وولايتهم مدائحهم في أمير المؤمنين عليه السلام جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن مع تجرّعهم الغصص ومعاناتهم صنوف العذاب ، ودأبوا على ذلك منذ عصر إمامهم صلوات الله عليه إلى يومنا هذا . وإن كان بينهم مَن مَدَح ومَجّدَ وهو على خشبة الصلب ينازع الموت كرُشَيد الهَجريّ ، ومَيثَم التمّار ، غير أنّ الشعراء أنشدوا قصائدهم ، والخطباء ألقوا خطبهم ، وكلّ جيل يرى نفسه مديناً للجيل السابق ، ومسؤولاً عن إيصال ذلك إلى الجيل اللاحق ، فَلِلهِ الحَمْدُ وَلَهُ الشّكْرُ إذ نرى أنّ اسم عليّ في طليعة أسماء أحرار العالم ، وأنّ جميع المبادئ والمدارس . بما فيها المبادئ والمدارس غير الإسلاميّة . تنظر إليه نظرة احترام وتبجيل من حيث عظمته ، ورفعة شأنه ، وعلوّ منزلته ، وكونه قدوة الأحرار في العالم . وأنّ الشيعة حيثما كانوا يتباهون بأنّهم أتباع مدرسته . والمخالفون بحاجة إلى إخفاء مطاعن وقبائح أئمّتهم حيال الجرائم التي يكشف عنها التأريخ باستمرار ، ويحاولون دائماً التكتّم على مثالب رجالهم لئلّا يفتضحوا أكثر فأكثر . ولكن ليعلموا أنّه قد

مضى ما مضى ، والحادث يتعذّر تجنّبه ، وأنّ التكتّم على تلك الفضائح يزيد الطين بلّة ، بخاصّة مع النقد والتحليل والتدقيق والتنقيب والبحث والمناقشة الحرّة حيال الأحداث التي شاعت في عالم اليوم .

وهناك شاعر من شعراء أهل البيت المفلّقين ، وهو الكُمَيت وفي شعره الهاشميّات قد قطع شوطاً كبيراً في إحياء تأريخ أهل البيت . في قصائده «الهاشميّات» . ولمّا كان ميلاده سنة 60 هـ ، ووفاته سنة 126 هـ ، فقد كان عصره متقارناً مع عصر الإمام زين العابدين ، وولده الباقر سلام الله عليهما ؛ كان يعيش أيّام دولة بني أُميّة . ولم يدّخر وسعاً في إنشاد قصائده على الرغم من تحمّله صنوف العذاب والعناء ، وتحدّث عن مظلوميّة أهل البيت ، وكشف جرائم مناوئيهم . وفي شعره الذي أنشده في غدير خُمّ ، تكلّم عن الولاية ولزوم اتّباعها . وفيما يلي عدد من أبيات قصيدته العينيّة .

وَيَوْمَ الدّوحِ دَوْحِ غَديرِ خُمّ
أبانَ لَهُ الوَلَايَةَ لَوْ أُطِيعَا
وَلَكِنّ الرّجَالَ تَبَايَعُوهَا
فَلَمْ أَرَ مِثْلَهَا خَطَراً مَبِيعَا
فَلَمْ أُبْلِغْ بِهَا لَعْناً وَلَكِنْ
أَساءَ بِذَاكَ أَوّلُهُمْ صَنِيعَا
فَصَارَ بِذَلِكَ أَقْرَبُهُمْ لِعَدْلٍ
إلَى جَوْرٍ وَأَحْفَظُهُمْ مُضِيعَا
أضَاعُوا أَمْرَ قَائِدِهِمْ فَضَلّوا
وَأَقْوَمِهِمْ لَدَى الْحِدْثَانِ رِيعَا
تَنَاسَوا حَقّهُ وَبَغَوْا عَلَيهِ
بِلَا تِرَةٍ وَكَانَ لَهُمْ قَرِيعَا (99)
فَقُلْ لِبَنِي أُمَيّةَ حَيْثُ حَلّوا
وَإن خِفْتَ الْمُهَنّدَ وَالْقَطِيعَا
أَلَا أُفّ لِدَهْرٍ كُنْتُ فِيهِ
هِدَاناً طَائِعاً لَكُمُ مُطِيعَا
أَجَاعَ اللهُ مَنْ أَشْبَعْتُمُوهُ
وَأَشْبَعَ مَنْ بِجَوْرِكُمُ أُجِيعَا
وَيَلْعَنُ فَذّ أُمّتِهِ جِهَاراً
إذَا سَاسَ الْبَرِيّةَ وَالْخَلِيعَا
بِمَرْضِيّ السّيَاسَةِ هَاشِمِيّ
يَكُونُ حَيّاً لِأُمّتِهِ رَبِيعَا
وَلَيْثاً فِي المَشَاهِدِ غَيْرَ نُكْسٍ
لِتَقْوِيمِ البَرِيّةِ مُسْتَطِيعَا
يُقِيمُ أُمُورَهَا وَيَذُبّ عَنْهَا
وَيَتْرُكُ جَدْبَهَا أَبَداً مَرِيعاً

يقول أبو الفتوح الرازيّ : روي عن الكميت أنّه قال : رأيت أمير المؤمنين عليه السلام في المنام ، فقال : أنشدني قصيدتك العينيّة ، فأنشدته حتّى انتهيت إلى قولي فيها :

وَيَوْمَ الدَّوْحِ دَوْحِ غَدِيرِ خُمّ

أبَانَ لَهُ الوَلَايَةَ لَوْ أُطِيعَا

فقال صلوات الله عليه : صَدَقْتَ ! ثمّ أنشد [الإمام] عليه السلام هذا البيت :

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ ذَاكَ اليَوْمِ يَوْماً

وَلَمْ أَرَ مِثْلَهُ حَقّاً أُضِيعَا (100)

وفي كتاب «الصّراط المستقيم» للبياضيّ العامليّ : أنّه روى ابن الكميت : أنّه رأى النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله في النوم ، فقال : أنشدني قصيدة أبيك العينيّة ، فلمّا وصل إلى قوله :

* وَيَوْمَ الدَّوْحِ دَوْحِ غَدِيرِ خُمّ *

بكى رسول الله بكاء شديداً وقال : صَدَقَ أبُوكَ رَحِمَهُ اللهُ ؛ إي وَاللهِ ، لَمْ أَرَ مِثْلَهُ حَقّاً أُضِيعَا . (101)

قيل : إنّ أوّل قصيدة قالها الكميّت من الهاشميّات هي هذه القصيدة :

طَرِبْتُ وَمَا شَوْقاً إلَى البِيضِ أطْرَبُ

وَلَا لَعِباً مِنّي وَذُو الشَيْبِ يَلْعَبُ ؟

وَلَمْ يُلْهِني دَارٌ وَلَا رَسْمُ مَنْزِلٍ

وَلَمْ يَتَطَرّبْني بَنَانٌ مُخضّبُ

وَلَا السّانِحَاتِ البَارِحَاتِ عَشِيّةً

أَمَرّ سَلِيمُ القَرْنِ أَمْ مَرّ أعْضَبُ

وَلَكِنْ إلَى أَهْلِ الفَضَائِلِ وَالتّقَى

وَخَيْرِ بَني حَوّاءِ وَالخَيْرُ يُطْلَبُ

إلَى النّفَرِ البِيْضِ الّذِينَ بِحُبّهِمْ

إلَى اللهِ فِيمَا نَابَني أَتَقَرّبُ

بَني هَاشِمٍ رَهْطِ النّبِيّ فَإنّني

بِهِمْ وَلَهُمْ أَرْضَى مِرَاراً وَأَغْضَبُ

خَفَضْتُ لَهُمْ مِنّي جَنَاحِي مَودّةً

إلَى كَنَفٍ عِطْفَاهُ أَهْلٌ وَمَرْحَبُ

وَكُنْتُ لَهُمْ مِنْ هَؤلَاءِ وَهُؤلَا

مُحِبّاً عَلَى أنّي أُذَمّ وَأُغْضَبُ

وَأُرْمَى وَأَرْمِي بِالعَدَاوَةِ أَهْلَهَا

وَإنّي لَأُذَى فِيهِمُ وَأُؤَنّبُ (102) و (103)

إلى أن يقول :

فَمَا لِيَ إلّا آلُ أَحْمَدَ شِيعَةٌ

وَمَا لِيَ إلّا مَذْهَبُ الحَقّ مَذْهَبُ

بِأيّ كِتَابٍ أَمْ بِأيّةِ سُنّةٍ

تَرَى حُبّهُمْ عَاراً عَلَيّ وَتَحْسِبُ ؟

وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حم آيَةً

تَأوّلَهَا مِنّا تَقِيّ وَمُعْرِبُ

عَلَى أَيّ جُرْمٍ أَمْ بِأيّةِ سِيرَةٍ

أُعَنّفُ فِي تَقْرِيظِهِمْ وَأُكَذّبُ

إلى أن يقول :

أَلَمْ تَرَنِي مِنْ حُبّ آلِ مُحَمّدٍ

أرُوحُ وَأغْدُو خَائِفاً أتَرَقّبُ

فَطَائِفَةٌ قَدْ أكْفَرَتنِي بِحُبّهِمْ

وَطَائِفَةٌ قَالَتْ مُسِيءٌ وَمُذْنِبُ

إلى أن قال :

فَإنْ هِيَ لَمْ تَصْلَحْ لِحَيّ سِوَاهُمُ

فَإنّ ذَوِي القُرْبَى أَحَقّ وَأوْجَبُ

يَقُولُونَ لَمْ يُورَثْ وَلَوْلَا تُرَاثُهُ

لَقَدْ شَرِكَتْ فِيهَا بَكِيلٌ وَأَرحَبُ (104)

تعليقات:

1) وسط الآية الثالثة من السورة المائدة ، وهي السورة الخامسة من سور القرآن الكريم .

2) الآية 67 ، من السورة 5 : المائدة .

3) إشارة إلى الآية 17 ، من السورة 11 : هود : أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ وَمِن قَبْلِهِ كِتَبُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ . والمقصود من كلمة «يَتْلُوهُ شاهِدٌ منه» بدون شكّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

4) وفقاً للحكم النازل في القرآن الكريم في الآية : «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَبِ اللهِ .

5) المقصود حديث مَن كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلَيّ مَوْلاهُ ، الذي قاله رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يوم الغدير .

6) هذه الأبيات لأبي محمّد المنصور بالله المولود سنة 596 هـ والمتوفّي سنة 670 هـ . وكان أحد أئمّة الزيديّة في بلاد اليمن ، ومن أولاد يحيى الهادي إلى الحقّ اليمنيّ ؛ وكان أحد أئمّة الأدب والعربيّة والحديث والشعر والمناظرة والاحتجاج ، وله اليد الطولى في هذه العلوم . وجاءت ترجمته وغديريّته في كتاب «الغدير» ج 5 ، ص 418 إلى . 424 وقال صاحب «الغدير» : تشتمل على 708 بيتاً ، وقصيدته كلّها على شكل البيتين . واختار منها مؤلّف «الغدير» 62 قسماً وذكرها في كتابه وذكرنا هنا اثني عشر بيتاً منها مراعاة للمقام والإيجاز .

7) على سبيل المثال نرى أنّ ابن حَجَرالهَيْتَمِيّ ، الذي ألّف كتاب «تطهير اللسان» في فضيلة معاوية وتقديسه ، وطبعه في حاشية «الصواعق» ، لم يجوّز قدح الصحابة والطعن فيهم لئلّا يُمَسّ الخلفاء بشيء . بعذ ذلك يبثّ شكواه فيقول في ص 94 من الكتاب : وقد علمت ممّا قدّمتُه في معنى الإمساك من ذلك أنّ عدم الإمساك إمّا يكون واجباً لا سيّما مع ولوع العوامّ به ؛ ومع تآليف صدرت من بعض المحدّثين كابن قُتيبة مع

جلالته القاضية بأنّه كان ينبغي أن لا يذكر تلك الظواهر ؛ فإن أبى إلّا ذكرها فَلْيُبَيِّن جريانها على قواعد أهل السّنّة حتّى لا يتمسّك مبتدع أو جاهل بها .

ومثلاً يقول الطبريّ في تأريخه ج 3 ، ص 361 طبعة مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، بعد نقله عدداً من الروايات ضمن محاصرة عثمان : وأمّا الواقديّ فإنّه ذكر في سبب مسير المصريّين إلى عثمان ونزولهم ذا خشب أُموراً كثيرة ، منها ما تقدّم ذكره ، ومنها ما أعرضت عن ذكره كراهة منّي لبشاعته .

ويقول في ص 557 من الجزء المذكور : نقل هشام عن أبي مخنف قال وحدّثني يزيد ابن ضبيان الهمدانيّ أنّ محمّد بن أبي بكر كتب إلى معاوية بن أبي سفيان لمّا ولّي فذكر مكاتبات جرت بينهما كرهتُ ذكرها لما فيه ممّا لا يحتمل سماعها العامّة .

8) يقول : «أينما أنظر ، فأنت وحدك تملأ عيني ، إذ لا مقرّ لك غيرها» .

9) الحُرقوصيّة هم الحنبليّة لأنّ أحمد بن حنبل من أولاد حُرقوص بن زهير الخارجيّ . وقيل : إنّما سمّاهم الطبريّ بهذا الاسم لأنّ البربهاريّ الحنبليّ تعرّض للطعن في شيء ممّا يتعلّق بخبر يوم غدير خمّ («عبقات الأنوار» كتاب الغدير ، آخر ص 33) .

10) إقبال الأعمال» ص . 453 الطبعة الحجريّة .

11) إقبال الأعمال» ص . 457

12) جاء في «المناقب» : النميريّ ؛ وفي «العبقات» ج الغدير ، ص 9 : عامر بن عمير العميريّ ؛ وفي «الغدير» ج 1 ، ص 46 : عامر بن عمير النميريّ .

13) المناقب» ج 1 ، ص 528 و . 529 الطبعة الحجريّة .

14) عبقات الأنوار» الجزء الخاصّ بالغدير ، الطبعة الثانية ص . 9 صنّف مير حامد حسين هذا الكتاب . كما يذكر نفسه في بدايته . ردّاً على «التحفة العزيزيّة» مستضيئاً بإفادات والده الماجد العلّامة المولى مُحمّد قُلي رحمة الله عليه . وصنّف مولانا السيّد محمّد قُلي ، وهو من أعاظم العلماء وحماة مدرسة التشيّع ، كتاب «تَشييد المَطَاعِن وكَشف الضّغائن» في ردّ «التحفة الاثنا عشريّة» . ولد عام 1188 ه وتوفّي سنة 1268 ه في مدينة لِكَهْنو . وهذا الكتاب ، أي «التحفة الاثنا عشريّة» صنّفه شاه وليّ الله صاحب الهنديّ ؛ وقلّده الخواجة عبد الله الكابُليّ في كتاب «الصواعق» مؤيّداً له .

15) ابن المغازليّ الشافعيّ من أجلّاء علماء العامّة وأكابرهم ، توفّي سنة 483 ه . وقرأ ابن بطريق . كما ينقل ابن حجر العسقلانيّ . في «لسان الميزان» على الحمّصيّ الرمزيّ علم الفقه والكلام على مذهب الإماميّة ؛ وكان يقيم في بغداد مدّة ثمّ انتقل إلى واسط وكان مشغولاً فيها بالعبادة . توفّي في شعبان سنة 600 ه وله من العمر 77 سنة .

16) العبقات» جزء الغدير ، ص 6 و . 7 ونقل ابن المغازليّ في مناقبه ، ص 27 هذا الحديث . بخصوصه عن أبي القاسم الفضل بن محمّد ، تحت رقم . 39

17) العبقات» ج الغدير ص 6 و . 7

18) كتاب «مُنتهى الكلام» صنّفه مولويّ حيدر بن شيخ محمّد حسن فيض آبادي ، وكان تصنيفه بعد تصنيف «التحفة الاثنا عشريّة» .

19) العبقات» جزء الغدير ، ص 10 ، . 11

20) العبقات» جزء الغدير ، ص 10 و . 11

21) العبقات» جزء الغدير ، ص 34 و 35 .

22) العبقات» ، جزء الغدير ، ص 37 .

الشّكاة موضع العيب والذمّ ؛ أي أنّه ليس بعارٍ بل هو ما يُفتخر به . (م)

23) العبقات» جزء الغدير ، ص 41 .

24) جاء في «الذريعة» : حسين بن جبير .

25) هذه الحكاية نقلها الشيخ سليمان الحنفيّ القندوزيّ في «ينابيع المودّة» ص 36 عن الجوينيّ ؛ ونقلها العلّامة الأمينيّ في ج 1 من «الغدير» ص 158 عن القندوزيّ في ينابيعه ؛ وجاءت في «غاية المرام» ج 1 ، ص 103 نقلاً عن ابن شهرآشوب ، عن جدّه شهرآشوب ، عن الجوينيّ .

26) العبقات» جزء الغدير ، ص 42 و 43 .

27) عدة العلّامة الأمينيّ في من «الغدير» ج 1 ، ص 156 و 157 المصنّف الحادي والعشرين من الذين ألّفوا في حديث الغدير . وقال في ترجمته : «السيّد مير حامد حسين بن السيّد محمّد قلي الموسويّ الهنديّ اللكهنويّ المتوفّي سنة 1306 هـ عن 60 سنة . ذكر حديث الغدير وطرقه وتواتره ومفاده في مجلّدين ضخمين في ألف وثمان صحائف . وهما من مجلّدات كتابه الكبير «العبقات» . وهذا السيّد الطاهر العظيم كوالده المقدّس سيف من سيوف الله المشهورة على أعدائه ؛ وراية ظفر الحقّ والدين ، وآية كبرى من آيات الله سبحانه . قد أتمّ به الحجّة ، وأوضح المحجّة . وأمّا كتابه «العبقات» فقد فاح أريجه بين لابتي العالم ، وطبّق حديثه المشرق والمغرب . وقد عرف من وقف عليه أنّه ذلك الكتاب المعجز المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وقد استفدنا كثيراً من علومه المودعة في هذا السفر القيّم . فله ولوالده الطاهر منّا الشكر المتواصل ، ومن الله تعالى لهما أجزل الأُجور» .

28) نذكر هنا أسماء بعض المشاهير من التابعين ، وهم : الأصبَغ بن نُباتة ، سعيد بن جبير ، سالم بن عبد الله بن عمر ، سُليم بن قَيس الهلاليّ ، سليمان بن مهران الأعمش ، طاووس بن كيسان اليمانيّ ، عامر بن سعد بن أبي وقّاص ، أبو مريم عبد الله بن زياد الأسديّ الكوفيّ ، عائشة بنت سَعْد ، عطيّة بن سعد بن جُنادة العوفيّ الكوفيّ ، عُمَر بن عبد العزيز ، عمر بن عليّ أمير المؤمنين ، محمّد بن عمر بن عليّ أمير المؤمنين .

29) الغدير» ج 1 ، ص 14 إلى 158 .

30) قال : غدير خمّ معروف ، وهو الموضع الذي قام فيه رسول الله صلّى الله عليه وآله خطيباً بفضل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، كذا في المطبوع من «الجمهرة» . وقد حكى عنه ابن شهرآشوب في العصور المتقدّمة من النسخ المخطوطة من «الجمهرة» ما نصّه : هو الموضوع الذي نصّ النبيّ فيه على [ولاية] عليّ عليه السلام . وقد حرّفته يد أمين الطبعة .

31) الغدير» ج 1 ، ص 5 إلى 8 .

32) غاية المرام» ص 79 الباب السادس عشر ، الحديث الثامن ، الطبعة الحجريّة .

33) نفسه ص 80 ، الحديث الحادي عشر .

34) غاية المرام» ص 80 ، الحديث السادس عشر ، الطبعة الحجريّة .

35) غاية المرام» ، ص 80، الحديث التاسع عشر ، عطفاً على الحديث السابع عشر ، الطبعة الحجريّة .

36) جاء في المناقب» : قَدْ أَشْرَعْتُ بالسين المهملة .

37) لا شكّ أنّ رسول الله عمّر ثلاثاً وستّين سنة . وعندما يقول هنا : وإنّى قد أشرعت في العشرين ، فإنّه يريد عمر النبوّة ، وقد بلغت ثلاثاً وعشرين سنة منذ بدئها . وإذا ما طرحنا الأعوام الثلاثة الأُوَل حيث كانت الدعوة سرّيّة ، وكانت الآية : فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ لم تنزل بعد ، فالباقي عشرون سنة كانت فيها الدعوة النبويّة جهراً . وهذه المدّة تساوي نصف عمر عيسى ابن مريم إذ كان نبيّاً طيلة أربعين سنة تامّة ، حيث جعل نبيّاً منذ طفولته : قال : إِنّى عَبْدُ اللهِ ءَاتَانِى الْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيّا وَجَعَلَنِى مُبَرَكًا أَيْنَمَا كُنتُ وَأَوصَانِى بِالصّلَوةِ وَالزّكَوةِ مَا دُمْتُ حَيًّا .

38) غاية المرام» ص 81 و 82 ، الحديث السابع والعشرون ؛ و«مناقب ابن المغازليّ» ، ص 16 إلى 18 ، الحديث رقم 23 ؛ وفي «غاية المرام» أيضاً ، ص 88 ، الحديث 79 في حديث ينقله عن عليّ بن أحمد المالكيّ ، يذكر فيه إشارة رسول الله إلى أنّ عُمْرَ كلّ نبيّ نصف عمر النبيّ الذي خلا من قبله .

39) وفي «غاية المرام» أيضاً ، ص 89 ، الحديث الثامن والثمانون عن ابن المغازليّ ، ذكر حديثاً بهذا المضمون أنّ رسول الله قال : لم يكن لنبيّ من العمر إلّا نصف ما عمّر مَن قبله . وإنّ عيسى ابن مريم عمّر أربعين سنة ، وإنّى قد أُشرعتُ في العشرين .

40) غاية المرام» ص 82 ، الحديث الثلاثون ؛ الطبعة الحجريّة و«مناقب ابن المغازليّ» ، ص 25 و 26 ، الحديث السابع والثلاثون .

41) غاية المرام» ص 86 ، الحديث التاسع والأربعون ؛ الطبعة الحجريّة ؛ و«مناقب الخوارزميّ» طبعة النجف ، ص 134 و135 ، وفيالطبعة الحجريّة ص . 130

42) غاية المرام» ص 84 ، الحديث السادس والخمسون .

43) الخباء : خيمة يصنعونها من الصوف أو الوبر أو الشعر ، ويسكنون فيها . وجمعه : أَخْبِيَة . والفُسطَاط ، والفُسّاط ، والفِسْطَاط : خيمة يصنعونها من الشعر . وجمعه : فَسَاطيط .

44) غاية المرام» ص 85 ، الحديث الحادي والستّون ؛ و«فرائد السمطين» ج 1 ، ص 62 و 63 ، الحديث . 29

45) غاية المرام» ص 84 ، الحديث الثامن والأربعون ؛ و«مناقب الخوارزميّ» طبعة النجف ، ص 130 ، والطبعة الحجريّة ص . 126

46) غاية المرام» ص 86 ، الحديث الرابع والستّون ؛ و«فرائد السمطين» ج 1 ص 66 ، الحديث رقم . 32 وجاء في «الفرائد» أنّ عمر بن عبد العزيز بعد أن سأله : من أي بني هاشم ؟ قال : مَوْلَى عَلِيّ ! قال : مَوْلَى عَلِيّ ؟ فسكتُ .

47) ينبغي أن نعلم أنّنا وفقاً لما ذكرناه عن تحرّك رسول الله إلى مكّة في حجّةالوداع ، فإنّ أوّل ذي الحجّة كان يوم الخميس ، وعرفة كان يوم الجمعة ، لذلك فإنّ يوم الغدير ، وهو الثامن عشر من ذي الحجّة كان يصادف يوم الأحد . لكنّ بعض التواريخ والروايات نقلت أنّه كان في يوم الخميس .

48) الآية 3 ، من السورة 5 : المائدة .

49) جاء في بعض النسخ : تَعَارِيا ، ولكن الأظهر : تعاميا .

50) غاية المرام» ص 87 ، الحديث الثاني والسبعون ؛ و«فرائد السّمطين» ، ج 1 ، ص 74 و . 75

51) الغدير» ج 2 ، ص 34 إلى . 39

52) غاية المرام» ص 88 ، الحديث السابع والسبعون .

53) غاية المرام» ص 89 ، الحديث الثالث والثمانون .
54) غاية المرام» ص 89 ، الحديث الخامس والثمانون .
55) غاية المرام» ص 89 ، الحديث السادس والثمانون .
56) غاية المرام» ص . 90
57) الآية 34 ، من السورة 3 : آل عمران .
58) غاية المرام» ص 90 ، الحديث الثاني .
59) غاية المرام» ص 91 ، الحديث السادس .
60) الآية 20 ، من السورة 34 : سبأ .
61) غاية المرام» ص 91 ، الحديث 8 ؛ «تفسير عليّ بن إبراهيم القمّيّ» ص . 538
62) الآيتان 51 و 52 ، من السورة 68 : ن والقلم .
63) غاية المرام» ص 92 ، الحديث السادس عشر .
64) الآيات 44 إلى 51 ، من السورة 69 : الحاقّة .
65) غاية المرام» ص 92 ، الحديث السابع عشر .
66) الآيات 1 إلى 4 ، من السورة 53 : النجم .
67) غاية المرام» ، ص 92 ، الحديث الثامن عشر .
68) غاية المرام» ص 94 ، الحديث الثاني والعشرون ؛ و«أمالي الشيخ» ص 231 ، المجلس الثامن ، طبعة النجف .
69) غاية المرام» ص 94 ، الحديث 23 ؛ و«أمالي الشيخ» ، ص 252 ، طبعة النجف .
70) غاية المرام» الحديث 24 ؛ و«أمالي الشيخ» ص 253 ، المجلس التاسع ، طبعة النجف .
71) غاية المرام» الحديث 27 ؛ و«أمالي الشيخ» ص 343 و 344 ، المجلس الثاني عشر .
72) غاية المرام» ص 94 و 95 ، الحديث الثلاثون ؛ و «أمالي الشيخ» القسم الأوّل ، الجزء 12 ، ص 361 و . 362
73) غاية المرام» ص 95 ، الحديث الحادي والثلاثون ؛ و «أمالي الشيخ» ج 2 ، الجزء 18 ص 131 و . 132
74) غاية المرام» ص 95 ، الحديث 32 ؛ و «أمالي ابن الشيخ» ج 2 ، ص 158 و 159 مجلس الجمعة الرابع من المحرّم سنة . 457
75) غاية المرام» ص 95 و96 ، الحديث 34 ؛ و«أمالي الشيخ» ج 2 ص 170 و . 171
76) غاية المرام» ص 96 ، الحديث 35 ؛ و«أمالي الشيخ» ج 2 ، ص 172 و . 173
77) غاية المرام» ص 96 ، الحديث السادس والثلاثون .
78) غاية المرام» ص 96 ، الحديث الثامن والثلاثون .
79) لمّا أضافوا كلمة (المولى) إلى الشخص ، فهو يعطي معنى العبد أو معنى السيّد ، كما نقول : قَنْبر مَوْلى عليّ ، أي : عبده ، أو نقول : عَلِيّ مَوْلى قَنْبَر ، أي سيّده ؛ إلّا أنّنا لو نسبنا المولى إلى القبيلة ، كأن نقول : مَوْلَى بني أسَد ، مولى الأزْد ، مولى ثقيف ، فإنّ المراد به معنيان :

1 . الحليف . 2 . النزيل والمهاجر إلى تلك القبيلة . وعلى هذا فإنّ حبيب بن نَزَار بن حَيّان الذي كان مولى لبني هاشم ، إمّا أنّه كان حليفاً لهم أو أنّه كان نزيلاً عندهم أو مهاجراً إليهم . ومن هنا يستبين أنّ شَوذَباً الذي كان مع عابس بن شبيب الشاكريّ يوم عاشوراء ، ويسمّونه : شَوذب مَوْلَى شاكر ، لم يكن عبداً لعابس ، بل كان حليفاً لشاكر ، قبيلة عابس أو مهاجراً إليها . وشاكر قبيلة في اليَمَنْ من هَمْدان ، من أولاد شاكر بن ربيعة بن مالك ؛ وكان عابس من تلك القبيلة ، لذلك يسمّونه : الشاكريّ . وكان شوذب إمّا حليفاً لتلك القبيلة أو نزيلاً عندها ؛ ولهذا كان رفيقاً لعابس في سفره مستمتعاً بفيض كربلاء . ولعلّ منزلته كانت أرفع من منزلة عابس ، لأنّ المؤرّخين يقولون فيها : وَكَانَ مُتَقَدِّماً فِي الشّيعَةِ .

80) الأمالي» للشيخ المفيد ، ص 26 إلى 28 ، طبعة سنة 1403 هـ ، المجلس الثالث .

81) الآية 68 ، من السورة 28 : القصص .

82) غاية المرام» ص 96 و 97 ، الحديث . 39

83) ذكر ابن الأثير في «النهاية» : الحَوْر بالحاء المهملة وقال : «نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ ، أي : من النقصان بعد الزيادة . وقيل : من فساد أُمورنا بعد إصلاحها . وقيل : من الرجوع عن الجماعة بعد أن كنّا منهم . وأصله من نقض العمامة بعد لَفّها» ولكن لمّا ذكرها صاحب «غاية المرام» بالجيم المعجمة ، فقد جئنا بها كما ذكرها تبعاً له .

84) غاية المرام» ص . 103

85) تفكّر نوين سياسى اسلام» ، تأليف الدكتور حميد عنايت ، في ترجمة أبي طالب الصارميّ ، ص . 39

86) تفسير المنار» ج 6 ، ص 464 و . 465

87) تفسير المنار» ج 6 ، ص . 467

88) دائرة المعارف» وجدي ، ج 3 ، ص 743 إلى . 768

89) دائرة المعارف» ، وجدي ، ج 10 ، ص 811 إلى . 848

90) الآية 23 ، من السورة 43 : الزخرف .

91) دائرة المعارف» ، وجدي ، ج 7 ، ص 218 فما يليها .

92) دائرة المعارف» ، وجدي ، ج 7 ، ص . 222

93) الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانيّة» ص . 30

94) لم نعثر على نصّ كلامه ، فترجمناه من الفارسيّة (م) .

95) جاء ذلك في كتاب «تطهير اللسان» المطبوع في حاشية كتاب «الصواعق المُحرقة» ص . 94

96) دائرة المعارف» ، وجدي ، ج 3 ، ص . 745

97) دائرة المعارف» ، وجدي ، ج 3 ، ص . 749

98) يقول : «إذ لم يرغب الخفّاش في وصال الشمس ، فهو لا يقلّل من قيمتها ورونقها» .

99) القريع : السيّد والرئيس . (م)

100) تفسير أبي الفتوح» ج 2 ، ص 193 ، طبعة المظفّريّ .

101) الغدير» ج 2 ، ملخّص ص 180إلى . 183

102) وأضاف السيوطيّ هذا البيت في شرح شواهد المغني ، ج 1 ، ص 34 :

وَلَا أَنَا مِمّنْ يَزْجُرُ الطّيْرَ هَمّهُ

أَصَاحَ غُرَابٌ أَمْ تَعَرّضَ ثَعْلَبُ

103) الأغاني» ج 15 ، ص 119 و 120 ، طبعة ساسي ، ضمن عرض ذلك على الفرزدق .

104) شرح شواهد المغني» تأليف السيوطيّ ، ج 1 ، ص 35 إلى . 39

104) شرح شواهد المغني» تأليف السيوطيّ ، ج 1 ، ص 35 إلى . 39